PASSING BRAVE

رحلة إلى الماضي العربي

تاليف : وليــام بولك ▢ وليــام مارز

■ ترجمـــة : عبد الوهاب الجلاصي



المؤلفان

● ويليام ر. بولك:

شغل ويليام ر . بولك خطة رئيس لمعهد أدلاي ستيفنسن للشؤون العالمية بشيكاغو منذ انبعاثه سنة ١٩٦٧ وهو سليل فورت وورث ، تكساس . وقد حصل على شهادتين إحداهما من جامعة هارفارد والأخرى من جامعة أكسفورد . من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٦١ ، كان عضوا لمركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد ، وعمل لدى مجلس التخطيط السياسي بوزارة الخارجية الأمريكية خلال فترة رئاسة كيندي ، ثم التحق بجامعة شيكاغو في خطة أستاذ تاريخ ومدير لدراسات الشرق الأوسط ، وقد حصل على زمالة مؤسسات روكفلر وجاجنهايم وفورد . ألف السيد بولك عدة كتب منها : الولايات المتحدة الأمريكية والعالم العربي ، وساهم في كتاب الأطلسي والشؤون الخارجية .

●ويليام ج. مارز:

ولد ويليام ج . مارز بسانت لويس ، ميزوري ، ونشأ بهوستن ، تكساس . تخرج من جامعة هارفاد سنة ١٩٦٢ وحصل على الأستاذية في الفنون من معهد فلتشر للقانون والدبلوماسية سنة ١٩٦٤ . شغل خطة مراسل صحفي ومصور لفائدة صحيفة سان - تايمز بشيكاغو وهو مؤلف كتاب سابق : آلة البحرية .

المترجم في سطور

ـ غبد الوهاب الجلاصي عام ١٩٥٩ في جندوبة ـنس. يحمل بكالوريوس اللغة والآداب الانكليزية من ـار المعلمين العليا ببنزرت عام ١٩٨٣.

– عمل استاذا للغة الفرنسة بجامعة ولفرها مبتن بانجلترا.

يعمل الآن أستاذاً للغة الانجليزية ومترجماً قانونيا.

– أنجز العديد من الترجمات في مجالات علمية مختلفة.

رحلة إلى الماضي العربي

PASSING BRAVE

BY
WILLIAM R. POLK
and WILLIAM J. MARES

ALFRED A. KNOPF · NEW YORK 1973

رحلة إلى الماضي العربي

تأليف :

ويليم .ر. بولك

ويليم .ج. مايرز

ترجمة : عبد الوهاب الجلاصي

الطبعة الأولى

1995

منشورات المجمع الثقافي

Cultural Foundation Publications

ص. ب ٢٣٨٠ ـ ابوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة ـ هاتف : ٢١٥٣٠٠

P.O. BOX : 2380 - ABU DHABI - U.A.E. - TEL. 215300 - CULTURAL FOUNDATION

كلمة شكر

●

إنّ هذا الكتـاب في معظمـه مجهود مشـترك، فقـد التقط أغلب صوره ويليـام مـارز، وكتـب الجزء الأكـبر مـن النص ويليـام بولك. غـير أن التجربة كانت من أولها إلى آخرها تجربة مشتركة.

نتوجـه بالشـكر إلى كثير مـن النـاس. لقد شملنـا الملك فيصـل عاهل المملكة العربية السـعودية بكرم الضيافة في سخاء متميز ووفر لنا المعدات والدواب. كمـا استضافنا أعضاء مختلفـون ينتمون إلى حكومته و عائلته خلال فترات مـن الرحلة وسـاعدنا أمراء الرياض وبريدة وحائل وجوف ومجمعه بصفة خاصة. وتجاوز كل من الشيخ أحمد عبد الوهاب والشيخ منصور الخريجي مهامهما الرسمية إلى حد كبير في سبيل مساعدتنا. يظهر رفاق طريقنا كثيرا في القصـة التالية، ونحن مدينون لهم بصورة نعجز عن وصفها. وقد ساهم عـدد من الأشخاص الآخرين بصورة مباشرة أوغير مباشرة في تمكيننا من إنجاز الرحلة. ولا شـك أننا ما كنا لنستطيع القيام بهـا البتة بدون تدخل دجون مارشـال من مؤسسـة روكفلر قبل عشرين

سنة، وبدون الوصاية الحكيمة للأستاذ السير هاملتون جيب، ما توقدت الشرارة التي جعلتها أكثر من مجرد مغامرة. وقد ساعدنا بصفة خاصة الأستاذ ياروسلاف ستتكفيتش من جامعة شيكاغو والأستاذة منى خوري من جامعة كاليفورنيا، بيركلي، وسعادة ويليام ستولتسفوس سفير الولايات المتحدة الأمريكية بالكويت وسعادة هيوم هوران سفير الولايات المتحدة الأمريكية بالمملكة العربية السعودية، وقد آزرنا السيد والسيدة كوستا هلكياس في بيروت ومكنانا من حمام دافئ، في الأوقات الحرجة. وقد قامت السيدة كيتي فرايدهايم والآنسة روث مولر تكرارا بطباعة المخطوطة وبرهنتا في ذلك على صبر لا يسعنا إلا التنويه به.

المقدمة

●

هذه قصة رحلة دنكخوتية، رحلة على ظهور الإبل، استغرقت شهرا كاملا عبر أراضي الجزيرة العربية. غير أن الغرض الحقيقي منها كان البحث عن ذاكرة حضارة بصدد الاندثار. لقد كانت محاولة لتذوق الطعم الأخير، شيء من الصفة المميزة، إحساس شخصي بحضارة الصحراء قبل اندثارها، مثلما حصل لحضارة هنود السهول الكبرى ورعاة البقر والإسكيمو والفرسان المنغوليين.

وعلى غرار البحر، فإن الصحراء تجلب، بل تفتن أولئك الذين يدخلون في مدارها، ومن الصعب أن يتم تحديد مصدر القوة الساحرة لديها. يتسلى سكانها الأصليون – البدو – بالشعور بالدهشة والإثارة الذي عادة ما يوجد لدى المسافرين الغربيين. فبالنسبة للبدو، تمثل الصحراء موردا طبيعيا للاستغلال، وهي أيضا خطر ينبغي تقديره وخصم لا بد من الالتقاء به، غير أنه لا يهزم أبدا. والصحراء في نظر الغربيين تحدٍّ ورحلة إلى عالم خارج مدار الجاذبية، وهروب من الملل، فمع وعيه

بحركية الأرض، يجد المسافر انسياب البحر. وبإزالة العوائق والحواجز التي أنشأها حول نفسه، يجبر على أن يحس ويذوق، بل عليه أن يتحمل كل السطوة لطبيعة لا ترحم. وبعيدا عن الضباب الذي تسببه الأوساخ، بعيدا عن الإنزعاج الذي تسببه الضوضاء، وبدون حماية الأسقف والأشجار، يتسنى له أن يرى النجوم والقمر والشمس والريح، ويحس بها بطريقة لا تتاح له في أي مكان آخر.

والصحراء، مثل مغنطيس قوي، تغير أولئك الذين يقعون داخل مجالها. فهي تكاد تكون تجربة غامضة بالنسبة لكثير من المسافرين، وهي بالنسبة لآخرين تحدٍّ لإنسانيتهم، بل لبقائهم ذاته. لقد وجد بعضهم فيها السكينة، ووجد البعض الآخر اليأس. كما أنشأ آخرون، اعتمادا على موارد داخلية، آثارا عظيمة في الأدب والفلسفة والدين. وربما لا تكون الصحراء سوى عدسة تكبير أو شيئا يمكن الإنسان من أن يصف ما يراه بالضخامة مهما كانت حقيقته. إن وصف هذه المظاهر من رحلتنا أمر صعب، وهي إلى حد ما مظاهر تكاد تكون شخصية بحيث لا يمكن البوح بها. لقد كانت في أغلب الأحيان نتيجة جانبية للتعب والألم والحرمان. فقد كانت للقهوة نكهة متميزة داخل فم مملوء بالرمال، وكان للقمر إشعاع ملطف لأعين احمرت من وهج الشمس، وكان للبطانية أديم متميز للظهر الذي اشتدت به الأوجاع من كثرة الركوب. كيف يمكن التعبير عن هذه الأحاسيس الشخصية؟ ربما يكون أحسن القول إننا كتبنا الكتاب الذي كنا وددنا قراءته قبل قيامنا بالرحلة. بَيْدَ أنَّ هذا الكتاب لا يستطيع أن ينقل بطريقة واضحة لمن لم يشاركنا الرحلة، ذلك المزيج من الأحاسيس والانفعالات الغريبة التي أثارتها التجربة المباشرة.

كانت للرحلة أسباب متعددة. فقد أثارها حادث يصور زوال طريقة عيش البدو. في شهر نوفمبر من سنة ١٩٧٠، كنت في الأردن التي دمرتها الحرب، وصدفة، كان أحد أيام الزيارة عطلة. وللهروب من مدينة عمان الحزينة والخطرة، ذهبت في نزهة إلى آثار قصر صحراوي قديم. وفي طريق العودة إلى عمان، قادنا الدليل الحكومي على متن سيارتنا من نوع لاندروفر، قرب مخيم للبدو. كانت الشمس لا تزال عالية في السماء وكنت عطشانًا، لذلك قبلت بسرور اقتراح السائق بأن نتوقف لما يستحقه المسافر: فنجان من القهوة ومع اقترابنا من الخيام الطويلة السوداء - "بيوت الشعر" في التعبير العربي - لم نبصر دوابا، بل كانت عربة من نوع فورد، زيّنتها ألوان زاهية، راكنة خارج إحدى الخيام.

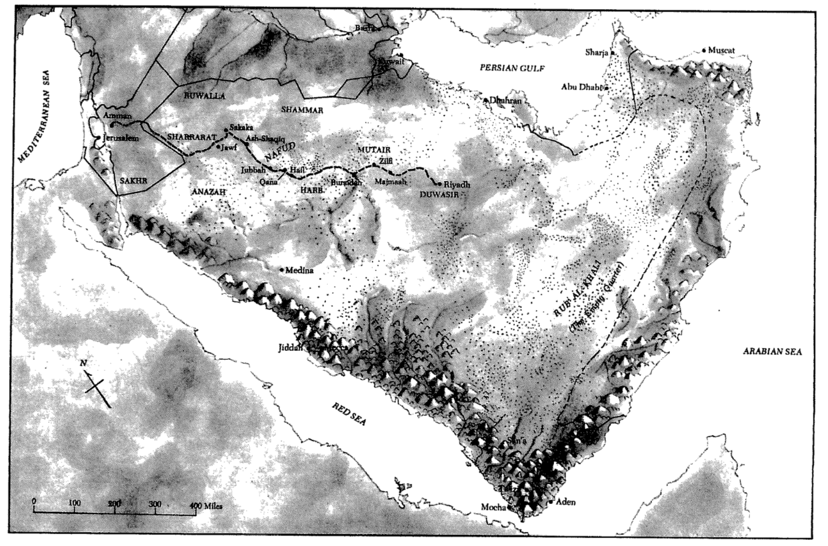
خرج عدد من الرجال من الخيمة، ووجهوا لنا التحية التقليدية بما فيها من طيبة وكرم. قادونا إلى قسم الرجال من الخيمة، وانهمكوا لتوهم في إعداد القهوة. وبعد تحميص حبوب القهوة على النار، دقها شيخ المخيم في مهراس من النحاس، وخلط القهوة الجديدة مع القديمة، بينما أعدت النسوة في الجانب الآخر من الخيمة أرغفة من الخبز غير المخمر، المتبل بالسمن. وباستثناء العربة، فإن كل شيء كان تماما مثلما كنت أتذكره من خلال زياراتي إلى الصحراء منذ ٢٥ سنة تقريبا.

أثناء شرب القهوة، تحدثنا حول طعم الحشائش الصحراوية واحتمالات الأمطار. وقد أثار دهشتي الحديث المتزايد حول السياسة في العالم. كانت هذه نغمة تشمئز منها المسامع وتذكيرا تستثقله النفوس بالمهام التي تنتظرني في عمان. طلبت من مضيفي ضاحكا ما إذا كان يمكن لنا أن نتحدث حول أشياء أكثر متعة. ثم سألت ما إذا كان هناك

راوٍ بين أفراد المجموعة، وهو المدرس والصحافي وناقل الحكايا ورجل الدعاية في المجتمع العربي، لينشدنا بعض الأشعار؟ فأجاب الشيخ: "لا، ولكن عندنا جهاز راديو". وبروح عالية من الشمولية سألنا: "هل تريدون الاستماع إلى صوت أمريكا أو صوت العرب أو راديو موسكو؟".

في تلك اللحظة، وقع نظري على دراجة تستند إلى عمود الخيمة، ولمداعبة مضيفي قلت بسخرية: "أيها البدو، ماذا جرى لكم ولعشيرتكم؟ ليس لكم شِعْر بل راديو، وليس لكم إبل، إنما عربة فقط. والآن فإني أرى أن لكم عوضا عن الحصان العربي، دراجة مشدودة إلى عمود خيمتكم".

طأطأ الشيخ العجوز رأسه بحزن وهمهم قائلا:"إن الدراجات لا تحتاج إلى علف".


MEDITERRANEAN SEA
PERSIAN GULF
ARABIAN SEA
RED SEA
Muscat
Sharja
Abu Dhabi
Dhahran
Riyadh
Basra
Kuwait
RUWALLA
SHAMMAR
SHARRARAT
MUTAIR
ANAZAH
HARB
DUWASIR
SAKHR
NAFUD
Amman
Jerusalem
Sakaka
Ash-Shaqiq
Jawf
Jubbah
Hail
Qana
Buraidah
Zilfi
Majmaah
Medina
Jiddah
San'a
Mocha
Aden
RUB' AL-KHALI
(The Empty Quarter)
N
0
100
200
300
400 Miles

خريطة

الفصل الأول

1

لا توجد إبل في الجزيرة العربية؟

هـل يمكنكم تصور الجزيرة العربية بدون إبل؟ إنهـا سوف تكون مثل غرب همجـي بدون رعـاة بقر، أو إسـكيمو بدون زلوجـة الكلاب. والآن، فإن ذلك العالم التقليدي قد اقترب من الاندثار. قبل وفاته بقليل سنة ١٩٦٠، تنبأ مستكشف الصحراء، الإنجليزي الشـهير سان دجون فيلبي، أنـه لن يكون للجزيرة العربيـة إبـل بعد ٣٠ سـنة. لكن كلامـه اعتبرغـير جدير بالاهتمـام آنذاك. واليوم، يبـدو أن تنبؤه ربمـا كـان في محلـه. لقد اختفت الناقـة والبدوي تقريبا من صحـاري الجزيرة العربية . وهكـذا فإن العهد الذي بـدأ قبل حوالي ٣٠٠٠ سنة بتدجين الإبل، هو الآن في طريقـه إلى الزوال. ورغـم أنـه لا يعـدو أن يكون موضع لهو للأطفـال في أراضي الشـمال الباردة، فـإن الجمل لعب دورا هامـا، أكبر

بكثير من ذاك الذي أداه الحصان أو الكلب، في مطلع الحضارة.

عندما تنظر إلى خريطة للشرق الأوسط، تخيل حذوة فرس كبيرة لها طرف يلامس القدس تمتد الحذوة شمالا طوال المدن الفينيقية القديمة على ساحل البحر الأبيض المتوسط وجبل لبنان، مرورا بدمشق وحلب، وشرقا طوال الحدود التركية إلى الموصل، ثم جنوبا عبر جبال كردستان إلى منخفضات نهري دجلة والفرات، عبر بغداد والبصرة، حيث تلامس الخليج الفارسي. تسمى هذه الحذوة الكبيرة الهلال الخصيب. إنها ليست فكرة تجريدية، بل هي حدود مائية. يتلقى الهلال والأراضي التي توجد خارجه أكثر من ثماني بوصات من مياه الأمطار سنويا، وهي الكمية اللازمة للفلاحة إجمالا. ويمكن للناس أن يستقروا ويشتغلوا في الفلاحة، ويشيدوا المدن ويقوموا بجميع تلك الأعمال التي أنتجت بداية حضارتنا.

إن جل الأراضي التي تقع داخل الهلال صحراوية، حيث لا تتوافر كمية من الماء تكفي حاجة المدن والقرى والمزارع، سوى في القليل منها. ولو كانت لك خريطة بحجم بساط غرفة الجلوس، تمثل ثلاثة من أطرافها الهلال الخصيب، لأمكن لك تكوين فكرة حول الموقع العشوائي لواحات الصحراء وذلك بأخذ ملء قبضة من القطع النقدية ورميها فوقه. تمثل أجزاء البساط التي تغطيها القطع النقدية الواحات. أما في غير تلك الأماكن، فلا يوجد إلا قليل من الماء بنحو متواصل أو منتظم من شأنه أن يسد حاجة الزراعة.

وهذا لا يعني أن الصحراء جافة بصفة دائمة، ذلك أن العواصف الرعدية القوية، مثل تلك التي تحدث في أي من بقاع العالم على هذا الكوكب، تحول أحيانا الأودية الجافة والرملية إلى بحار من الفياضانات

العنيفة التي تجرف الناس والحيوانات والخيام بعيدا. ولكن بعد أيام قليلة، تجفف الشمس مجاري الفياضانات، لتصبح مثل العظام التي ترسم الطريق في الصحراء. وبطبيعة الحال، توجد أماكن في الصحراء لا تنزل فيها الأمطارالبتة، غير أنها تنزل في غالب الأحيان متقطعة خلال الشتاء والربيع. وبما أن الماء لا يأتي بصفة منتظمة، فإن ذلك جعل الناس والدواب يتتبعون الأمطار. وهذا ما جعل سكان الصحراء الأصليين، بشرا كانوا أم دوابا، يتصفون بكثرة التنقل.

لم تكن الصحاري العربية، خلال الخمسة آلاف سنة الماضية على الأقل، أكثر مطرا مما هي عليه اليوم. إذ تميل الإحصائيات التي أجريت طوال الجيلين أو الثلاثة الأخيرة، إلى الإشارة إلى نمط دوري من الأمطار. ويبدو حسب ما هو معروف الآن، أن الفترة الفاصلة بين شدة الجفاف وغزارة الأمطار وشدة الجفاف ثانية، تقدر بحوالي خمسين عاما. وهذا يشبه "الحلقة طويلة المدى" بالنسبة لأعمال رحل الاقتصاد التي تتعرض إلى عدد من التذبذبات، بين السنوات التي تكون أكثر خصوبة أو جدبا.

ومهما حسنت الأحوال، فإن الصحراء كانت دائما محيطا قاسيا وصعبا. ذلك أن الأمطار، حتى خلال الفترة التي تكون سخية في فصل الربيع، لا تبلغ سوى خمس أو ست بوصات فقط. كما أنها قد لا تنزل في بعض المناطق إطلاقا. وحتى خلال سنوات الخصوبة، فإن حرارة الصيف سرعان ما تجفف العطاء القليل للسحب الممطرة.

يعد البقاء في الصحراء تحديا، ذلك أن سجل الطائرات التي تحطمت خلال الحرب العالمية الثانية هو بمثابة تذكير مروع لما يمكن أن تمثله الصحراء من خصم مرعب. كما أن نسبة البقاء بين الشبان الأقوياء – الذين يحملون تجهيزات حديثة متطورة – ضئيلة حتى خلال وجودهم

على امتداد فترة قصيرة نسبيا داخل الصحراء. وعلى غرار البحر، تضع الصحراء مقاييسها الخاصة بها، ليصبح البقاء غير ممكن إلا لمن كان ماهرا. بيد أن البقاء فحسب ليس كافيا، إذ أنَّ التحدي الحقيقي يكمن في القدرة على استعمال موارد الصحراء بطريقة مفيدة. ذلك أنه ينبغي على الناس أن يكونوا جد محنكين لكي يستطيعوا كسب رزقهم منها. كما يجب عليهم أن ينموا وسائل تتناسب مع مهامهم، ويكونوا أنظمة احتماعية تضمن أقصى حد من التقاسم للعمل، غير أنها ينبغي أن تبقى ضيقة بحيث تجنبهم استنفاذ الموارد المتوافرة. وبعيدا عن كونها طريقة العيش البدائية التي "تطور" منها الناس إلى الفلاحة، فإن العكس هو الصحيح بدون شك. ذلك أن الترحل الصحراوي هو تجربة أكثر حداثة في تاريخ الإنسان من الفلاحة. وزيادة على الخاصيات الاجتماعية المعقدة، فإن الناس كانوا في حاجة إلى مساعدين متخصصين. فبدون مساعد، كان يتعذر نقل الماء والمؤونة اللازمين لبقائهم، كما يتعذر استعمال الموارد الهامشية للصحراء. وقد تبين أن أغلب الحيوانات ضعيفة تماما مثل ضعف الإنسان ذاته. فنفع الحصان في الصحراء هو تماما مثل نفع سيارة كادلاك في المزرعة. ثم إنه ينبغي للكلب أن يدلل ويغذى وأن يوفر له الماء. والأدهى من ذلك كله، أن مياه الصحراء العادية التي توجد في الآبار والينابيع، غالبا ما تكون مالحة ولا يمكن للإنسان ومساعديه من الحيوانات شربها.

ينفرد الجمل وحده بأنه الحيوان الذي يلائم الصحراء ملاءمة تامة. فهو ليس فحسب يستطيع السير لمدة طويلة بدون ماء – وطول المدة يتوقف على درجة الحرارة ونوع الغذاء الذي يأكله – بل يستطيع كذلك أن يشرب مياها شديدة الملوحة بالنسبة لحيوانات أخرى كما تقوم أقدامه بأخفافها الضخمة مقام القبقاب الثلجي فوق أرض زلجة،

وتطيب لجهـازه الهضمي العجيب نباتـات تكون شـائكة وقاتلـة بالنسـبة لحيوانـات أخـرى. وإلى أن تم تدجين الجمـل، لم تكن الصحـراء مغلقـة فحسب في وجه الإنسان، بل كان دخولها عديم الفائدة أيضا.

عد مـرة أخرى إلى خريطـة الشـرق الأوسـط، واعتـبر الهلال الخصيب شـاطئا، والصحاري في الجنوب بحرا رمليا ضخمـا. قبل الجمل، "سفينة الصحراء"، كانت مغـامرات الجنس البشـري تنحصـر في غزوات قصيرة خارج الشـاطئ. وتتضح أهميـة الجمل في بدايـة الحضـارة عندما يدرك الإنسـان أنـه إلى حـدود سنة ١٠٠٠ق.م تقريبـا، عندمـا أصبح الجمل ملكا شـائعا لشـعوب هذه المنطقـة، فإن الشـرق الأوسـط الحقيقي، مثل البحر المرجاني، لم يكن سوى شريط ضيق من الأرض الزراعية.

وليس بوسـعنا إلا أن نحزر السـبب الـذي دفع النـاس إلى الدخول في الصحراء. ربما كانت مجموعة من العوامل: فالضغط السكاني، واستبداد الحكومـات، أو المجاعـة في المناطق الآهلـة، كانت قـد جعلت المجموعات التي كانت في ذلك العهـد تتكون جزئيا من البدو الرحل وتكرس حياتها في الرعـي، تقضي أوقاتـا متزايدة في الصحـراء. وباكتشـافها لمواضع أخـرى، وجدت أن للصحـراء جاذبيـة خاصـة. فخـلال الفصل الممطر، توفـر الصحراء كلأ جيـدا. كمـا كـان الصيد الـبري وافـرا حتى العصر الحديث، عندمـا أباده تقريبا، رجـال ذوو بنادق متطورة جدا، وعربات قديـرة على المطـاردة. وقد وجـد الناس أيضـا عـبر التـاريخ في الصحراء مجـالا للحريـة، يكـاد يفوق خيـال فـلاح الأراضي الآهلـة الذي قيدتـه اليابسة.

ثم شـيئا فشـيئا، وببطء، أخـذت الجزيرة العربيـة تمتلئ بمجموعات من البـدو الرحل، والواحات بأنـاس مسـتقرين، حيث انتقل بعض هؤلاء إلى

الجنوب من سوريا وبلاد ما بين النهرين، بينما انتقل آخرون إلى الشمال من اليمن وقبالته من أثيوبيا، وهاجر آخرون أيضا من بلاد فارس والهند. كان العرب يختلفون عرقا وحضارة ودينا، ومن المؤكد أن عملية التوسع كانت بطيئة في البداية ولكن يبدو انه مع بداية العصر المسيحي، لم تكن الجزيرة العربية قد أهلت نهائيا فحسب، بل وكما يوحي به وصف المجاعة في الشعر القديم، كانت قد اكتظت بالسكان من فترة الى أخرى.

وبما أن المبادئ الأخلاقية في الصحراء تدعو إلى معاملة الضيف بكرم وسخاء، فإن حقدا يتقد داخليا على "الفائض من السكان" الجائعين والمحتاجين، كان يظهر من حين لآخر. وفي قصائد أحد شعراء القرن السادس، نلاحظ السخط الخالص للمعطي: "لعنة الله على السارق المحتاج، الذي يتسلل كالذئب إلى داخل الخيمة، ليمتص مكاك العظام عندما يسدل الليل ظلامه". يمثل " وجه الظلام الأسود" أكثر من تعبير مجازي، ومن حين لآخر، يسوق الجوع بمجموعات من البدو الذين كيفتهم قسوة الصحراء وتطبعوا بطابع حياة المغامرة، إلى الهجوم على الأراضي الآهلة ليحملوا معهم الغنائم، أو ليستقروا كأسياد عليها.

لقد فتنت المظاهر المثيرة لنبض الغارات والغزوات في الصحراء المؤرخين، وأعجبتهم لفترة طويلة، وذلك ليس فقط لوجود رومنسية هوجاء تتعلق بالصحراء، بل وكذلك لأن الحكام الذين استقروا في العصر الحديث، لاحظوا وجود موارد عسكرية ينبغي استعمالها إذا تعذر ترويضها. وهكذا، جد الرومان في إخضاع الإمارات التي ساد فيها الاستقرار أو كاد، والتي تقع على حافة الصحراء، لاستعمالها كدارئة ضد البدو "الأصليين" الذين يمثلون خطرا أكبر، ويعدون أقل تحضرا.

وشيئا فشيئا، تطورت هذه السياسة إلى سياسة تسجيل أعداد وافرة من البدو كجنود مناصرين من الفرسان. كما حدثت محاولات لتنصير العرب وإدماجهم في البنية الدينية والسياسية للإمبراطورية البيزنطية. وقد حققت هذه السياسة نجاحا معتبرا، إذ أصبحت قبائل بأكملها من شمال الجزيرة العربية وسوريا تدين بالنصرانية، وأصبحت تتقاضى معاشات كجيوش تابعة للقوات البيزنطية.

في أواخر العهد الروماني وأوائل العهد البيزنطي، أنتجت التجربة المشتركة مع الصحراء عند القبائل المختلفة طريقة عيش متماسكة، وعقلية متميزة، ومجموعة من القيم وثقافة ملموسة، برزت كحضارة متميزة ومتجانسة. وفي هذا المجال وغيره، لم يكن تطور الشعوب العربية القديمة مخالفا لتطور الإغريق أو الرومان اللذين هما مألوفان بالنسبة لنا في الغرب. إنه مسار تطور معقد جدا ومغشى بضباب التاريخ، مما جعل اهتمامنا الحالي "ببناء الأمم" يبدو بسيطا وسطحيا.

ثم فجأة، تقشع الضباب خلال القرن السادس لتجد "حضارة الصحراء" هذه صوتها. فمثل الإغريق القدامى، أنتج البدو، بدون تمهيدات معروفة، المجموعة تلو الأخرى من الأشعار الرائعة. وقد سميت هذه الأشعار "أرشيف العرب" الذي دونوا فيه كل ما له قيمة عندهم.

لم يكن الشعر محور الحضارة العربية فحسب، بل كان أيضا الحافز على رحلتنا عبر الصحراء التي سعينا خلالها إلى عيش تجربة أحد الشعراء القدامى، في محاولة منا للوصول إلى فهم أكثر عمقا لوصفه الرائع لحياته في الصحراء خلال القرن السادس.

ربما يتمثل أصعب شيء بالنسبة لغريب، عند محاولته أن ينفذ إلى أعماق حضارة أخرى، في عزله لحضارته الخاصة به. وكل الذين

حاولوا تعلم لغات أجنبية منا، يعلمون مدى صعوبة الإلقاء بأنفسنا في طرق مغايرة في النطق. وبعبارة أدق، فإننا نواصل الاعتقاد بأن الآخرين هم "مثلنا تماما"، ونفترض أن تلك الأشياء التي نعتبرها هامة هي كذلك أيضا في العالم بأسره. فنحن حضارة مرئية وملموسة، ومعالمنا الحضارية غالبا ما تتكون من أشياء. غير أنه لا يمكن للأشياء عند البدو أن تكتسي مثل هذه الأهمية، حيث لا يمكن حملها إذا كانت كبيرة الحجم، وهي تكسر إذا كانت هشة، أما إذا كانت صغيرة الحجم، فإنها تفقد. وكالعادة، تم إيضاح هذا الأمر في اللغة. تعني كلمة "قنطر" في اللغة العربية "استقر" كما تعني "ملك وزنا كبيرا من الشيء". وبناء على ذلك فإن البدو، وحتى هنود السهول الكبرى بالولايات المتحدة وكذلك الإسكيمو، كانوا يميلون إلى التأكيد على المظاهر غير الملموسة للحضارة. ولكن نتاج الحضارة، الملموس منه و غير الملموس، يتميز بالمتانة أو بالهشاشة. فعند الأميين الذين لا يمكن لهم الحفاظ على أشيائهم غير الملموسة إلا في ذاكرة الإنسان، وحب التأكيد على الإيجاز وهشاشة الشكل، وهذه بالتحديد هي الصفات المميزة للشعر، حيث يدون فيه البدو ترجمة للعناصر الرئيسية في حياتهم. وعلى الرغم من أننا ربما لا نملك سوى القدر القليل من الشعر الذي تم نظمه خلال الفترة التقليدية فإن الأعمال المتوافرة لافتة للنظر بالإبداع في الوصف والإيجاز في الفهرسة والوضوح في تقديم طريقة العيش. لقد كتب البدو شعرهم لأنفسهم وليس لنا نحن. غير أنه بإمكاننا، إذا كنا على استعداد لبذل الجهد، أن نستشف منه العناصر الرئيسية لحضارة قديمة وغنية تكاد تكون قد اندثرت حاليا.

الفصل الثاني

2

الرحلة تبتدئ

منذ بضع سنوات، وفي لحظة قلق، دخلت إحدى قاعات السينما في القاهرة. كان يعرض شريطا بعنوان "السيد بلاندينغز يشيد منزل أحلامه". كان السيد بلاندينغز رجل إشهار حفت به وأزعجته مشاكل الثراء النموذجية المعروفة: خزائن ممتلئة وبيوت مؤن مرصوصة وخط خصر ناتئ، كثير جدا، وبسرعة كبيرة جدا، وفي مناسبات عديدة جدا. وكان الحل عنده أن يحصل على الموازنة بين تطلعاته المتصاعدة واحتياجاته المفترضة. كان السيد بلاندينغز مثالا ممتازا لقاعدة باركينسون التي تقول إن المصاريف تتصاعد دائما لتتجاوز الدخل.

ولكن لم يكن المشهد على الشاشة ذا بال مقارنة بالمشهد داخل المسرح المظلم. كان جميع الذين يحيطون بي من رجال ونساء، تشير

ملابسهم إلى أنهم من صغار التجار والموظفين وصغار موظفي الحكومة، والمشهد الذي كانوا يتابعونه يمثل حلم المليارين من سكان العالم الفقراء: كان جنة المادة.

يعتبر الثراء والفقر عادة قطبي عالمنا وطرفيه المتناقضين. ويسعى الفقراء والجياع إلى الحصول على مزيد من الأشياء، والأغنياء إلى الحصول على مزيد من المساحة لوضع الأشياء التي يملكونها. من منا ليس سجينا؟ يوجد في خزانتي بكل تأكيد عدد من البدل والقمصان والجوارب وأربطة العنق، يفوق ما أستطيع أن أرتديه طوال شهر كامل. وتوجد في المطبخ أدوات لا حاجة لها إطلاقا، كما أنها لا تستعمل إلا نادرا. ثم هنالك تلك الخزانات وخوابي المؤن وصناديق الثياب والسقية التي تمثل مقبرة النزوات والشهوات.

ولا يمكن أن ينكشف أمرنا أكثر من ساعة يدق جرس الإنذار معلنا عن اندلاع حريق. ففي تلك الحالات، كثيرة كانت أم قليلة، نختطف مصباحا كهربائيا لا قيمة له أو زهرية، ونندفع بدون معطف إلى الخارج في ليل شديد البرودة. ليست الأمتعة أدوات بل سادة، وليست وسائل بل رموز، اكتسبت بالعادة، وتم الاحتفاظ بها في حالة ركود، لتبرز عندما يكون الانسان مجبرا على التنقل.

ولحزم الأمتعة إعدادا لرحلة في الصحراء، ينبغي على المرء أن يترك الكثير من هذه الأشياء التافهة جانبا، وينتقي بعض الأدوات فقط. وللمواصلة مع حزم أمتعتنا، أقترح أن تتخيلوا كيسا أو إثنين لمعدات التخييم، عليك أن تحملهما على دراجة نارية. إنك سوف لن تجد فنادق، ولست متأكدا من العثور على مطاعم. كما أنك تعلم أنك ستمر بأيام لن تتمكن خلالها من الحصول على الماء، وقد تمت إحاطتك

علما بأن المكان يعج بالثعابين والعقارب والكلاب المسعورة والملاريا وأمراض أخرى. وعلاوة على ذلك، فإنك قد تسقط من دراجتك النارية أو تلتقي في طريقك بأناس آخرين، يكونون في حاجة إلى الإسعاف والمساعدة الطبية. وربما ينهمر المطر وتكون الليالي شديدة البرودة أو تكون في حاجة إلى حماية نفسك من قطاع الطرق ومن النهب والسطو. كما أنه لن تكون هناك طريق، ولن تكون لديك فكرة حول طول المسافة أو حتى المكان الذي ستحل به، لأنك معرض لأمور مجهولة.

تلك هي الحالة التي وجدت فيها نفسي بمعية بيل مارز في شهر فبراير ١٩٧١، عندما وافقت حكومة المملكة العربية السعودية على محاولتنا عبور الحاجز الرملي الكبير شمال الجزيرة العربية، بطريقة تقليدية دأب الناس عليها طوال ٣٠٠٠ سنة تقريبا، حتى اختراع السيارة.

لقد ترك لنا الرحالة الغربيون الكبار روايات مفصلة ومفعمة بالحيوية تدل على البراعة، حول رحلاتهم الشاقة عبر الصحاري العربية. لقد كانت مغامراتهم تتطلب شجاعة نادرة.

فقد انطلق العديد منهم بمفردهم لعبور صحار لم تكن لديهم فكرة عن امتدادها، يعادي سكانها بعضهم البعض كما يعادون الغرباء.

كان ذلك بدون عناية طبية أو أدنى معرفة أو أي إمكانيات للنجدة. وفي عالمنا اليوم، فإن الأماكن التي تمثل تحديات بهذا الحجم نادرة إن وجدت. بيد أنه كان علينا أن نعرف أن بعض الجوانب من رحلتنا سوف تكون مشاكلها أكثرصعوبة من تلك التي واجهها الرحالة الإنجليزي ويلفريد والسيدة آن بلانت منذ قرن تقريبا. غير أنه أثناء استعدادنا للرحلة في شيكاغو، تم إعلامنا بالتغيرات التكنولوجية الهائلة

الـتي حصلت في ذلك القرن. وكـانت العنايـة الطبيـة أول وأوضح مثال على ذلك.

تبنـى زميلان لنـا من جامعـة شـيكاغو، وهما الدكتـور جوزيف إيفنز والدكتور دجيمـس باومان رحلتنـا المقترحة. وفي اهتمـام بالغ بآمالنا في عبور حاجز الصحراء المرعب أحيانا، قدمـا لنا معلومات حول الأمراض التي تصيب الجنـس البشـري، أو تلك الـتي يحتمل أن تصيب الإنسـان في آسيا أكثر من غيرهـا. كمـا حصلا على كتـب حول أسـاليب البقاء وجمعـا كمية كبـيرة ومختلفـة من الأدويـة. واقـترح الدكتور إيفنز، وهو أحـد الخـبراء في تخصص إصابـات الـرأس، أن يجمع التجهـيزات اللازمـة للبقـاء إذا خصصنا لـه ثلاثمائـة أو أربعمائـة رطل من الوزن المحدود الذي سـنأخذه معنا. كـانت اللوازم الأساسـية تشـمل نقالـة وفأسـا، وأنواعا مختلفة من المقابض، ومجموعة هائلة من الأدوات الأخرى.

وقـد زودنا الدكتـور باومـان بمعلومات تتعلـق بالأخطـار التي تسـببها أمراض البلهارسـيا والملاريـا والسـيفلس والكلب. ولضمـان السـلامة: لاتسـتجم ولا تأكل ولا تلمـس أوتقترب من الكـلاب أبدا". كمـا أكد الدكتوران علينـا أن نلقـح ضد داء الكلب مـن بـاب الاحتيـاط. ونظرا لجداول أعمالنـا، كـان ذلك الأمـر صعبـا، ولكنهمـا صممـا عليـه بكل إلحـاح. وعندمـا كنت بصدد إلقـاء محـاضرة بناشـفيل، تينسـي، جرني الدكتـور باومان إلى أسـفل المبنى، حيث تم تلقيحي ضد داء الكلب على عين المكان.

كـان المهندس المعمـاري لورنـس بـيركينس أقل انشـغالا بمـا يمكن أن يصيبنـا أثناء الرحلـة ممـا كان عليـه بخصوص إمكانيـة فقداننـا للطريق. وباسـتحضار تجربتـه الطويلة في البحر، حـاول أن يلقننا مبـادئ استعمال

آلة السدس، كما نسخ لنا، لعلمه بمحدودية الوزن، " الزاوية عند اتضاح الظهر محليا، وذلك بالنسبة لخطوط عرض وتواريخ معينة، مستعينا بالحاسوب "، فيما يتعلق بكامل مدة الرحلة.

تشتمل تعليمات البقاء على بعض المعارف المفيدة، وعلى إشارة إلى أخطار الإرهاق من جراء الحرارة وفقدان الجسم للسوائل، لكنها تشتمل أيضا على كثير من الهراء. كان يبدو أن الطريقة المثلى للتعامل مع "السكان الأصليين" لم تكن تتمثل في دراسة ثقافتهم وحضارتهم وتقديرها حق قدرها بل في الاقتراب منهم بابتسامة عريضة واستعمال لغة الحركات. لذلك، كنا طوال الرحلة، عندما نحس بالأوجاع أو التعب أو الغضب، يذكر الواحد منا الآخر بأن يحافظ على الابتسامة ويلوح بيديه.

وبعدما رفضنا اقتراح الدكتور إيفنز بأن نتخذ الاحتياطات اللازمة لمجابهة الحوادث الهامة التي يمكن أن نتعرض لها في الطريق، وجدنا أنفسنا مع ذلك مصرين على حشر مواد طبية حيوية داخل زوايا أكياسنا التي كانت محشوة بالعدة اللازمة لآلات بيل للتصوير. ومثل جميع الذين يحزمون أمتعتهم، كان لنا ما يزيد عن الحاجة من كل شيء. ومثل جميع المسافرين، كان علينا أن نحزم ونعيد حزم أمتعتنا المرات العديدة خلال الرحلة، متخلصين من الأعباء في بداية الأمر، ثم من التوافه وأخيرا من حل المعدات، محتفظين فقط بما هو ضروري.

وبما أننا كنا قد اعتزمنا ارتداء عباءة البدو، قررنا عدم حمل كثير من الملابس الغربية. وقد انتهى "عدم حمل الكثير" إلى أربعة أزواج من الجوارب التي صنعت من الصوف، وزوج من الأحذية الرياضية، وزوج من أحذية المشي الواقية، وهي خشنة وثقيلة. ولم تكن أحذية المشي

الواقية ثقيلة ودافئة فحسب، بل كانت كذلك عبئا سرعان ما تخلصت منه. كان يبدو أن زوجا من البنطلونات التي صنعت من نسيج الجينز الأزرق وكاكي الجيش فكرة طيبة. وبما أن ليالي الصحراء باردة، فإن سترة من الصوف وبعض القمصان كانت تبدو أيضا ضرورية. لقد امتلأ الكيس الأول إلى حد الثلث تقريبا.

كانت أهم قطعة من معداتنا ومن بين أصغرها حجما بوصلة. وهنا بدأ يؤثر فينا، ليس التلهف الأمريكي على الأشياء فحسب، بل أيضا مفهوم النازا للأدوات الاحتياطية. فإذا كانت بوصلة واحدة أمرا ضروريا، فإن إثنتين تكونان مفيدتين وثلاثا من شأنها أن تضعنا في جانب الأمان.

ثم مدية جيب ملائمة، وقلم مثبت للعلامات، وأوراق للملاحظات وزوج من مزادات الماء، ولحاف يفرش على الأرض، وعدة مئات أقدام من حبل مظلات الهبوط الذي صنع من مادة النيلون، ودلو مخصص للتخييم. وكما يذكر كيبلنغ في كتابه "قصص هكذا" حين يقول: ينبغي عليك أن لا تنسى" الدلو "إنه أحب الأدوات".

ثم إنني متنت معطفا واقيا من المطر والرمل بمادة النيلون الخفيف الذي تصنع منه الخيام. زد إلى ذلك ذخيرة وافرة من أربطة الإسعاف وفرشاة الأسنان وحبوب دواء مضاد للملاريا والأسبرين والدارفون، وبذلك يكون أحد الأكياس قد امتلأ. بدأت الحقيبة الثانية بكيس للنوم. ذلك أنه من المؤكد أن ليالي الصحراء سوف تكون باردة، وكيس النوم هو أحد الابتكارات التكنولوجية الهامة لهذا القرن. كما أن إحدى الابتكارات الهامة الأخرى هي المواد الغذائية المركزة. وقد كانت فكرة جيدة أن نحمل معنا ما يكفي لتغذيتنا طوال أسبوع. هنا ربما تبلغ حماقة

الإنسـان أشدها. فقد دسست خلسـة، داخل كيس نومي، زوج مبرام لأوتـاد الخيـام للاحتفـاظ بهمـا، في اعتقادي، تحسـبا للعواصف الرمليـة الهوجـاء التي كـانت تنتظرنا حتمـا. كما كـان من شـأن بندقيـة وبعض الذخيرة أن توفر لنـا الصيد بسخاء، وكنت أتخيلني أرمي، بالطلقة المصيبة تلو الأخرى، الأرانب الأمريكية الهاربـة على بعد ثلاثمائة ياردة. وعندما وصلت إلى هـذا الحد مـن حزم الأمتعـة، بـدأت الغش. فبعـض أربطـة الإسعاف الأخـرى ستكون تدبيرا وقائيا جيدا، وكذا الأمر بالنسبة لزوج آخر من الملابـس الداخلية. كما كان عـدد من الكتب الهامة والمختلفة، بما فيهـا قاموس عربـي – أنجليزي، ينتظر وسـط حزمـة كبيرة إلى جانب الكيسين الثقيلين الممتلئين.

لقد حان وقت إعادة عملية الحزم الأول.

كـانت المشـاكل الفلسـفية الكبيرة جليـة: مـا هـو الأهم؟ أن نحمل قاموسا أم أحذية واقية، أم قطعا من الطعام المركز؟ كان يمكن للمرء أن يتخلى عن نصـف قطع الطعـام، ولكنـه لا يسـتطيع التخلـي عن الحذاء الأيسر أو نصف القاموس. وهكذا، تواصلت عملية التقييم، وبأيد مؤلمة من جراء التلاقيـح المتعددة، أخذ منـا حزم الأمتعـة سـاعات خلال أيامنا الأخيرة في شيكاغو.

وممـا زاد الطين بلـة، أن طائرتنـا كادت تفوتنـا بسـبب ازدحـام حركة المرور في المساء. وفي ترنح تحـت أعباء حقائبنا، مررنا بالمكان المخصص لقبول الأمتعة وليس لدينا سـوى خمس دقائق من الزمن، ووجدنا أنفسنا مثقلين بفـائض عن الـوزن المسـموح بـه إلى بـيروت، وبالتـالي دفعنـا خمسمائة دولار مقابل ذلك.

في بـيروت، محطـة عبورنـا الأولى، جمعنـا بعض التجهـيزات الأخرى

وشيئا من المؤونة الإضافية، لم نرد حملها عبر المحيط الأطلسي. وبالتأمل في الماضي والحاضر والمستقبل، كان أهم هذه المؤن، الكمية الاحتياطية من ماء إيفيان التي وضعت في علب من مادة الألومنيوم وقوارير من مادة البلاستيك. وقد امتحن بيل القوارير بأن قفز فوق واحدة منها دون أن تتكسر. كان ذلك مشجعا. ولكن تحت وطأة الاحتكاك المتواصل الذي تسببه الرحال، كانت نسبة تلفها عالية. ثم إن قلقنا إزاء البوصلات قد ازداد حدة بشأن نظارات الشمس. هنا، ربما كانت الاحتياطات المبالغ فيها مبررة، إذ أنه رغم استعمال نظارات الشمس، كانت أعيننا تصاب بالإنهاك أكثر من أي جزء آخر من أجسامنا، وكأني بالنظارات أبت إلا أن تزيد في متاعبنا من كثرة ما كانت تضيع أو تنكسر. كما كانت الرياح والرمال تحك نظاراتي تماما إلى أن تجعلها غير صالحة للاستعمال، فأضطر في النهاية إلى استعمال غيرها.

كان التفكير، ونحن نحلق في السماء في طريقنا من بيروت إلى الرياض، أننا سنجتاز خلال ساعتين تقريبا، رحلة في اتجاه واحد، نرجو أن لا تستغرق أكثر من خمسة أسابيع عندما نقطعها في الاتجاه المعاكس.

عندما كانت الاستعدادات جارية في شيكاغو، قمنا باتصالات مطولة مع المسؤولين في الحكومة السعودية لتأمين الحصول على التراخيص الضرورية، من استعانة بمرافقين من البدو وجمع للإبل والرحال والمعدات الأخرى. وبالطبع، لم تكن هنالك أية طريقة لمعرفة ما تحقق فعليا من المهمة في الوقت الذي نزلنا فيه من الطائرة في الرياض. كان قد تم تحذيرنا مرارا من أن المهمة ستكون صعبة وأنه من المستحسن أن نضع في حسابنا قضاء أسبوع على الأقل داخل وحول الرياض، بينما تتم التحضيرات اللازمة. وفي كل الأحوال، حذرنا مراسلونا بإلحاح من أنه

علينا أن نعود أنفسنا على المناخ وطريقة اللباس ونحن السفر في الصحراء.

ومثل جميع الرحالة في العصر الحديث، كنا عديمي الصبر. لقد تعلم أسلافنا الصبر بسبب الوصول البطيء إلى المكان المقصود، وفي غالب الأحيان كانوا ينتظرون أشهرا على شفا المغامرات التي كان يمكن أن تنتظر سنوات قبل أن تنجز. كانت هذه علامة أخرى تدل على التغيرات العديدة التي حصلت في عالمنا خلال القرن السابق. وخلافا لوضع السيد والسيدة بلانت اللذين قطعا جزءا من طريقنا ذاتها على مدار سنة قبل مائة عام، كان لدي أنا وبيل عمل ينبغي علينا أن نعود إليه. كان كل يوم ثمينا. وما كنا أبدا لنستطيع التخلص من الشعور بأنه لابد من حساب كل وحدة زمنية، وكان من الصعب علينا أن نستريح لرتابة تتلاءم أكثر مع نسق الحياة في الصحراء.

ومع انقطاع دوي المحركات النفاثة وانفتاح أبواب الطائرة الضخمة، خرجنا إلى ليل الجزيرة العربية الذي يتميز بالجفاف والبرودة. كان يمكن لمطار الرياض أن يكون في لوبوك، تكساس، لولا الرجال الذين يرتدون ثوبا طويلا أبيض ويكلل رؤوسهم غطاء ملون بالأحمر والأبيض. نزلنا الممر بصعوبة ومعنا الأمتعة الثقيلة التي احتفظنا بها في الحقائب التي حملناها إلى داخل الطائرة، ومشينا في اتجاه أضواء النيون الساطعة الموجودة في المحطة الأخيرة. طلب منا شاب، قدم نفسه بكل أدب على أنه ممثل قصر الملك، أن نتبعه إلى مقر الجمارك. قلنا لبعضنا إن هذا دليل ملموس على أن الرحلة حقيقية وأن الحكومة كانت جادة في دعوتها، وإننا كنا فعلا في طريقنا إليها. واستطعنا أن نرى، من خلال باب آخر للمكان المنفصل المخصص للجمارك، أكياسا تحركها الأيدي نحو طاولة

التفتيش. هنالك سعيت، تحت نظر المراقب الثاقب، إلى توضيح سبب جلبنا لبنادق وذخيرة كان الملك قد منع توريدها. بدا الشرح كله معقدا جدا، وفي الحقيقة كاد يكون غير مقنع حتى لنا نحن أنفسنا. هل كنا حقا نتوقع من الرجل أن يصدق أننا ننوي الرجوع على ظهور الإبل إلى المكان الذي جئنا منه على متن الطائرة؟ من حسن حظنا أنه لم تفتش حقائبنا جيدا، ليعثر على ست حقن مورفين، كان أطباؤنا قد زودونا بها.

حوالي الواحدة صباحا، وبعد إخراج القسط الأكبر من أمتعتنا من الجمارك، ذهبنا إلى النوم في فندق " الصحاري بلاص ". كان بيل قد أصيب في ظهره أثناء حادث تاكسي في بيروت، وكان ذلك بالنسبة إليه مقدمة للآلام التي كنا نتوقع أن تصيبنا. وبينما كنا مستلقين للنوم، كان طنين البعوض يبدو مثل قرع إيقاعي. لقد جعلت ذكرى الأشياء المنسية، وأحلام الأيام التي مازالت أمامنا، نومنا متقطعا ومحيرا حتى قبيل مطلع الفجر، عندما اندمج صوت البعوض مع تضخم دوي الطائرات النازلة على أرض المطار المجاور. أخيرا، لم يستطع أي منا أن يتحمل التشويق أكثر من ذلك، فأفقنا لنتناول فطور صباح سريع قبل الذهاب إلى القصر لإعلان وصولنا والقيام بالترتيبات الأخيرة لانطلاقنا، كما كنا نعتقد.

وفي المكان المخصص للتشريفات، استقبلنا الرجال الذين تراسلنا معهم. أنسنا بدفء الصداقة، غير أن أضواء الإنذار بدأت تشتعل وسط عدد لا يحصى من فناجين القهوة. "... بالرغم من أنكما بصدد القيام بعمل شجاع ورائع ..." ... "... طبعا، كان الناس يسافرون عبر الصحراء، ولكن الآبار لم تعد مصانة ..." و "... وكما تعلمون، لم



سوق الرياض، حيث قضينا اربعة أيام لتجميع ما يكفي من الرحال والمعدات الأخرى اللازمة للرحلة. يشتهر هذا السوق بمعادن الخردة والقماش والجلد والأدوات النحاسية والسجاد.

تكن هنالك أمطار تذكر، لأكثر من ثلاث سنوات ..." وشيئا فشيئا، أدركنا المخطط. " لا داعي للخجل من السفر بالسيارة. فحتى البدو يقومون بذلك كلما استطاعوا. وكل الرحالة حديثي العهد من الغربيين، ذهبوا بواسطة السيارة أو العربة"، كان ذلك هو الاقتراح. وإذا كان هدفنا حقا ما ذكرنا، أي زيارة بعض الأماكن التي كان الشاعر العربي لبيد، الذي عاش في القرن السادس يتردد عليها، فإنه من الأفضل أن نقوم بذلك بواسطة العربة وليس الإبل. هل كنا نعرف كم كانت الإبل باهظة الثمن اليوم، وكم هي نادرة الوجود؟ كيف كنا سنحمل الطعام؟ علام كنا نريد أن نبرهن عن طريق السفر بواسطة الإبل؟ بإيجاز، لقد بدأنا نشعر بأن مخططنا كان ساذجا وقصير النظر إلى حد كبير. ومثل الأطفال ذوي النوايا الحسنة ولكنهم أغبياء، بدأنا نتعرض للتوبيخ.

عند هذا الحد من حديثنا بالضبط، وصل رجل قصير القامة، يميل إلى البدانة، أسود العينين، يرتدي لباس المدينة العربية. تم تقديمه لنا باسم هويمل بن فرج من قبيلة الدواسير بوسط الجزيرة العربية. لم يكن التقديم طويلا. مد هويمل يده مصافحا ثم جلس. وخلال الحديث الذي أصبح الآن متداخلا، والذي لم أعره اهتماما لبضع دقائق، كان الناس يجيئون ويذهبون في مهام مختلفة إلى مكاتب مضيفينا طيلة الصباح. لم تكن لأحد منهم علاقة بمشروعنا، بل كانوا يقومون بقضاء حاجاتهم الخاصة.

وجدت أن فهم هويمل صعب، فقد كانت لهجته جديدة بالنسبة لي. غير أنه أظهر أكثر من الفضول العارض بخصوص شخصينا، وفي ما يتعلق بما كنا نقول. وفي آخر الأمر، اتضح أنه كان الرجل الذي التجأت الحكومة إلى استشارته حول خطوط رحلتنا. نظرت إليه من

جديد. كان لوجهه ويديه أكثر من المعنى الذي كنت قد رأيته فيهما للوهلة الأولى. كان عمره خمسة وأربعين أو خمسين عاما تقريبا، ولكن يديه كانتا تدلان على قيامه بعمل شاق. كان جسمه غليظ البنية ثقيلا، ولكن تحت البدانة كانت هناك قوة ومرونة للعضلات. وكانت عيناه كما اكتشفت لاحقا، هما المفتاح إلى الشخصيتين اللتين تتنافسان داخله من أجل السيادة. غير أن كل ما رأيته حقا في ذلك الوقت كان رجلا هاما ولكنه لايستوقف الانتباه، لهجته غريبة على أذني التي تدربت في المدينة. سألت عن اسمه ثانية. فأعاده ببطء وكأن السامع طفل: هـ - ويـ - مل. عرفت مباشرة أنه بدوي، حيث أن اسم هويمل، على غرار عدد من أسماء البدو، هو صيغة تصغير. كانت لغتي العربية قد أصابها الصدأ، لذلك أمضيت عدة لحظات قبل أن أستحضر معنى الإسم في ذاكرتي. وحتى حينئذ، لم أكن متأكدا، فطلبت إحضار قاموس. وبعد البحث عنه، وجدت أنه يعني: "جملا صغيرا غير مقيد، جملا طليقا ليلا نهارا".

تواصل الحديث للتأكيد على عدم إمكانية إنجاز الرحلة، والتحق هويمل بصف مضيفينا قائلا إنه هو أيضا يعارضنا، وإن الأمر عسير جدا، وإن الحصول على الماء صعب، وإن الرحلة سوف تكون طويلة جدا وأخيرا، فإن أكثر البدو ترحالا، هم أنفسهم، لم يعودوا يقومون بها.

وبعناد، وقد أزاغنا جهلنا عن كل سداد في الرأي، تمسكنا بموقفنا. فأكدت على أننا لم نتحمل مشاق المجيء إلى الجزيرة العربية للراحة، علما بأن شيكاغو توفر القدر الكبير منها. وبخصوص العربات، "لقد جئنا من البلاد التي تصنعها، وإذا كنا نريد رحلة بواسطة العربات، فلماذا قطعنا ثمانية آلاف ميل ودفعنا ثمنا باهظا؟".

غيّر مضيفنا موضوع الحديث في غاية من الأدب. ثم أخذنا مساعد الملك، الشيخ منصور الخريجي جانبا إلى مكتب آخر في المبنى المخصص للتشريفات وسأل: "إذن، ألا تريدان الانصياع إلى الرأي الصواب؟ أنا شخصيا أستلطفكما جدا، ولو كنت مكانكما لقلت الشيء نفسه. غير أن الأمر فعلا ليس عمليا. إننا نشك كثيرا في أن أحدا يستطيع القيام بهذه الرحلة اليوم، وأنتما تعرفان كل الأسباب. لم تعد هناك عناية بالآبار، و لم يعد الرجال يعرفون الطريق في الصحراء، وحتى المعدات القديمة، فإنها قد اختفت من الوجود".

عند هذه النقطة، أدركت فرصتي، فاندفعت قائلا " لماذا؟ لقد رأيت عددا كبيرا من المعدات التي نحتاج إليها في ميدان السوق، هنا في الرياض". ذهبت إلى أبعد مما هو متوقع معتمدا على حجة نزهتين خاطفتين قمت بهما منذ مدة طويلة في السوق.

"وعلى أية حال، فإننا ننوي القيام بالرحلة على الطريقة التقليدية أو نعدل عن الفكرة ونعود".

"هل أنتما ثابتان على هذا القرار؟ نعم، أرى أنكما كذلك. حسنا، لننس الموضوع، بما أني في كل الحالات لا أستطيع أن أقرر بشأنه شيئا. سوف أبذل قصارى الجهد لمساعدتكما. لقد أمرنا الملك بأن نوفر لكما كل المعدات التي ستحتاجانها وكذلك المرافقين. وقد تم تعيين هويمل، الرجل الذي التقيتماه في الغرفة الأخرى، وهو تابع لولي عهد الرياض، لمساعدتكما خلال الرحلة. لماذا لا تذهبان لنيل قسط من الراحة في الفندق والتفكير في الأمر مليا؟".

بمزيج من الابتهاج والاكتئاب، غادرنا القصر ورجعنا إلى الجو العقيم في الفندق. ومباشرة بعد صلاة العشاء، أخذنا هويمل من النزل وقادنا

إلى بيت رجل يدعى الشيخ عبد الله بن حميس. لم يتضح لنا الغرض من هذه الزيارة على الفور، حيث أننا لم نلتق بهذا الشخص و لم نسمع عنه من ذي قبل. ثم أصبحت الزيارة أكثر غموضا عندما علمنا أن الشيخ عبد الله كان رئيسا لدائرة الماء في الرياض، ونائبا سابقا لوزير التجارة، و لم يكن لأي من المركزين صلة وثيقة بالمهمة التي كانت أمامنا. لكنه كان من غير اللائق أن نرفض الدعوة. ولما كان بيل حساسا أكثر مني، فقد ذهب به الظن إلى أننا دخلنا في عملية لف ودوران، نعرض بمقتضاها كأمريكيين شاذين يريدان البرهنة على شيء ما بالخروج إلى الصحراء. لم أعر الموضوع اهتماما، غير أنني لفتُّ نظره إلى أنه ينبغي علينا، في كل الظروف، أن لا نعطي الانطباع - الذي لم يكن له أساس- بأننا جئنا إلى الجزيرة العربية بنوع من المزاح، لنهزأ بالسكان الأصليين. لقد فكر كل منا مليا في كيفية شرح الأهداف المتداخلة التي قادتنا إلى الرياض شرحا مصيبا.

لم يستطع العرب أبدا أن يدركوا مدى سحر الصحراء العجيب لغير العرب. فبالنسبة للعرب، تمثل الصحراء مكانا للحرمان والألم والموت. وفي القرآن، نجد أن تجربة الصحراء، هي وصف لجهنم مع قليل من التخفيف. إنها جهنم الدائرة السابعة لدانتي، "صحراء بها رمال محرقة تحت مطر من النيران الدائمة". وبالطبع، فإن سكان الصحراء، يبحثون عن البرودة والماء والخضرة. واليوم، فإن هذه الإغراءات التقليدية التي تتمثل في حياة مستقرة، قد زادها التلفزيون والعناية الصحية والثلج رسوخا. وبناء على ذلك، فإن رحلة اختيارية إلى قسوة الصحراء، تبدو مضحكة في نظر أحفاد البدو الذين كانوا رحلا إلى عهد قريب.

كان كلانا على وعي بهذا الإحساس وقمنا، إلى حد ما، بمقارنته

بطفولتنا ذاتها في تكساس، فوجدنا بعض الاختلافات الناتجة جزئيا عن المنازل والتلفزيون. كانت صورة أيام الغرب الشهيرة - رعاة البقر والهنود الحمر والشريف (عمدة البلدة) والقاتل المحترف الشرير - مثيرة جدا ومفعمة بالحيوية وبسيطة وررومنسية، من شأنها أن تخلق أجيالا من رعاة بقر " الدراغستور" الذين يرتدون الجينز الأزرق وأحذية البوتس". ولكن الواقع يختلف عن ذلك تماما، فقليل هم أولئك الذين يغادرون رفاهية المدينة، وقد يشحب لون الأغلبية لمجرد التفكير في رحلة على ظهر حصان تستغرق اثنتي عشرة ساعة، أو العرق والذباب وجمع الماشية الذي يستدعي الخشونة في المعاملة. إنها حقائق لم تمح بعد من ذاكرة البدو القدامى. كما أن الرومنسية لم تكن قد دخلت بعد إلى الذاكرة الشعبية لسكان المدينة العرب في الصحراء. ويجسد تلفزيون الرياض رعاة البقر ذاتهم الذين نراهم في أمريكا، غير أنه لا وجود للبدو في الدكاكين. وفي الوقت الحاضر فإن الرفاهية المتجلية في الكادلاك، لاتترك إلا مجالا صغيرا للحنين إلى ظهور الإبل.

التقينا في منزل الشيخ عبد الله برجل دمث الأخلاق، ذي سحنة محافظة، قادنا إلى غرفة جلوس متواضعة، وقال بصوت خافت، غير جازم، إنه سمع أنني أحب الشعر العربي. ثم سألني كيف دخلني شيطان الشعر، وبدأ تدريجيا وبلطف يمتحن مدى معرفتي. وبما أنني قد أشرفت على عدة رسائل دكتوراه، أشرت بشيء من المزاح إلى أنني أملك أنا أيضا قرينا في الشعر. وخلال ساعتين من الزمن، استدرجني بلباقة إلى الحديث حول اللغة العربية والأدب والتاريخ؛ وحتى حول النحو.

لقد حدثنا أجيال من رجال العلم الغربيين كثيرا عن الشعر عند العرب القدامى، ولكن القليل من هؤلاء زاروا الأراضي التي جابها هؤلاء

الشعراء. وقد حلل المستشرقون القصائد بشيء كبير من الدقة، وفي غالب الأحيان عالجوها كتمارين في النحو وتركيب الجملة. لكن الإحساس بالرمل المحرق فوق البشرة، وقبض العطش على الحنجرة، وألم وهج شمس الظهيرة في العينين، والصداقة الدافئة الحميمة مع نار المخيم، وهالة القمر الباردة المضيئة، والإثارة التي تنتج عن عَدْو الفرس، إنما هي أحاسيس غريبة عن رجل الأدب الحضري البعيد، الذي يسعى إلى تذوق قصائد الشعراء. وتتمثل الدوافع للقيام بهذه الرحلة لدينا، في البحث عن التجربة المباشرة لهذه الأحاسيس من جهة، والرغبة في مشاهدة مناظر الصحراء من جهة أخرى.

يتصل كل هذا بصورة وثيقة بعصرنا الحديث، وذلك لسببين: أولهما أنه، في اندفاعنا بغير تردد في كل بقاع العالم نحو الحداثة، يفقد كل منا اليوم الصلة بالتقاليد. إن "أزمة الهوية" حقيقية، تماما مثل الأزمة السكانية، وهي دقيقة وملموسة، ذلك أن الأشياء والطرق القديمة – التي عادة ما تكون قيمتها أكبر مما نعتقد – هي بصدد الاستبدال بأدوات وطرق جديدة ربما تكون أكثر جدوى. لقد أصبح الإسكيمو يتنقلون في سيارة معدة للثلج، وأصبح راعي البقر يطيرعلى متن طائرة عمودية وأصبح البدوي يعمل في حقول البترول.

إلا أنه توجد صلة وثيقة بالتقاليد، ذلك أن الشعر العربي مثلا، يمثل الخيط الذي كانت قد ربطت به قرون متعاقبة من الحضارة العربية. لذلك يجب على أولئك الذين يرومون، من بين رجال دولنا، الوصول إلى فهم عميق للتعقيدات التي تحف بإحلال السلام في الشرق الأوسط، أن يحاولوا فهم الدوافع لدى الطرفين. ولفهم الشيء الذي يجعل العرب على ما يعتقدون وما يقومون به على هذا النحو، يجدر بالمرء أيضا أن

يطالع الشعر العربي، كما يدرس الخطب الحديثة لقادة هذه الدول. ففي الشعر العربي توجد القيم الأساسية للحضارة، من اهتمام بالشرف والحركة والكلمة واجتناب العار. وقد تمثل هذه المسائل سياسية معاصرة أكثر مما يمثلها الشكل المدقق للحدود.

يشكل الشعر برنامج العلوم الإنسانية في جميع المدارس العربية. ومنذ الطفولة يحفظ الصغار، بنات وصبيانا، الأشعار المشهورة من الماضي عن ظهر قلب. ففي حين أن الشعر ليس فَنّاً عند الكثير، فإنه هو الفن الأوحد عند العرب.. وأكثر من ذلك، فهو مرجع للتركيبة الاجتماعية والقيم الثقافية. وبدراسة الشعر العربي، يصبح الأطفال العرب، عربا بصفة متميزة، وفي المجتمع العربي، ليس الشعر غريبا أو خارجيا مثلما هو عليه في الثقافة الغربية. يركز العرب كل العناية على الشعر، بينما نوزعها نحن على كل نطاق الفنون، فهو فنهم وصحافتهم وتواصلهم السياسي، وهو كتب نصوصهم وهو حتى لعبتهم. وليس غريبا حتى يومنا هذا أن تجد مجموعة من الرجال بصدد القيام "بمنازلة شعرية "، وهي لعبة الكلمة، يستطيع كل مساهم فيها أن يظهر براعته الأدبية.

وقليلون هم الذين لهم معرفة متواضعة ولا يستطيعون تلاوة البعض من أبيات الشعر القديم.

جاء العصر التقليدي للشعر العربي بدون فترة قديمة واضحة. فحوالي القرن السادس، كان الشعر جاهزا تماما في ما يخص الوزن الشعري المعقد، بكل ما في الشعر من براعة لغوية مبهرة. كان أدبا متقنا بدرجة عالية، ولكنه كان على نمط واحد. إذ كان الشاعر مقيدا في اختياره للموضوع والنوع. ولم تكن مهمته أن يدخل تجديدا، بل فقط أن يجيد وأن يشحذ كل بيت أكثر فأكثر، ليجعله أشد حدة وحيوية.

كان للشاعر العربي حقل لفظي هائل، إذ كانت اللغة العربية القديمة في القرن السادس تعد ربما خمسة أو ستة أضعاف الألفاظ التي كانت متوافرة بعد ذلك بألف عام لشكسبير أو سرفانتس. وفي حقيقة الأمر، فإن للغة العربية موارد داخلية، تعادل أو تكاد، الموارد المكونة للغة الإنجليزية الحديثة، سواء مستعارة كانت أو أصلية. ولكن فوق الثراء اللفظي المدهش، كان هناك نظام نحوي لترتيب الكلمات يتميز بأنه على قدر من الدقة يعادل دقة الرياضيات.

وبين يدىْ مُستعمِلٍ بارع، تكاد اللغة العربية تملك مجالا غير محدود من حيث التجديد والمرونة في الشكل. فيستطيع الشاعر أن ينتقي من الألفاظ الكثيرة ليعطي بدقة الفارق في المعنى، وهو أمر غالبا ما يكون عويصا في لغات أخرى.

ومما لا يقل أهمية بالنسبة للشاعر، أن انتظام الشكل يجعل اللغة العربية تدخل بطبيعتها في نمط موزون. إن كل مقطع لفظي في اللغة العربية، على هيئة رموز المورس، يكون إما طويلا أو قصيرا، إما نقطة أو قاطعة، وإلى حين وعينا بالشعر العربي، كان قد طور أسلوبا موزونا معقدا. وقد ذكر بعض النقاد في الأدب، من الذين عاشوا في وقت لاحق، والذين كان حلمهم من الحضريين، أن هذه الأوزان إنما أوحت بها مشية الإبل المتميزة. ولكن إذا صدقنا هذا، فإنه ينبغي أن نقبل بأن كل شيء في الحياة العربية هو من جرّاء الإبل أو بفضلها.

إن اللغة العربية دقيقة بشكل رائع. ففي العادة، لا يستعمل المرء عدة ألفاظ ليقول جملة مثل "جمل ركوب، عمره سبع عشرة سنة" لأن اللغة تحتوي على الكلمة الخاصة الدقيقة التي تعني هذه الجملة كاملة. وفي إحدى أمسيات الرحلة، ونحن جالسون حول نار المخيم، انضم إلينا

راعٍ أمي فقير رثّ الملابس، كان من الواضح أنه غير مثقف. قلت في نفسي إن هذه فرصة لأبرهن لبيل مارز، الذي كان في بعض الأحيان شكوكا، على شيء في نفسي بخصوص سحر الشعر واللغة ذاتها للعرب. كان الراعي ومرافقونا البدويون لا يعرفون سوى القليل من الشعر العربي، ولكن، بما أنني رددت أبياتا للشاعر لبيد، أثارهم ذلك وأخذوا يرددون كل بيت تكرارا. ولاختبارهم، سألتهم عن عدد الألفاظ التي يستطيعون استحضارها والتي تعني "ناقة". أخذت الألفاظ تنصب لأكثر من ساعة زمن، وفي النهاية، ذكر ضيفنا رثّ الملابس، بشيء من الخجل، أنه كان لكل من السبعين ناقة التي تشكل قطيعه إسم على حده. لم تكن الأسماء مثل "سبوت" أو "دجينجر" وإنما كانت أشبه بكتاب لعلم الأحياء. كان يمكن لأصدقائنا البدويين أن ينادوا أياً من الإبل التي كانت تشكل القطيع باسمه. ولكن مع كل هذا الثراء المدهش، فإن اللغة العربية لا تحتوي على كلمة تعني بكل بساطة "جملا". ومثل الإسكيمو الذين لهم عشرات من الكلمات للأنواع المختلفة من الثلوج ولكن ليس لهم لفظ واحد يعني ببساطة "ثلجا"، فإن اللغة العربية دقيقة وتصويرية ولكنها لا تميل أبدا إلى الإسهاب.

إنّ مواصلة الحديث حول هذه النقاط اللغوية مفيد، حيث أن اللغة كلغة كانت دائما قد أثرت تأثيرا كبيرا على العقلية السامية. ومثلما يرد في العهد الجديد، "في البداية كان كلام الله". وفي القرآن، يظهر الملاك جبريل لأول مرة أمام محمد صلى الله عليه وسلم ويأمره بأن " اقرأ ! ". إن الكلمة في حد ذاتها هامة جدا لكونها كثيرا ما تحل محل الواقعة التي ترمز إليها، كما أن الشكل رئيسي بالنسبة لتفكير الكاتب والقارئ، بحيث يتجاوز الرسالة. وهذا ما يجعل الترجمة شديدة الصعوبة. إن الرسالة التي يحتوي عليها الشعر هامة، ولكنها ترد دائما على نمط واحد.

فبقراءة المرء لبعض القصائد العربية، يكون قد تمكن من محتوى أكثرها. والقصائد الشهيرة، القصائد الذهبية للجزيرة العربية القديمة، ترد بنفس التسلسل في الأفكار والصور. والشيء الذي يميز الواحدة منها عن الأخرى هو الدقة المرهفة وإبراز البراعة اللغوية وروعة الصور.

كان لنا رفيق روحي في رحلتنا وهو الشاعر الجاهلي لبيد. أثناء عبورنا الصحراء، وجدنا المنظر تلو الآخر، يتمثل أمامنا بالتدقيق كما وصفه لبيد في أشعاره. لقد أصبحت قصائده أشبه ما تكون بالطريق المرسومة في الذهن بالنسبة لخط سيرنا ودليلا لتجربتنا.

وعلى غرار الشعراء القدامى، يستهل لبيد قصيدته الغنائية بمنظر خيالي معهود بالنسبة لسامعيه من البدو، إلى درجة أنه لا يذكره مباشرة. يتخيل الشاعر نفسه وزميلا له على راحلتيهما وقد مرا بأطلال لحي قديم. لقد أصبح المكان موحشا من جرّاء نوائب الدهر. ولكن آثارا مألوفة لا تزال ظاهرة على الأرض: بقايا من الحجارة ترسم الصورة المحملة للخيمة، مجارٍ قليلة العمق حفرت لتمنع الأمطار من دخول الخيمة، وحفرة الطبخ التي اشتد سوادها. يتشبث الشاعر بكل واحدة من هذه الصور ويقارنها بأثر الوشّام أو بالوسم على جلد الحيوان، وغالبا ما تقود الحيوية الحقيقية للصور الشاعر إلى استطرادات مطولة – تحميلة موسيقية أو لحن – لوصف العجائب الطبيعية. وبينما هو بصدد تصوير سلسلة من اللقطات بديعة الحيوية للمشهد، يختار الشاعر ألفاظه ليؤكد على انقضاء الزمن وهشاشة كل لحظة في التجربة الإنسانية، ومضي الوقت بلا هوادة. أما ذكرى الحبيبة، فتضفي على الصور جمالا وحزنا. وقد أشار كتّاب غربيون أحيانا إلى هذه البدايات المثيرة، على أنها "شهوانية"، ولكن الشعر العربي القديم ليس شعرا مجونيا، ونادرا ما

يحتوي على شيء من الحسية. وسرعان ما يدرك الشاعر عدم جدوى تذكر الماضي، فيقول جازما، إنه لا بد من قطع الصلة بالماضي، وإن الطريقة التي تمكن من النسيان هي تحمل الأخطار ومتاعب السفر الشاق. هنا يبدأ الشاعر في ذكر الناقة ووصفها بدقة. ومن خلال الأمثلة المصغرة للحيوانات البرية، يحاول الشاعر أن يظهر الخاصيات التي يريد التأكيد عليها. فيذكر الغزال والمها في ظروف صعبة جدا. تجري الغزلان مثل الدخان، يقودها عطش يائس وتدفعها رياح شمالية قاسية. ثم يشير إلى الضغط الكبير على المها التي تهاجمها الذئاب ويلاحقها الرجال وكلاب الصيد. يقول الشاعر إن هذه الميزات هي التي تثير فيه العزم والتصميم، وتمنحه القدرة على أن يتجاوز شكوكه ويرتفع إلى مرتبة الرجولة الكاملة. ثم يدرك أن حبيبته السابقة كانت فتاة ساذجة، لأنها لم تقدر شهامته الحقيقية حق قدرها.

ولكن الخوف من اللوم لم يكن أبدا بعيدا عن أي من الشعراء القدامى. فبعدما أخبرنا لبيد بأنه يحب الحياة في كل أبعادها، فإنه ينتقل من الإشارة إلى المجون في أحد الحوانيت إلى الحديث عن مهام اليوم الجديد. وبمجرد ركوب حصانه، يصبح الشاعر المقاتل والحارس والمستكشف. فهو شجاع لا يهاب شيئا بالنهار، وينتظر بهدوء أهوال الليل. ولكن الشجاعة وعدم التفكير لم يكونا المثال الأعلى عند الشعراء القدامى، بل كانوا يبحثون بوعي عن نوعية العقل ونقاء الثقافة. ولذلك يلجأ الشاعر إلى حلبة الصراع الفكري: المجلس الذي ينعقد حول نار المخيم عند شيخ القبيلة، وهو يعني في اللغة العربية، منتدى عاما للمناظرة والنقاش، مثل الأغورا (الساحة العامة في المدن الإغريقية). هناك، يستطيع أن يقدم براعته اللغوية وحنكته السياسية للاحتكام.

تتوج هذه الفضائل بالإشارات إلى حجر الأساس في حضارة الصحراء: الكرم. يستحضر الشاعر منظرا للجياع والمعوزين وهم يشربون من حوض، مثل الحيوانات، مرق اللحم المتفيض من الوليمة الفاخرة التي وضعها لهم. وأخيرا يصل لبيد إلى الذروة العاطفية لرسالته، وذلك بانفجار من الفخر يتوجه به إلى أبناء قبيلته: إن ثراء الإنسان وكذلك معنى الحياة، لا يكمن في الأشياء إنما في الرجال. لقد رسم الأجداد "الطريق"، ويحتفظ بها المعاصرون في أعمالهم ومعتقداتهم، وهي إرث الأجيال القادمة.

نحن لا نعرف إلا الشيء القليل عن كثير من الأشعار العربية القديمة، غير أنه من المعروف أن قصيدة لبيد واحدة من المعلقات السبع الشهيرة في الشعر القديم. إنه من الصعوبة بمكان، وربما من المستحيل، أن تجعل من الترجمة أكثر من عمل شاق قليل الجدوى، وفي الحقيقة، بدون معرفة باللغة وبدون سيطرة كاملة علىاللغة العربية، أكثر مما هو في متناول جل العرب، لا يمكن للمرء أن يقدر ويقيم الروح المميزة لكل شاعر عند إعادة تركيبه للصور. ربما لا يوجد وجه مقارنة لهذا الأمر عند الغربيين في الأدب، وإنما في الفنون التشكيلية. فالشيء الذي أحدث فرقا بين مايكل أنجلو ومعاصريه الذين كانوا أقل شأنا منه، لم يكن اختياره للأدوات أو الموضوع، بل كان يتمثل في البراعة في التعامل مع الموضوع، الرئيسي الذي كان معروفا لدى معاصريه، والذين جاؤوا من بعده. ومثل الشعراء التقليديين الآخرين، فإن لبيد كان يقتصر في اختياره للمواضيع على تقديم حسي للحياة التي كان يعرفها. و لم يكن ما فعل وما وصف إلا مشهدا عاريا للصحراء. والطريقة التي أمكن له أن يقوم

بواسطتها بهذه الأشياء، إنما تتصل بموارد عقله وأحاسيسه الغنية.

من خلال مجموع الأشعار العربية، نحصل على معلومات حول شعب يهتم اهتماما شديدا بالشرف، وتدفعه حاجة ماسة لتجنب العار. ولذلك، قد تبدو لنا قوانينهم الصارمة، غير سائغة تماما، كما هي الحال في غالب الأحيان عند الإغريق القدامى. إن المجتمع الذي نراه، في كلمات المستشرق الإنجليزي السير تشارلز ليبال، هو ذلك الذي:

يحترم فيه الرجال القوة ويعرفون كيف يتدبرون من أجلها، وذلك بترك الرغبات الخاصة جانبا، وتقديم المصلحة العامة للقبيلة التي كانت الحكمة والتجربة تحظى فيها بالاحترام و يُقدَّرُ فيها أولئك الرجال الذين حافظوا على الإيمان والتماسك حقَّ قدرهم. كانت الفوارق بين الصواب والخطأ واضحة بما فيه الكفاية، إذا كان تطبيقهما مقتصرا على حيز ضيق نوعا ما. وفي غياب سلطة وطنية مركزية، كانت مهمة إقامة العدل وإتاحة الفرصة للدفاع عن النفس، موكلة لكل رجل وإخوانه في الدم والدين. إذ يحرس الرجل القوي المسلح منزله:

من لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

(زهير بن أبي سلمى)*

في مطلع القصيدة المثير، يستعمل لبيد كلمة "دمن" وهي تعني في الواقع وبكل بساطة: المزابل. وهو مطلع فيه شيء من الدقة والمتعة، ولكنه ليس رومنسيا بتاتا بالنسبة للعقلية الغربية. فلماذا أراد لبيد في البيت الثالث من قصيدته الغنائية الشهيرة، أن يبرزها بهذه الصورة؟ لما أنشد:

"دمن، تجرم بعد عهد أنيسها حجج خلون حلالها وحرامها".

إن ذكر كلمة "مزابل" في حد ذاته، لم يفاجئ المستشرقين الألمان، لقد لاحظوا أن كل قروي ألماني، ينظر إلى المزابل على أنها رمز للهيبة، وكذلك أن الفلاح يحتفظ بكومة من الروث أمام منزله يستعملها

لتسميد الحقول. وكلما كانت الكومة أكبر، كلما زاد ازدهار الفلاح وحسن تدبيره. وقد كان المرشد الذي كان يتولى الوصاية عليّ، في جامعة أكسفورد، وهو أديب عربي كبير تدرب في ألمانيا، يستعمل هذا التفكير ذاته لشرح سبب اعتبار المزابل مفهوما مثيرا جدا لدى الشاعر. تعني كلمة "دمن" في القاموس: "بقع كومة الروث". لقد ذهبت الكومة، لأن "الفلاح" كان قد غادر المكان ولكن سطح الأرض الملون كان علامة مميزة لتلك البقعة.

وبالطبع، فإن هذا لا يعدو أن يكون هراء. فليس هناك بدوي يجمع الروث لتسميد الحقول. وبكل بساطة فإنهم ليسوا كالفلاحين الألمان. وبالرغم من أن أغلبهم يتعاطون نوعا من الزراعة، فإنها مؤقتة وخاطفة، تماما مثل طريقة عيشهم.

أدركنا السبب الحقيقي أثناء رحلتنا في الصحراء. فالبدو معروفون بأنهم رعاة ماشية، والروث في محيطهم يستطيع أن يقص عليهم حكاية. فباقتفاء الأثر يستطيع البدو، تماما مثل جميع الشعوب الرحل، بما فيهم الهنود الأمريكيون الذين تعودوا على ذلك أكثر من غيرهم، أن يحددوا زمنيا مرور الحيوانات ونوعية مرعاها. وبالاستنتاج يمكنهم معرفة ما إذا كانت الحيوانات قد استعملت للغزو أو الترحل أو المرور السريع.

وكمثال على ذلك، يروي ويلفريد ثيسجر حادثة، دارت منذ خمس وعشرين سنة في الربع الخالي، منطقة الصحراء الرملية الواسعة، التي تغطي الجزء الأكبر من المناطق الجنوبية للجزيرة العربية:

بعد أيام قليلة، مررنا ببعض الآثار. لم أكن حتى متيقنا من أنها خلفتها الإبل، خاصة وأن الرياح كانت قد شوهت معالمها. التفت سلطان إلى رجل ذي لحية قد غزاها الشيب، كان يعرف بأنه مقتف ماهر للأثر، وسأله عن مصدرها. فالمحرف

الرحل جانبا وتتبعها لمسافة قصيرة، ثم قفز من على ظهر مطيته ونظر إلى الآثار عند مرورها بجزء يابس من سطح الأرض، وكسر بعض فضلات الإبل بين أصابعه، ثم امتطى راحلته راجعا نحونا. سأله سلطان: "آثار من كانت؟"، فأجاب الرحل: (إنهم من العوامرة. هناك ستة منهم أغاروا على "جنوبا" في الساحل الجنوبي وأخذوا ثلاثة من إبلهم. لقد جاؤوا إلى هنا من "سحما" بعد أن تزودوا بالماء في "موغشن". لقد مروا من هذا المكان منذ عشرة أيام). لم نكن قد رأينا عربا منذ سبعة عشر يوما، بل ولم نكن قد رأينا أحدا منذ سبعة وعشرين يوما قبل ذلك. وفي طريق العودة، التقينا ببعض رحال "بيت كثير" بالقرب من جبل قره، وعندما تبادلنا الأخبار، أعلمونا بأن ستة من العوامرة قد أغاروا على "جنوبا" وقتلوا ثلاثة من رجالهم، وسلبوا ثلاثة من إبلهم. والشيء الوحيد الذي كنا نجهله هو ما إذا كانوا قد قتلوا أحدا* ...

كنا نرى مساحات كبيرة مغطاة بفضلات الأغنام أمام كل مخيم. وبدون أن يؤثر فيها المطر، كما كانت الحال لعدة سنوات، أصبح لون الفضلات أبيض بفعل مرور الزمن، مميزا بذلك المخيم بوضوح أكثر من أي علامة أخرى. وهكذا أصبح معنى البيت، وإثارته للذكريات لدى الشاعر واضحا. لقد " قرأ " الشاعر في الفضلات ما ذكره بالعهد الذي قضاه في ذلك المكان مع حبيبته، وبالسنوات العديدة التي انقضت منذ كانت تلك الذكريات السعيدة واقعا. ثم يرمي بقوة شديدة في البيت الموالي لكلمته المثيرة، بصورة خيالية متقطعة لغرض مزيد من الإثارة – "محرم"، "أنس"، "حجج"، "خلون" – ثم يذكر الأشهر المتعاقبة "حلالها وحرامها". ويخاطب البدو الرحل بواسطة الرموز الخاصة بهم، وبواسطة إيقاع حياتهم. فالفضلات تعد، مثل الطباعة، أداة لتواصل الماضي مع الحاضر.

---

*الرمال العربية (لندن، ١٩٥٩)، ص ٥١-٥٢.

حيث أن عالما غربيا–عربيا واحدا، يتسم بالجدية، كان قد زار البدو الرحّل خلال القرن الماضي، فإنه من الملفت للنظر أن يكون المستشرقون الغربيون قد فهموا هذا القدر من النتاج الفني للبدو. كان أحد الأسباب المنطقية لرحلتنا يتمثل في محاولة الوصول إلى إحساس أعمق بالقيم الجمالية لهذه القصيدة. فكان علينا أن نزور عدة أماكن ذكرت في قصيدة لبيد، ونحاول أن نعيش مشاهد وروائح وأحاسيس حياته، بأكبر قدر ممكن، في عصر المواصلات السريعة والطب والتمدن والنفط والتلفزيون وتراجع الترحل *.

•

خلافا لأغلب المحادثات في الغرب، تخللت حديثي مع الشيخ عبد ا لله حول الشعر العربي، عدة فناجين من القهوة، وخلافا لأغلب المحادثات في الشرق الأوسط، لم تحتو على إشارات للسياسة. وأعتقد أنه يكاد يكون الحديث الوحيد، الذي أتذكره في الشرق الأوسط، الذي لم تقع فيه الإشارة إلى القضية الفلسطينية ولو لمرة واحدة. ومن خلال طبيعة أسئلته، والمعلومات التي زودنا بها حول الطرق، ومواقع أسماء الأماكن التي ذكرت في الشعر، وحول تحركات القبائل، أدركنا أن الشيخ عبد ا لله كان مرجعا جديرا بالتقديرفي ما يتعلق بالمعارف والتقاليد الخاصة بالجزيرة العربية. وقد علمنا لاحقا أنه كان من المقربين إلى الملك وإلى أمير الرياض على حد السواء. وفي الواقع، وقبل أن نذهب إلى الأمير، لاجتياز آخر ما يبدو أنه أصبح سلسلة لا متناهية من الحواجز، كان الشيخ عبد ا لله قد سبقنا إلى التعبير عن مساندته الثمينة لمشروعنا.

ومقابل عزمنا الراسخ على السفر عبر الصحراء الجافة، بمعية أدلاء تنقصهم المعلومات، فإننا ما كنا رأينا ولو ناقة واحدة بعد. فالرياض تستطيع أن تتباهى بأي نوع من السيارات التي يتصورها العقل، ولكنها

*سيتم نشر كتاب يتعلق بقصيدة لبيد مدعما بصور التقطها ويليام مارز عن طريق جامعة شيكاغو للصحافة تحت عنوان " القصيدة الذهبية.(ملاحظة المترجم: لقد تم نشر وتوزيع الكتاب).

خالية تماما من الإبل. وفي الحقيقة، لم نكن قد رأينا حصانا أو حمارا بعد، ولذلك توجهنا، حسب اتفاق مسبق، عند مطلع الشمس في اليوم الموالي، الجمعة، عندما كان كل شيء مغلقا في المدينة بسبب العطلة الدينية، لزيارة مدينة "خرج" بوادي الدواسير. تقع مدينة خرج حوالي خمسة وثمانين كيلومترا جنوب شرقي الرياض، على حافة الربع الخالي، وهي مسقط رأس هويمل، الذي كان قد دعانا لتناول طعام الغداء، ووعد بيل بأن يطلعه على خيامه البدوية الأولى وبعض الإبل.

كان علينا أن نتودد إلى هويمل، ونتعرف عليه، فهو الذي يتوقف عليه نجاح أو فشل مغامرتنا. وإلى حد ذلك الوقت، كنا نكاد لا نعرف أكثر من شكل وجهه، ولا شيء حول الشخصية التي كانت تختفي وراءه. وكانت رؤيته "على عين المكان" تبدو لنا أمرا حاسما. اتضح أن المكان" يتمثل في مزرعة صغيرة، تعتمد على بئر تشغلها مضخة لها محرك يعمل بوقود الديزل، تتدفق منها كمية هائلة من المياه الباردة العذبة. كانت المزرعة مكانا لطيفا، لكنه غريب الوضع ومحفوف بالمخاطر، ذلك أنه يقع إلى جانب الصحراء الجافة التي تبدأ على بعد مسافة لا تتجاوز مائة ياردة، الأمر الذي جعل جوا من عدم الاستقرار يخيم على المزرعة. فإذا صادف أن سكت صوت المضخة، فإن الأشجار المغروسة سوف تذبل بسرعة بمفعول الرمال التي تترصدها. ولكن بصرف النظر عن أنها مؤقتة أو دائمة، فإن هويمل قد أحكم استغلالها. ثلاث زوجات وسبعة عشر ولدا، وقطعان من الماعز، وناقة شربنا لبنها، تمور وأعناب وظل. كان هويمل على أرضه رجلا ذا شأن، يحق له الافتخار، يوزع الماء على أقاربه العَطَاشَى في خيام البدو السوداء المتاخمة. وحيث أنه ترك حياة البداوة و لم يعد واحدا منهم، فقد بدأ يتحول إلى سيد على رجال العشيرة في الخيام السوداء، الذين كانت حياتهم تتوقف على مياهه. لقد

اتخذ لنا الترتيبات اللازمة لنشرب القهوة، ويتمكن بيل من التقاط صورة لعائلة بدوية. ولكن لم يخرج علينا بَشَر، عدا صوت يسمع من حين لآخر من وراء الحجاب، ويد تحمل أساور، تمتد من وراء الستار الذي يقسم الخيمة، بطبق من التمور أو إناء فيه ماء.

انضم إلينا لاحقا للغداء، اثنان من الأدلاء اللذين سنتعرف إليهما بصفة خاصة خلال الأيام التي مازالت أمامنا. إنه دائما من الغريب أن يقارن المرء بين ما يتبادر إلى ذهنه من أفكار، حين يلتقي بشخص، وبين الرأي الذي يتكون عنده حوله بعد تقاسم عدد من التجارب معه. لقد كتبت عند لقائي بسلطان وزامل لأول مرة، " كان كلاهما يشبه الصقر، نحيفا، رشيقا، يتصفان بطيبة النفس، أعينهما قد عرفت الجوع والعطش، وأقدامهما مثل خف الإبل. كانا قليليْ الحركة والكلام، يختلفان عن الحضر كما يختلف رعاة البقر عن الموظفين. لقد استطبناهما على الفور وشعرنا بالاطمئنان في ما يتعلق بالرحلة".

عند منتصف النهار، توجهنا راحلين نحو منزل محكم البناء، شيد من الطوب، له جدران عالية وخالية من النوافذ. كانت قاعة الجلوس تغطي حوالي خمسة عشر قدما مربعة. لم يكن فيها أثاث سوى حصيرة بسيطة، وضعت على الأرضية الملطخة بالوحل. وكانت بعض المخدات الطويلة تصطف بجانب الجدار، بحيث تسمح بالاتكاء عليها بشكل مريح عند تجاذب أطراف الحديث. لم تكن ركبنا قد تعودت بعد على الجلوس على الأرض لفترة طويلة، فكنا نمدد أرجلنا بطريقة محرجة، تعتبر نوعا من قلة الأدب في حكم قواعد حسن السلوك عند العرب. قدم لنا مضيفنا أبناءه الذين جاؤوا ومعهم كتبهم المدرسية، ليبينوا لنا أنهم كانوا يتعلمون القراءة والكتابة، وأنهم كانوا يدرسون الأحداث الهامة التي

تدور خارج قريتهم. أجرينا حديثا قصيرا دام حوالي نصف ساعة، وفجأة أعلمنا مضيفنا بدون تصنع، أن طعام الغداء جاهز. انتقلنا إلى الغرفة المجاورة، التي كانت في الحقيقة بهو المدخل، حيث أعدت النساء المحتجبات عن الأنظار، على بساط من أوراق بسيطة ولكنها جميلة، طبقا ضخما يحتوي على خروف مشوي فوق كومة من الأرز الذي يتصاعد بخاره. جلسنا القرفصاء على نحو أخرق، على أرجلنا التي لا تزال غير متمرنة، ثم ثنينا كم اليد اليمنى وأطلقنا أيدينا وسط طبق الأرز. سحب كل منا يده بعنف من الألم. فقد كان الأرز يسبح في بحر من مرق اللحم المذاب. حاولنا مرة أخرى بحذر ولطف، وتمكنا من أخذ الشيء الطافي من الأرز المتبرد عند أعلى الكومة. جعلنا هذا الأرز على هيئة كتلة، وذلك بالضغط عليه في راحة اليد مثلما كان هويمل ورفاقه يفعلون، قبل أن نقذف باللقمة داخل فمينا. مزق الرجال الآخرون قطعا كبيرة من لحم الخروف المشوي، ووضعوها أمامنا. كانوا يأكلون بسرعة واستمتاع شديدين، ولكن الرضا كان يبدو عليهم أكثر عند الإلحاح به علينا منه عند استهلاكهم له. كان هذا يدور حسب آداب سلوك دقيقة وبسيطة، وجدت نفسي أطبقها أنا الآخر، وأعلمها إلى بيل. ثم بدأت أقوم بعملية الترجمة له. كنت عاقدا العزم على إعلامه بالطريقة المثلى للتصرف، إلى درجة أنني ارتكبت أحد الخطأين التقليديين في قواعد التشريفات عند التقاء الشرق والغرب.

ارتكب شاه الفُرْسِ الخطأ الآخر منذ قرن عندما كان في زيارة للبلاط الألماني في برلين. خلال مأدبة ملكية فخمة، وبعد مجموعة من أنواع الأطعمة المتناسقة، وضع خدم، يرتدي كل منهم بزة متميزة رائعة، إناء لغسل الأصابع على المائدة أمام الشاه وأمام كل واحد من الضيوف. نظر الشاه إلى الإناء لحظة من الزمن، ربما نفّره وجود وردة تسبح داخل

الإناء، ثم أمسكه بكلتي يديه، ورفعه إلى فمه وشربه في جرعات كبيرة. وبدون أن يتردد القيصر لحظة من شدة نبل أخلاقه، فإذا به يفعل الشيء نفسه، ليتبعه في ذلك جميع الضيوف وأهل البلاط.

بعد أن التهمت ما طاب من الأرز والزبيب والليمون الأسود ولحم الضأن، مستعملا يدي اليمنى التي احترقت أو كادت من شدة حرارة الأكل، أجلت النظر حولي بحثا عن طريقة لغسل يدي. كانت الأرضية تتكون من التراب المتراص على خلاف الصحراء، حيث كنت أستطيع مسح يدي في الرمل، إلا أنه تعذر عليَّ إيجاد حل للقضية. كان المضيف في المدينة يستطيع أن يحضر إناء فيه ماء، وصابون. في آخر الأمر، وقعت عيناي على إناء صغير فيه ماء، فظننت أنه ضالتي المنشودة. وبعد أن طلبت الإذن، رميت بيدي اليمنى داخله، وجعلت أغسلها بهدوء. وخلال التقطع المؤقت للحديث، لاحظت أن جميع الأنظار تتجه إليَّ. وأخيرا ضحك جميع الحاضرين: لقد غسلت يدي في الماء المعد للشرب.

كنت قد عزمت على الانزواء داخل غرفة النزل لأطالع كتابات لبيد. غير أننا لم نتمكن من العودة إلى القصيدة خلال الأيام المتبقية في الرياض، حيث كانت مئات الجزئيات تتطلب انتباهنا. خلال عمليات إعادة الحزم في شيكاغو، كنا أحيانا نستغني عما خف وزنه، في حين أنه كان من الأحرى أن نستغني عن الأشياء الثقيلة. ونتيجة لذلك، اضطررنا مثلا للتفتيش في الرياض كلها، حتى نجد الأقراص المضادة للملاريا – ليس ذلك لأننا نعتقد أننا سوف نحتاج إليها حقا، ولكننا، على غرار لاعبي القمار في الكازينوهات، كنا قد جازفنا بالكثير، و لم يعد في استطاعتنا أن نتوقف.

كـانت المهمـة الأولى تتمثل في الانكبـاب على تفحص خرائـط الرحلة وإعداد المســالك. لقد اتضح أنــه لم يسـبق لأحـد من أدلائنـا أن غـادر الريـاض في اتجـاه الشــمال في حياتـه أبدا، وأنهـم كـانوا يجهلون المواقع الدقيقة للأمـاكن التي كنا نريد زيارتهـا. استبدل هويمل، وهو يهزأ من خرائطنـا، التشــاؤم العميـق الذي أظهره في اليـوم الأول بتفـاؤل مبهج: "سـوف تكون الرحلـة سـهلة وسريعة. وبشـيء قليل مـن حسن الحظ، سوف نصل إلى عمان بعد ثلاثين يوما". أعجبنا عندما رأينا هذا الرجل غـير المتعلم، الأمي، الـذي يميل إلى القِصر والبدانـة، والذي بلغ منتصف العمر، ينظر نظرة بعيدة وكأنـه يرى فعلا علامات طريق الرحلة، ويسرد مـن الذاكرة بصفـة مجملـة، كل إشــارة من إشــارات الطريق الرئيسـية، (كنت أراجع كلامـه وأتـأكد منـه على خرائطنا) الـتي تمتد على مسـافة الألف وثلاثمائة ميل التي تفصلنا عن عمان.

في صباح اليوم التالي، تنـاقش معنا سكرتير الملك في القصر حول فائدة وســلامة وسـرعة العربـة، مقارنـة بمـا يتضمنه اسـتعمال الإبل من تعذر إمكانيـة التنبؤ بمـا قد يحـدث من مشـقة أو حتى مخـاطر. لقد أصبحت العربة اليوم بالنسبة لنا، رمزا تضـاهي قوته ما كـان عند الشعراء العرب القدامى: "سهام القدر ... لا، إنها لا تخطئ الهدف" ولكننا لم نيأس بعد من أن يســمح لنا بالمضي على عزمنا. وبالرغم من أن تكرار المناقشة مع أنـاس جـدد كـان متعبـا، فإن أثـره لم يضعف عزيمتنـا، بل سـاعد، على العكـس من ذلك، على تثبيت البرهـان وتقوية الحجـة لدينا. والآن تحتم علينـا استعمال اســتراتيجية أخرى: سـوف نحاول أن نكســب الرهان باسـتعمال حيلـة الخجل: كنا قد حملنـا على قطع كل هذه المسـافة تحت ادعاءات واهية. إذ كل شيء كان قد توضح مسبقا عن طريق المراسلة، وعرفت الحكومة منذ أشهر ما كنا قد عزمنا عليه بالتحديد، ولذلك فإنه

من العـار عليهـم أن يســحبوا، في هذا الوقـت المتـأخر، عـروض النبل والشـهامة التي كـانوا قد قدموهـا لنا. أمـام هذا الموقـف الذي قد يمس بالشرف، لم ينبس سكرتير الأمير بكلمة واحدة، ووعد لتوه أن يلتقي بنا بعد نصف ساعة في البلدية.

في البلديَّـة، وبمعيـة هويمل الذي أحسسنا وكأنـه خـائن بين صفوفنا، صعدنـا الدرج بحزم. كنت أتمتـع بالتزكية الـتي كان الشيخ عبد الله قد منحني إياهـا، والتي كانت تضفي عليَّ هالة تشبه رداء خفيـا من الخبرة والمعرفة، وكنت أشرح لبيل بعناية الهيئة التي سيكون عليها مجلس الأمير. سيكون هناك صف من الرجـال، وجوههم متجهمة ومثقلين بالأسلحة، ومـن المرجح أن يكونوا جالسـين على الأرض في حلقـة كبيرة. سيقف الرجـال عندمـا ندخل، وينبغـي علينـا عندئذ أن نقول: السـلام عليكم، ليردُّوا: وعليكم السلام، ثم سيجلس الجميع بوقار، ولكن في انتباه، أثناء مواصلتنا الحديث مـع الأمير. لا وجـود لما يسـمى بالاختلاء- المواعيد والمكـاتب الخاصة، والمحادثات السـرية في الحياة العامة في الجزيرة العربية، وإنمـا ذلك كله مـن بدع الغرب. ولهذا السبب، كان من المهم جدا أن نترك أثرا جيدا عند جميع الحاضرين، وأن يكون موقفنا حازما قويا.

انفتـح الباب ودخلنـا في مكان حسبت أنه سـيكون بهوا فخمـا لقاعة الاسـتقبال. وعوضـا عن ذلـك، وقع نظرنـا على أحد أكثر المنـاظر التي رأيتها في حياتي إثارة للضحك.

كانت مجموعـة من الشبان تُعدُّ حوالي الخمسـين، يجلسـون القرفصاء في الغرفة الواسعة، تفصل بين الواحد منهم والآخر مسافة تقدر بحوالي ست إلى ثمـاني أقدام، بحيـث يبدون وكـأنهم بيـادق فـوق رقعـة شـطرنج. وعوضـا عن السـيوف الذهبيـة الرائعـة، والبنـادق الطويلـة التي كنت قد

وصفتها لبيل، كان كل واحد منهم يمسك قلما وبعض الأوراق. قال لنا سكرتير الأمير، إنه تم إخلاء المجلس لتمكين هؤلاء الشبان من القيام بامتحانات الخدمة المدنية للحصول على عمل في البلدية. ولتغطية خطأي، قمت - لسوء الحظ، كما اتضح فيما بعد- بملاحظة حول المنظر الغريب الذي كانوا يشكلونه وهم يجلسون القرفصاء على الأرض. ولما غادرنا المبنى في وقت لاحق، كان هؤلاء الشبان الذين كانوا في راحة واسترخاء من قبل، جالسين جلسة مرهقه على كراسي من خشب ذات ظهر مستقيم.

استقبلنا الحاكم بجفاوة، وكان يرافقه ابن حميس. ومرة أخرى، كان موضوع الحديث المفضل هو العربة. كان الحاكم قاسي القلب عنيدا. فقد أشار، وكان على صواب، إلى أننا كنا قد وعدنا بقضاء أسبوع في المناطق المجاورة للرياض حتى نتعود على الإبل، ولكننا لم نفعل. رددت عليه قائلا، إنه لم تحضر لنا الإبل حتى ذلك الحين.

قال نعم، هذا صحيح، إن العثور على الإبل أمر عسير في هذه الأيام. ففي ذلك الوقت، كان رجاله يجوبون البادية - على بعد ثلاثمائة ميل - لمحاولة العثور على البعض منها. سررت لهذا الاتفاق العرضي البسيط، لأنه كان يعني أننا قد انتصرنا في معركة هامة، أو على الأقل في ما يخص المبدأ. غير أنه واصل حديثه قائلا، إن الإبل لم تكن تمثل المشكلة الوحيدة، إذ إن رحال الإبل أيضا تكاد تكون شيئا نادرا - ندرة أجزاء الصليب الأصلي - وليس هذا التشبيه بالتدقيق بصادر عنه هو. لم توفر لنا سوق البدو في الرياض سوى ناقتين، في حين أن مجموعتنا كان ينبغي أن تتكون من ستة رجال للقيام بالرحلة. وعلاوة على ذلك، فإن التقارير وصلت من جميع المناطق التي سنمر بها، كانت جميعها ترسم

صورة موحشة عن الجفاف. فقد مرت ثلاث سنوات منذ تسجيل نزول أمطار هامة، و لم ينزل ولو رذاذ من المطر إلى اليوم خلال هذه السنة. كان الحاكم مستعدا للسماح بالرحلة لو انتظرنا شهرا آخر.

ومرة أخرى وفقت في الخروج من هذه المناقشات. "لايمكن لنا أن ننتظر، إذ إننا سنتعرض إلى المعاناة من حرارة الصيف" و " إننا على استعداد للتوقيع على وثائق، نقر فيها بأننا نتحمل المسؤولية " وأننا لن نطلب من الحكومة أن تجمع أو تواري عظامنا عندما يبيض لونها ... إلخ... ."

وأخيرا وصلنا إلى اتفاق: إذا تمكنا من التخلص من أسبوع "التدريب" حول الرياض، فإننا سنستجيب إلى رغبة الحكومة التي تتمثل في أن تلتقي بنا عربة كل مساء، على مدى أسبوع من الزمن، لكي تزودنا بعلف الإبل، حيث كانت على كل حال ملكا للحكومة.

كان الارتياح والسرور واضحين على ملامح الحاكم. جيء بالقهوة مرة أخرى، وبعد دقائق من الحديث اللطيف حول الشعر والبدو والصحراء، قال الحاكم في نبرة فيها شيء من الحزن، إنه لا الإبل ولا حتى الرحال ربما، كانوا في مستوى تلك الرحلة. لقد كانت الطرق التقليدية بصدد الانقراض، ويجب أن نكون حذرين جدا لأن هذه الرحلة ستكون أصعب منها قبل خمسين سنة، عندما كانت الأحواض والآبار متعهدة، وعندما كان يمكن الالتقاء بعدد أكبر من البدو. في ذلك الوقت، كانت الآثار ترسم وكأنها طريق عامة فعلا. "سوف نحاول أن نأتي إلى نجدتكم إذا ضللتم الطريق. وفي الواقع، سوف لن يكون لدينا متسع من الوقت، لأن المرء لا يستطيع البقاء أكثر من يوم أو يومين بدون ماء خلال هذا الفصل من السنة. مرة أخرى، وكانت



جيءَ بناقتين من إبلنا في شاحنة إلى بيت هويمل في خرج.

الأخيرة، سأل: "هل أنتم متأكدون أنكم لا تريدون أن نرسل سيارة كل مساء، تحمل إليكم أكلا ساخنا من الرياض؟".

أحسست أنني كنت فعلا في نهاية الحديث، وقررت أن أحدد تماما ما كنا نريد. قلت إن هدفنا يتمثل في تذوق طعم الصحراء. ولو كان الغرض من الرحلة لا يتعدى الوصول إلى الطرف الآخر، لأمكن لنا القيام بذلك عن طريق الطائرة. لم يكن هدفنا الرحلة بل السفر. ذكرت أنني عندما بدأت دراسة اللغة العربية، كان بإمكاني بكل بساطة، أن أتجه نحو تعلم اللغة العربية الحديثة والمحدودة، التي نطالعها في الصحف. ولكن، لمحاولة فهم المجتمع العربي والسياسة والحضارة، فإن الحاجة إلى أكثر من

ذلك بكثير، كانت ماسة. كان السير هاملتون جيب قد قادني إلى الطريق الأطول والأصعب في برنامج جامعة أكسفورد للشعر والقرآن والفلسفة. ثم أضفت جازما أنه ينبغي علينا أن نقطع الطريق كاملة، فقط هكذا، لمجرد رؤية الصحراء. ولكي أستطيع الإحساس بما أحس به لبيد، ورؤية ما رآه، كنت لا أريد طعاما ساخنا، ولا عربة من نوع فورد.

وقف الأمير ومد يده قائلا: "أنت أمير الرحلة. أرجو أن تحتفظ بالعربة لمدة أسبوع ولن تراها إلا في الليل. إن الإبل لكم، في طريقكم إلى الهلاك أو إلى عمان!".

ودعنا بقلوب منشرحة، ورجعنا عبر المنظر الكئيب لشبان يبحثون عن العمل. اتجهنا نحو مكتب صديقي الشيخ أحمد عبد الوهاب، مدير التشريفات الملكية. قادنا أحمد إلى مكتبه، وأغلق الباب بإحكام، ثم جعل يضحك بشدة وقال:"حسنا، لقد فعلتموها. لقد قررت أن لا أتدخل، لأنني لا أريد أن تموتوا على يدي، أيها الرومنسيون السذج. أما الآن فقد اقتنع الجميع. تذكروا فقط شيئا واحدا – حتى في الماضي كانت مثل هذه الرحلة شاقة وصعبة وخطيرة. أما اليوم، فإنها تكاد تكون مستحيلة. أنتما من العقلاء، وتعرفان ما أنتما بصدد القيام به. لقد مددناكما بأفضل من لدينا من الرجال، ولكن وبكل صدق، أقول لكما إنه ربما حتى الرجال لم يعودوا مثلما كانوا سابقا. أرجو لكما حظا سعيدا، فأنتما في حاجة لذلك!". ثم أخرج عباءتين صنعتا من الصوف الأسود المطرز بأسلاك من الذهب، وقال إنهما هدية من الملك، حتى نبدأ رحلتنا في ثياب عربية. وبحركة سريعة في عينيه، صافحنا ثم اصطحبنا إلى السيارة.

بعد ساعة من الزمن – الأمر الذي أثار فينا اهتياجا كبيرا – قال لنا هويمل إنه تمكن أخيرا، بعد البحث في كامل الجزيرة العربية الوسطى، من اكتشاف ستة من الإبل، ومثلها من الرحال والمعدات التقليدية الأخرى التي كنا في حاجة إليها، للطبخ وإعداد القهوة وعبور الصحراء. في الفندق، بعد أن انتهى ضغط الأيام الأخيرة، شعرنا أننا لا نستطيع أن نجلس أو نأكل من شدة الفرح. كنا نرغب في كأس من النبيذ ولكن ذلك كان شيئا يستحيل الحصول عليه مع النظام الصارم في الجزيرة العربية الوهابية. ماذا كنا نستطيع أن نفعل حتى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي؟ كان الجواب بديهيا: إعادة حزم الأمتعة. استيقظنا قبل الفجر بكثير، لنرتدي ما كان يحرجنا من قبل: ثيابنا الصحراوية.

كانت هذه الثياب تجسد البساطة ذاتها. لبسنا فوق ثيابنا الداخلية عباءة تشبه إلى حد ما ثياب النوم الفضفاضة عند رجل تقليدي. كان الجزء الأسفل من العباءة يتدلى إلى الكاحل. وعلى الصدر، كانت ثلاثة أو أربعة أزرار تنتهي إلى طوق صغير ملائم للرقبة على هيئة الياقة الصينية. ثم تمنطقنا بأحزمة الرصاص وقد ثبتت فيها مدية الصيد، وشددنا مسدسا حول الخاصرة. كما أننا وضعنا على رؤوسنا لأول مرة قلنسوة ضيقة، فوقها قطعة من نسيج الصوف المخطط بالأحمر، تبلغ مساحتها ياردة مربعة، تسمى في اللغة العربية كُفيّة، وتطوى على شكل مثلث. ولتثبيت الكُفيّة في مكانها، يستعمل العقال، وهو لفة مزدوجة من حبل أسود اللون. ثم لبسنا صنادلَ وحملنا حقائبنا وانطلقنا بسرعة واهتياج، مرورا بخدم الفندق النوبيين الذين كان النعاس واضحا في أعينهم، وعلينا علامات فيض من الشجاعة على ما نعتقد، متمنطقين بأحزمة الرصاص العريضة والخناجر والخوذات، للالتقاء بالرهط أو بمجموعتنا من البدو.

إلا أنه كان في قلوبنا أكثر من هاجس صغير. من المؤكد أن عائقا ما كان قد حدث. فقد لا تكون هناك إبل، أو أننا قد نوضع أمام الأمر الواقع، مما يوجب علينا أن نركب طوعا في عربة، أو أن نرجع إلى الفندق وإلى ثيابنا الغربية.

قبيل طلوع الشمس، ركبنا السيارة حتى ساحة الأمير سلمان، حاكم الرياض. فجأة فتح الباب الحديدي الكبير: سوف لن ننسى أبدا مشهد الستة من الإبل صفراء اللون. كما أبصرنا قرابيس تلك الأشياء النادرة القديمة، التي طال البحث عنها في كل مكان من الجزيرة العربية الوسطى: الرِّحال البدوية، وهي تعلو ظهور الإبل بشكلها المحدب الداعي إلى الدهشة. وعلى الجانبين، كانت هناك أكياس تنتهي بعدة شرابات، سنضع فيها محتويات حقائبنا بعد وقت وجيز. كما كانت خرزات زرقاء وبيضاء تكسو الخطام، مع مزيد من الشرابات. وكانت رايتان طويلتان على شكل مثلث، يبلغ طول الواحدة منها ما يقارب ثماني أقدام وعرضها ما يقارب ثماني بوصات، تتدلى من القربوس، قد نسجت عليها نسوة القبيلة، طوال أشهر عديدة من العمل، رموزا تجلب لنا الحظ وتدفع عنا السوء، وصورا تجسم العلامة المميزة للقبيلة. كما كانت قربة ماء من جلد الماعز تتدلى تحت كل عدل من الخرج الذي وضع فوقه جلد خروف ناعم، لونه أبيض وأسود، من شأنه أن يلطف الركوب ويوفر لنا الدفء ليلا. وكان مئزر من الجلد في المكان المناسب لوقاية أعناق الإبل من أرجلنا. جعلت الإبل تبرك الواحدة تلو الأخرى، ومع تحركها المتثاقل نحو سطح الأرض، كانت الرحال الخشبية ذات الطرف المزدوج تتمايل مترنحة، والإبل تثبت نظرها إلينا بأعينها التي تشبه أعين المها، وتفتح أفواهها مهددة كاشفة عن صفوف من الأسنان الواحدة منها بحجم قطعة الدومينو.

كـان الضجيج مؤذيـا. ربمـا لم يكن السـبب في ذلك سوى حداثـة عهدنـا بالمشـهد، أو أنـه كـان بمفعول رجع الصـدى لجدران الآجر التي كـانت تحيط بنا. غـير أنه كـان يبدو أن كل ناقـة تحاول أن تتفوق على الأخرى، في رغـاء ينم عـن الحنق والأنفـة، وخرخرة تشـبه طـرد الماء في الحمام، تنطلق من داخل بطونها.

كنا شـديدي الاهتياج للانطلاق بعد عـدة أيام من الانتظار وخوفا من دعوتنـا إلى الرجـوع. تسـلقنا بجهد وبشـيء من التعثر ظهور مطايانـا الباركة، بدون أن نلفظ كلمة أو نلقي نظرة إلى الوراء، ودون محاولة من بيل لالتقاط أي صورة. ومباشـرة بعد الخروج من البوابة، غادرنا المدينة متجهين نحو الصحراء.

الفصل الثالث

3

من الرياض إلى بريدة

من مطالعتنا لروايات الرحّالة، لم نكن قد عرفنا ما كنا نستطيع أن نتوقع فحسب، بل وكذلك ما كان منتظرا منا. كنا نتوقع الأوجاع والآلام مثلما كنا نعلم أنه كان منتظرا منا أن نكتب بشأنها، وهذا ما فعله كل رحالة جدير بالاحترام. وقد زودنا الرحالة الانجليزي سانت دجون فيلبي بنصنا عندما كتب:

" كنت أشعر بما يكفي من الفرح لمجرد الترحل، وجعلت أمشي هنا وهناك لأسكّن الألم المبرح في عضلاتي. إنه لأمر عجيب أن ركوب الإبل يدعو أعصابا وأوتارا - تبدو غير مستخدمة في كل الأعمال الأخرى ، أيا كان نوعها- إلى العمل. كنت مفعما بالسعادة عقليا وجسميا، رغم أنني كنت حين أقف أو أجلس على الأرض أتصرف على نحو مثير للضحك، كرجل في الثمانين من عمره. ... وفي الأثناء، كنت أحني جسمي بحذر شديد إلى وضع الجلوس، وبدون خجل،

أبحث عن مساعدة كتفي ويدي رفيقي المتعاطفين، للوقوف على قدمي. وأما بخصوص ركوب (ناقتي) البحرانية خلال هذه الأيام الأولى من التيبس، فإنني بكل بساطة، لم أحاول ذلك، بدون الاستعانة بحشد من المساعدين.

ومرة أخرى:

... إلى حد هذا الوقت، وبعد أربعة أيام من الركوب، بلغت أوج التيبس والارهاق، رغم أنني شعرت، في ما يتعلق بجميع النواحي الأخرى، أنني كنت في غاية من الصحة والعافية، رغم قلة الأكل وقصر ساعات النوم التي سمحت بها مشاغلي المتعددة – كالكتابة اليومية أو الليلية لمذكراتي، ولف أو تصنيف العينات التي جمعتها وما إلى ذلك. كان عدم القدرة على الوقوف بدون مساعدة بهذه الصورة مؤذيا ومزعجا، وكان من المتفق عليه بصفة عامة، أن آخذ فترة استراحة من البحرانية. ونتيجة لهذا القرار، ركبت ناقة سعدان في اليوم التالي، وعندما حان وقت التخييم، بعد نزهة طويلة ورحلة دورية على امتداد ما يقارب ٢٦ ميلا، شعرت أن كل أثر للتيبس المشل للحركة قد ذهب دون رجعة، الشيء الذي بعث في نفسي البهجة والارتياح. وهكذا أمضيت خمسة أيام في التعود على ركوب الإبل، ليصبح ذلك متعة خالصة فيما تبقى من الأيام."*

أعتقد أن القراء سيتعرفون علينا في حوليات ركاب الإبل الغربيين – رغم أنه إذا أردنا قول الحقيقة، ينبغي أن نقول إن مصداقيتهم لا تتجاوز مصداقية لاعبي القمار من رواد السفن الراسية على نهر المسيسيبي – غير أنه لم تتحقق لا فظاعة الإنذار ولا الأمل في نهاية سريعة للآلام.

كان اليوم الأول اختبارا لا نهاية له، ذلك أن كل شيء كان مخالفا إلى حد ما للمألوف . لقد كانت الأرجل تبدو وكأنها لا تجد مكانا توضع فيه، ثم إننا لم نشعر بالثقة المريحة التي يوفرها الركاب أو تثبيت الفخذ إلى جانب الحصان. كان الرَّحْلُ، الذي لا يزال غريبا، يكاد يكون مختفيا وحتى أحيانا – عند الحاجة – كان مثل صديق أيام الرخاء، لا

---

*الربع الخالي (لندن، ١٩٣٣) ص ٢٤، ٢٥ و ٤٥ تباعا).

يدرك تحت طبقات من البطانيات والسجاد وعدلي الخرج وجلد الخروف. حيث أنه كان مسطحا تقريبا من الأعلى، فقد كان يبدو أشبه ما يكون برف ناتئ ضيق من المقعد. ولم تكن سوى الدفعة الشديدة المزعزعة، التي تحدث من حين إلى آخر، والتي تسببها القطع الخشبية المعترضة عندما تعثر الناقة، تقنع المرء بأن له علاقة وطيدة مع سطح الأرض. كان سطح الأرض ذاته يبدو بعيدا بصورة مفزعة، حيث يقارب مستوى ارتفاع أعين المرء مرتين ارتفاع راكب الخيل. وبالنسبة للمبتدئ، ينقل سير الجمل حركة لا يمكن التنبؤ بها تكون مربكة أحيانا عند الهرولة الرخوة على أرجل تبدو غير متناسقة، وبسبب السنام الذي يشبه كومة هلامية، والطبقات الكثيرة من القماش والجلد.

وضعت رجلا فوق الأخرى، ثم أعدت ذلك تكرارا، مجربا في أول الأمر جانبا، ثم الوسط، ثم الجانب الآخر، محاولا أن أدس كفلي في وضع آمن ومساند. لم يكن أي من الأوضاع مناسبا تماما. ومن حين لآخر، كانت سخافة الحالة بكاملها تزعجني. لماذا كل هذا التمثيل؟ ألا نستطيع أن نكون أذكى أو أرشد بإشباع رغبتنا على المقاعد الثابتة لسيارة جيب؟ ثم يعيدني الفضول إلى الحقيقة الحالية، والمنفصلة والملموسة لعالمي الوحيد. هل كانت بندقيتي مثبتة بصورة محكمة؟ كنت أتلوى في مقعدي متسائلا عن مدى قدرتي على الانحناء دون أن أسقط في حالة المفاجأة، وكدت أندفع إلى سطح الأرض عندما عثرت الناقة في حجر، فعدت إلى التفكير في البقاء على مطيتي فوليت نظري عن بقية العالم. لقد كان عليَّ أن أبقى على ظهر الناقة بأقل ما يمكن من الحرج.

على بعد مني، نحو الأسفل، كانت أعدال الخرج بألوانها الحمراء والبيضاء والسوداء تتدلى من الجانبين الأيسر والأيمن، وقد نسجت عليها

تلك الأشكال القبلية عامة الانتشار والبدائية، التي كانت تزين السجاد التركي وزرابي النافاجو على حد السواء. كان كل جانب من عدلي الخرج يحتوي على جيب عمقه ثلاث أقدام تقريبا، وضعت فيه صناديق لأدوات الطبخ وبعض التمر والبرتقال. ومع طلوع شمس الصباح، ازداد عطشي الوهمي. ربما لم يكن عطشا أكثر مما كان فضولا. هل كنت أستطيع البقاء على ظهر الناقة وأنجح في الوقت نفسه في أخذ برتقالة من قاع عدل الخرج؟ وبعدما كدت أسقط من مقعدي عدة مرات، تمكنت من رفع الطيات المختلفة من القماش، ومددت ذراعي إلى قاع عدل الخرج. وعندما قاربت أصابعي أن تمسك البرتقالة، خرجت من ثقب كبير في قاع العدل. نظرت حولي إلى رفاقي الصامتين، غير المبالين، وأنا أشعر بحماقتي الاستثنائية. ترددت. هل ينبغي علي أن أحاول القفز إلى الأرض لآخذ البرتقالة؟ ولو فعلت، كيف أتمكن من ركوب الناقة ثانية؟ ربما كان من الأجدر أن أكتم كبريائي وعطشي وأبقى حيث كنت. نظرت باشتياق إلى الوراء مرة أخرى، في الوقت المناسب لأرى بيل وهو يلتقط البرتقالة ويهرول في اتجاه ناقتي.

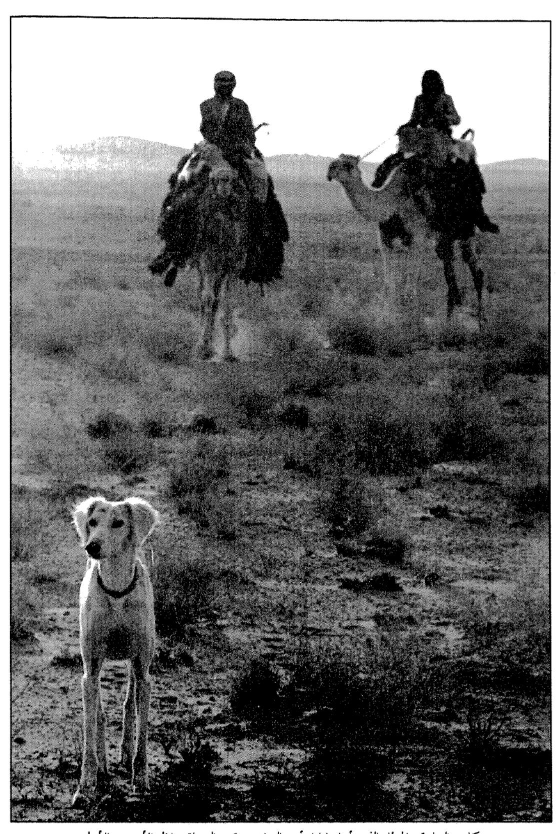
قال ضاحكا:"تبا! لقد بدأت أتيبس بشدة، ففكرت في النزول والتقاط بعض الصور. تعال، انزل". وهكذا، خفضت نفسي بحذر شديد واحتراس متشبثا بالقربوس الخشبي للرحل، ماسكا بحزام الرصاص والمسدس فوق عدل الخرج، ورافعا الجزء الأسفل لعباءتي البدوية بطريقة غير لائقة بتاتا، وألقيت بنفسي، دون حذق، على الحجارة المتناثرة على أرض الصحراء. وبدون اهتمام على الإطلاق، وبإغفال ظاهري لمهارتي البارعة في الحركة، واصلت الإبل ورفاقنا البدويون هرولتهم بثبات في موكب مهيب.

هنا كل منا الآخر، شأننا في ذلك إلى حد ما شأن تلميذين في

المدرســة، على العمـل البطولي الجريء الـذي شرعنا فيــه وعلى روعـة الفضـاء الصـافي الذي أودعنـاه أنفسـنا، وعلى سـحر الصحراء الشاسـعة الخالية. فجأة، سمعنا وراءنا دويا عنيفا لسيارة، ثم برز من خلال سحابة من الغبـار، ركاب سيارة فولكسـفاجن من ممثلي الصحافـة في الرياض. تلاشــى عـالم العزلــة الذي كنـا فيه مثلمـا يتلاشــى الضبـاب في شمس الصباح. لقد أصبحنـا مشاهير هنا، في أرض الإبـل، وذلك بكل بساطة لمجرد ركوبنا إياها.

بعد أن أرضينا رجال الإعلام ولـيَّنا عضلاتنا المتيبسة، واجهنا التحدي المتمثل في العـودة إلى الركوب. يمكـن للبدوي أن يركـب الناقــة بسـرعة فائقـة، مؤرجحا نفسه برشاقة، مستعينا بقربوس الرحل. وقد عرفنا هذه الطريقة لركوب الإبل مـن خلال وصف "الأيام القديمـة". غير أنه توجد طريقـة أخرى أكثر انتشـارا، على الأقل حاليا، وتتـلاءم مع الكسل وهي التي كنت استعملها، وتتمثل في إجبار الناقـة على أن تبرك. وبين طرفي النقيض، توجـد طريقـة أخرى تتمثل في وضـع الركبـة على كتف الناقـة والقفز للإمسـاك بـالقربوس، والزحف فوق عنق الناقـة وصولا إلى أعلى الرحل. كانت هـذه الطريقة تبـدو سـهلة، ولكن بأرجل مغطـاة بالجزء الســـفلي الطويل المتـدلي للبـاس البـدوي، أو الثوب، وحـزام الرصـاص العريـض والجيوب المملـوءة بـالتمر والبرتقـال والبوصلــة ومديــة الجيب وشريط التصوير وبعض البقايا الأخرى، فإن ذلك لم يكن أمرا سهلا.

أخيرا، وبعد أن تركنــا الصحـافيين بعيدا إلى الـوراء، وامتدت أمامنـا سـهول تبدو لامتناهيـة من الأرض الوعرة والصخور المتنـاثرة، بدأنا تلك الفـترة الطويلــة من تخفيض الضغـط والارتخـاء للســفر، الذي ســيكون التجربة المميزة للرحلـة. كنا في زهو كبير لأننـا لم نسـقط، أو لأننا لم نجلب لأنفســنا الخزي بطريقة أخـرى، كما أنـه أخذ بمجـامع قلوبنا هذا



كلب السلوقي المدلل الذي أعارنا إياه أمير الرياض، يقود الرحلة خلال الأسبوع الأول

التجديد الـذي يتعلق بكل مظهر من مظاهر اليوم الأول، حتى أننا مضينا في سيرنا إلى غروب الشمس قاطعين ما يقارب الخمسين كيلومترا.

عنـد ذلك الغـروب الأول، كـانت العربـة الكريهـة قـد وصلت قبلنـا والخيمة قد نصبت. كـانت كومة هائلـة من قصب الحشيش الذي قطع منـذ وقت قريب، بلونه الأخضر الزمـردي، مكدسة على أرض الصحراء العاريـة. وفي ما عـدا ذلك، لا يمكن أن ترى ورقـة عشـب واحدة على امتداد أميـال من حولنـا. اندفعت الإبل نحو الحشـيش، فكـان علينا أن نضربها ضربـا شـديدا حتـى تهدأ و تترك لنـا الوقت الكـافي للهبوط من على ظهورها وإنزال الرحال.

يصنع رَحْلُ الجمل ببسـاطة، فهو عبارة عن منصـة يجلس فوقها المسافر ويضع عليها عدتـه كلها. وعادة ما يتم شـد الرحل بقطعة أو اثنتين من أسـلاك الحبل، ثم يغطى بالسـجاد وجلد خروف أو اثنين وأعدال الخرج وتعلق فيـه قرب المـاء المصنوعـة من جلد المـاعز، والبندقيـة، وما زاد عن ذلك ممـا يحتاجه المرء. فك أحد رفاقنا من البدو الحبـال، ورمى بأعدال الخرجـة على الأرض، يكاد يسبق في ذلك نزولنـا، فقعقعت قوارير ماء إيفيـان وعلـب الأشـرطة وصنـاديق الذخـيرة في آن واحد، محدثـة صوتا مفزعـا. كـانت البنـادق هي العنـاصر الوحيدة مـن المعدات التي تعـامل باحـترام ولطف. لم يكـن رفاقنـا يبتهجون بأعمـال التخريب - ولكن الصحـراء لم تُـنمِّ عندهـم الاهتمـام بالأشـياء. فإذا لم يحطمها الإنسـان، فإنهـا كـانت عرضـة للتلـف أو الدمـار بفعل الرمـال. ولذلك، فلمـاذا الاهتمام. لقد مَـنَّ الله علينا بها، وهو قـادر على إعطاء المزيد، إذن، لا تهتم!. رافق كل هذا رغـاء الجمال، تعبـيرا منها عن الغضب والظلم - مثلمـا يوحي بـه مشـهد اغتصـاب جمـاعي - وترشـاش البول الذي يمثل السلاح المميز للإبل الغاضبـة. وقفت أنا وبيل جامدين تقريبا، لا ندري

مـاذا نفعل أو أين نذهـب، ممسـكين بآلات التصوير والأشـرطة والبوصلة والناظور المزدوج، وكأننا نريـد النجـاة من الموت، في هـذا المشـهد من الفوضى الهوجـاء. وبعد لحظـات، انتهى كـل شـيء وبـدأت الإبل التي أصبحـت ظهورهـا الآن مجـردة، تملأ بطونهـا بـالعلف في جلبـة ولكن برضاء وهي واقفة وراء الخيمة.

نصب المخيـم بسـرعة، ثـم اختطـف أحد الرجــال بطانيـات رحالنـا وفرشها على أرض الخيمة لتستعمل كسجاد ومطارح. بينما حفر آخر حفرة غير عميقة للموقد وأحضر ثالث حبوب القهوة وجعل يحمصها في مقلاة ذات مقبض طويـل فوق النار الـتي تم إشـعالها حديثا. وعلى رنين المدقـة النحاسية الذي يحدثـة التقاؤها بالمهراس، سـحقت الحبوب بسرعة لتصبح قهوة. وفي الوقت نفســه، ذبـح خروف، وتقريبـا قبل أن تكف جثته عن الارتعاش، كان قلبه وكليتاه تشوى على الجمر. ونظرا إلى قلة خبرتنـا، كنا نشـاهد النشـاط الصـاخب حول الخيمـة دون أن نستطيع المساعدة. كنـا نميز بصعوبة أشكال الرجال غير الواضحة وهم يسرعون للقيام بالمهام الملقـاة على عواتقهم، الواحدة تلو الأخرى وذلك لأننا، في حقيقـة الأمر، لم نكـن نعرفهم بعد كلا على حـده. وبعد خمس عشـرة دقيقـة مـن انحدار الشـمس خلف الأفـق، أرخى الليل سـدوله في ظلام حالك في لون الحبر.

أخذنا أماكننا حـول النار، وشـرب كل منا ثلاثـة أو أربعة فناجين من القهوة البدويــة المرة المتبلــة بحب الهــال، ونحن نمتحن الأعضــاء الأكثر حساسـية من أجسـادنا بحـذر شديد. كـانت النار تتوهـج أمامنا وأعيننا تبحث عـن بعضنا البعـض في فضول. من يـا ترى كـان هـؤلاء الرجال الذين يقبعـون خلـف الوجوه الغريبــة، الـتي تحمل أثـر النـدوب والذين

يجلسون حول نار المخيم؟

وبما أننا كنا مرتبطين بهم في هذه الرحلة بهذا الشكل، فإن الشيء الكثير كان يتوقف على قدرتنا على التفهم والحيطة للمستقبل، وعلى قدرتنا على الصفح كما اكتشفنا لاحقا. أما في الوقت الحاضر، فإنهم ليسوا إلا وجوها ينعكس عليها ضوء الغسق الضئيل.

من المؤكد أننا كنا بدورنا نبدو لهم غرباء. لقد جعلتنا بشرتنا البيضاء ومحاولاتنا التي كان يعوزها التناسب في التصرف على الطريقة الصحراوية، وعدم تعودنا على الملابس الجديدة وغطاء الرأس غير الثابت، نبدو ضعفاء شيئا ما، متأرجحين بين الرغبة الملحة في " القيام بذلك على الطريقة التقليدية "، والشعور أننا كنا نتصنع في مظاهرنا أثناء حفلة تنكرية. لقد جعلتنا كل هذه الأحاسيس نكاد نشعر بالخجل. ثم إنه كان هنالك حاجز اللغة طبعا، إذ أن بيل لم يكن يتكلم اللغة العربية ولم يكن يقرأها. كنت أجيد قراءة اللغة العربية أكثر من أي من رفاقنا البدويين، غير أن لهجتي كانت خليطا من اللغة العربية الفصحى وتلك التي تستعمل في المدن. أما اللهجة التي كان رفاقنا يتكلمونها، فقد كانت غريبة عن أذني، ولم تكن خاصيات أصواتهم مألوفة بالنسبة لي، وكانت الألفاظ التي يستعملونها في حياتهم غريبة عن اهتمامي بالسياسة والاقتصاد والأدب.

بدأت النار تخمد شيئا فشيئا أمام أعيننا، كما أخذت هسهسة الأصوات التي لم تهدأ أبدا، تتلاشى وسط غفلتنا. تشممنا، ونحن نتكئ على الرحال، الروائح التي كانت غريبة جدا عن أنوفنا، والتي تنبعث من الصوف والجلد والعرق والبول. كان أديم الصوف الخشن، الذي صنعت منه الخرجة، قاسيا متيبسا بفعل سنوات من الاستعمال. (يبدو

أنه لا توجد خرجة جديدة ويكاد يستحيل على المرء العثور عليها في الأسواق). كانت هذه مساهمة نسوة قبيلة الدواسير وتتميز هذه الخرجة ويختلف الواحد منها عن الآخر كما تختلف الرقع على أغطية الأفرشة في ريف أمريكا في القرن التاسع عشر. كانت البنادق والأردية المكسوة بالفرو والخطم منتشرة في المكان الذي سقطت أو طرحت فيه عند إنزال الرحال. ومع تزايد برودة الليل، تم تجميع هذه الأشياء تدريجيا لتوضع على شكل دائرة تشبه سترة مريحة ودافئة حول النار. وعندما اتكأنا عليها، بدا وكأننا فقدنا ملامسة الأرض التي تحيط بنا. ومن خلال فضاء الصحراء الصافي، كانت السماء مضاءة بالنجوم وقمر ثلاثة أرباع الشهر. لقد اجتمعت عوامل سماء الليل ونار المخيم وضجيج الإبل وصوت المدقة والمهراس وآذان رفاقنا للصلاة والراحة المؤلمة لعضلات ساكنة ومنهكة تم اكتشافها حديثا، لتصبح أشبه بتجربة تنويم مغنطيسي. شيئا فشيئا، هدأت هذه الأصوات وآوت الإبل إلى الأرض لتنام، وغرق كل منا في تفكير حالم صامت، غير أن النوم كان يراوغ كلينا. لقد تمادت كل حاسة في أجسامنا في الوخز.

كان يبدو لنا أننا سمعنا بمجرد أن أغفينا، صوت إعداد القهوة. نظرت إلى ساعتي. كانت تشير إلى ما بعد الثالثة صباحا ببضع دقائق، فلعنت في صمت هذا الولع بالقهوة. ولكن ما كادت تمر بعض الأيام حتى أصبحت أشاركهم في ذلك. ثم بدأت هسهسة الأصوات تسمع تدريجيا، واشتعلت نار المخيم ثانية بالأغصان اليابسة التي جمعت من شجيرات الصحراء الكثيفة ومن فضلات الإبل. كانت الأصوات تبعد عن مسمعي بما يكفي لتكون غير واضحة، ولكنها تكاد تكون موسيقية. رجعت ثانية بهدوء إلى النوم، ولكنني استيقظت في الخامسة على صوت الآذان للصلاة.

كـان تشـــارلز دوفتي، ذلك الرجـل الغريب الـذي يكـاد لا يفهم، قد حذرنا مسبقا، حيث كتب في: "الصحراء العربية":

" لا تسمع زقزقـة عذبة للعصافير لـترحب بقدوم أنوار صباح الصحراء. ولا تسمع أصوات أخرىٰ عدا أصـوات البشـر في هذا المكـان الجـاف المقفر. يسـتيقظ البدو، الذين يتمددون في عباءاتهم على أرض الصحراء الرملية، مسقط رؤوسهم، في الخيام المفتوحـة، ويتململون قبيل منتصـف الليل بقليل. وفي كل خيمـة مخصصـة للقهوة، تشتعل نار حديدة في الموقد، وتوضع فوقها الأباريق. ثم يختطف الشيخ حذوة بين أصابعه ويضعهـا في غليون التدخين. ثم تحمص وتسـحق حبوب القهوة القليلة التي استلمها من زوجته. وأثناء الغليان، يخرج الفناجين، التي رأينا أنها تصنع في الغرب لاسـتعمال العرب غـير المبدعين. وبعد أن يفتح صنـدوق الفناجين برزانـة ولطف، ترى البـدوي وهو يمســك بما لا يزيـد عن ثلاثـة أو أربعـة منهـا، ملفوفـة في خرقـة وسـخة، وهو منشـغل بفركهـا بها وكـأن ذلك من شـأنه أن ينظفها. ويتـم سحق الحبوب المحمصة عند العرب في قرقعة نبيلة – و(مثل كل أعمالهم) متواترة بانتظام – في نحاس المدينـة أو في مهراس خشبي قديم، مرصع بالمسامير في شـكل جميل، صنعه أحد الحدادين البدو. وعندمـا يبلغ الماء درجة الغليـان، وسط الإبريق الصغير، يلقي فيه بمسـحوق القهوة الصافي، البن، ويسـحب الإبريق ليغلي برفق لبعض اللحظات. ثم يأخذ، من عقدة في منديله، حب القرنفل وشيئا من القرفة أو البهار الآخر، وبعد طحنهـا، يرمي بهـا في الإبريق. وبعد قليل، يصـب بعض القطرات السـخنة ليذوق قهوتـه، فإذا استسـاغ طعمها، أخذ مجموعـة من الفناجين في يـده ببراعة و بإحداث قعقعـة لطيفـة، يكون مسـتعدا لصب القهوة للرفـاق، بادئا علـى يمينـه، بأي شـيخ مرمـوق أو شـخصية هامـة إذا وجد بين الحضـور. ولا يحتوي فنجـان القهوة على أكـثر من أربع رشــفات فقـط: يعد ملء الفنجـان للضيـف، كمـا يحدث في المدن الشمالية، إساءة عند البدو، تحتوي على مثل ذلك المدلول الجارح للشعور، " اشرب هذا واذهب في سـبيلك". وغالبـا ما تشـهد عندهم حجاجـا لطيفا، خاصـة خلال المناسـبات ذات الأهميـة الكبـيرة، حول من يشـرب أولا. وعندمـا يتسـلم أحدهم

الفنجان بدوره، فهو لا يشربه - بل يقدمه إلى شخص أقل منه مرتبة، إذا كان هو ذا مرتبة أرفع : ولكن الآخر سيرفض مشيرا بيده: أبدا:"لا، لا يجوز ذلك أبدا، وا الله! اشرب أنت!" وبحصوله على ذلك الإذن، يشرب الرجل المتواضع القهوة في ثلاث رشفات ويمد فنجانه فارغا."*

إن النوم شيء حسن غير أن القهوة والرفقة أحسن منه.

قبيل طلوع الشمس بقليل، كان يجب جمع الإبل التي كانت قد شردت بعيدا. وبعد تقويض خيمة السفر الخفيفة، بدأنا ما سيصبح عملا يوميا، يتمثل في لف أكياس النوم، وجمع أمتعتنا القليلة ومحاولة الحيلولة دون كسر صناديق أدوات المائدة والقوارير، عند وضعها داخل أعدال الخرجة.

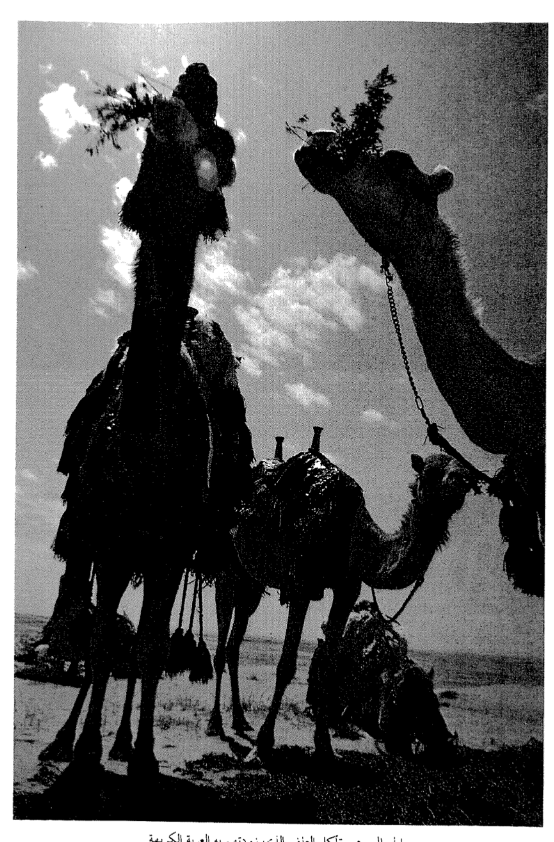
يتكون ما يقابل فطور الصباح في الغرب، من بعض التمر - وغالبا ما يكون قد علقت به خصلات من وبر الماعز - وفنجان من القهوة، في حجم كشتبان، وفناجين من الشاي وقطعة من رغيف خبز غير مخمر، يشبه الفطيرة المحلاة، يحمر على جمرات النار. تشرب القهوة دائما مع التمر، أما الشاي، فمع الخبز فقط. لم يكن العكس واردا، فهو شيء همجي. وكنا نأكل ما تبقى من الخبز غير المخمر، عند أول محطة لنا خلال اليوم، وهو فطور الصباح عند البدو، حوالي منتصف النهار. ولا يأكل البدو ولا يشربون إلا القليل خلال النهار.

كانت وجبات الطعام، مثل أغلب الأشياء في حياة البدو، تقدم حسب تقاليد معينة، وكانوا يستمدون الشعور بالارتياح أساسا من اكتمال الخصائص المميزة للتقاليد، وليس من الكميات القليلة من الطعام.

عند انبلاج ذلك الصباح الباكر، عرفنا سحر ومتعة نار المخيم. لقد

---

*رحلات في الصحراء العربية (نيويورك، ١٩٣٧) الجزء الأول، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.



الجمال وهي تأكل العلف الذي زودتهم به العربة الكريهة



الوصول إلى مدينة زلفه عند غروب الشمس

سوق الأغنام في بريدة

كـان هذا سـبب إغراء الرجـال وإيقـاظهم من النوم في ســاعات ما قبل الفجر المظلمة. وبقـدر ما كانت الروعـة الطبيعية لسـماء الليل أو جمال الصحراء لا تؤثر فيهـم، بقدر مـا كـان البـدو يؤثرون الحديث وحســن الرفقـة. ويتجسد حسـن الرفقة هذا في التقـاليد المتعلقة بالتقائهم، وهذه التقاليد ذاتها هي جوهر متعتهم. وكما يتمسك الإنجليز بحسن مظهرهـم اسـتعدادا لتنـاول الطعـام في الغاب، فـإن البدو يتمســكون بالشـكل في أعمالهم.

يتولى أحـد الرجال عمليـة إعـداد القهوة. فيحدد بعنايـة عدد الحبوب التي يأخذهـا من كيـس صغـير، ويضعهـا في مقلاة. وبعد حمصهـا على النـار، يصبهـا في مهراس مـن النحـاس، ويضيف إليهـا حب الهـال، أو حبوب القرنفل في المنـاطق الشـمالية من الجزيرة العربيـة. ثم يعد القهوة للماء الذي يغلي، مستمتعا بصوت النحـاس الذي يحدثه المهراس والذي يذكرنا بصوت المزمارالذي يشـبه الناقوس. ثم يخلط ما تبقى من القهوة القديمـة مع القهوة الجديـدة، وعند العارفين الحقيقيـين، ينطبق ذلك حتى على مياه الآبـار المختلفة، ليحصـل على النقيع المغلي، الرقيق القوي المر، الذي يحبه البدو حبا جما.

وبعد ذلك، يعين الرجـل نفسه أو أحد الرفـاق الآخرين ساقيا. يصب الســاقي القهوة - أو كمــا يمكن أن يتذكـر القـارئ في رباعيـات عمر الخيام، الخمر - لرفاقه . ولا يشـرب الساقي ذاته، ذلك أن الإمساك عن الشــرب خلال قيامـه بهذا العمـل المؤقت، يجعل من مظهـر الإيثار هذا، أمـرا باعثـا على الرضـا. وهـذا يعطي الفرصــة لرفاقـه لكـي يحثوه على الإقلاع عن تلك المهمة النبيلة والكريمة حتى يتمكن من التمتع بالقهوة.

وهكذا، تساعد المهـام الدنيوية البسيطة الـتي تميز الحياة في الخيام، على

تهدئة وتلطيف تعـامل الرجال الذين غالبـا ما يكونون متعبـين وعطاشى وجـائعين. كما يحول تناسـق الأعمـال دون حدوث الالتباس والفوضى اللذين غالبا ما يتجليان كسبب من أسباب الصراع في المجتمعات الغربية التي تكون أكثر شذوذا إذا كانت أكثر ثراء. وفي نهاية الأمر، فإن المهام الاعتياديـة، مهمـا كانت تافهـة وغير هامـة في جوهرها، توجـد فرصا لإبـراز المـودة والانســجام والافتخــار. وإذا كـان هنـاك محـور لحيـاة الصحراء، فـأعتقد أنـه الاقتصـاد. وربمـا توجد عـبرة تتعلق بقدرة البدو على كسب متعة كبيرة من المهام التي نجحنا في جعلها أوتوماتيكية في آلة البيع.

لقد أصبح إعداد القهـوة مظهرا مكملا للحياة في الصحراء بدرجـة أنه يبدو مسـتحيلا أن نتصور زمنـا لم يكن خلالـه جوهـرا للحياة البدويـة. وعلى الرغم مـن ذلك، فـإن القهوة لم تكـن موجودة في الجزيرة العربيـة قديمـا، كما أن الكلمـة التي تشتق منهـا "القهوة" تعني، في اللغـة العربية الكلاسيكية، الخمر. ويبدو أن شـرب القهوة لم ينتشـر إلا في وقت من الأوقات حـوالي القرن السادس عشـر، وبـأي حال من الأحوال، فهو لم يكن عامًّا حتى حدود القرن الماضي. ربما كـان أكثر أسلافنا من رحالة الصحـراء فضولا، المستشـرق الإنجليزي، الذي كـان في وقت ما الراهب اليســوعي بماضيه اليهـودي ومستقبله البروتسـتانتي، والـذي كان العون السـري للإمـبراطور نـابوليون الثـالث، ويليام بـالجريف قـد لاحظ سـنة ١٨٦٢ أنـه:" لم يكن بإمكـان أحد في قبيلـة شـرارات كلهـا أن يتباهى بـإبريق قهوة أو بالقهوة. [ولكن] مثل تلك الأشياء كانت فعلا منتشرة عند البدو الســوريين العرب الذين أثراهـم امتلاكهم للأغنـام والخيول، وكذلك في المناطق المجاورة للمدن... ."* أمـا اليوم، فإنه من المؤكد أن

*يوميات رحلة دامت سنة عبر الجزيرة العربية الوسطى والشرقية، ١٨٦٢/١٨٦٣ (لندن ١٨٦٥)، الجزء الأول ص ٣٠.

القهوة هي أكثر المشروبات انتشارا عند البدو الرحل. وتمثل شعائر إعدادها إحدى مقومات الحياة البدوية، شأنها في ذلك شأن الاحتفال بالشاي في اليابان. كما يعد الجلوس دون أن يعرض على المرء فنجان من القهوة إهانة له. أما إذا قدمت لك القهوة، فإنك تكون قد كسبت جميع امتيازات الرفقة.

تماما عند طلوع الشمس، انطلقنا.

أفضى تظاهري بالشجاعة وشعوري بالغبطة خلال الليلة الماضية إلى ندمي على ما صدر مني من تكذيب غير محتشم لفيلبي. لقد كنت كتلة

كنا نستريح عند المساء، ولكننا كنا نفكر دائما في المسألة الهامة، التي تتمثل في المسافة التي كنا قد قطعناها خلال ذلك اليوم، والاتجاه الذي كنا سنذهب فيه في اليوم التالي.



من الأوجـاع والآلام خلال كـامل اليوم. وعلى الرغم مـن أنني كنت أمشـي تارة وأركب الناقة تارة أخرى، فـإني شعرت أنني قد انفلقت من الخلف، حيث كانت أطـرافي ومفاصلي موجعة ومتيبسة. نظرت – وأنا أشـعر بـأثر السـنوات الاثنتـين وأربعين بأكملهـا التي انقضت من عمري وأحرق أسناني بحسـد – إلى بيل الذي كان يصغرني سـنا وذا بنية قوية، والذي اشتغل في البحرية سابقا. ثم التفت إلى البدو: إنهم رجال تمرسوا على الإبل والصحراء منـذ صغر سنهم. ملعون أنـا، إذا قلت شيئا آخر. ميـلا بعد ميل، شـقننا طريقنا بصعوبـة عبر السـهول الصخريـة التي لا ترحم. كانت الصدمة التي يسببها كل حجر تبدو كأنها تنتقل على نحو كـامل عـبر حزام الألم الـذي كونتـه الأرجل الطويلـة للناقـة وسـنامها والرحل الخشبي. كانت المناقشة الهامة تحتدم في ذهني: هل كان أكثر ألما أن أترجـل أو أن أركـب الناقـة؟ وفي آخـر الأمـر، أفقـت مـن هـذا الاستغراق في التفكير الحالم والحيرة، على صوت بيل. وبما أنه كان شابا قويا وشـهما، فإنه لم يشـعر بالحاجة إلى أن يطبـق أسنانه ليثبت وجوده. قال:"يا إلهي، لم أشـعر بهذه الآلام طوال حياتي. أين هو ذلك الدرفون الملعون؟". سـاعدني ذلك، على الأقل، على التخفيف من حدة توتري، وكمـا كنا سـنفعل خلال أكثر الأيـام التالية، شـرعنا في فحـص سريري ووصف ومقارنة لأوجاعنا وآلامنا المتعددة.

تطور الآن، مـا كان سـابقا الألم المبرح والمخجل الذي كنت أشـعر به وحدي ليصبح مؤامرة صغيرة بين شخصينا. وشيئا فشيئا، وبينما كانت الرحلة تكشف عن أسـرارها، توسعت مجموعتنا لتضم كامل الفوج. لم يكن رفاقنـا من البدو قد ركبوا الإبل لمدة لا تقل عن خمس عشـرة سنة، وعلى الرغم مـن أننا لم نكن نعلم ذلك في البداية، فـإنهم كانوا يشعرون بالأوجاع والآلام نفسـها التي كنا نشعر بهـا. وبعد ذلك، أثناء الرحلة،

التقينا وسط صحراء النفود الكبرى بعدد قليل -قليل جدا- من الرجال الذين لا يزالون يمارسون ركوب الإبل، واعترف لي أحدهم أنه على الرغم من ولادته ونشأته مع الإبل، فإنه كان دائما يشعر بالألم ذاته عند الركوب.

أصبح الألم أحد هواجس الرحلة - النقيض اللازم للراحة والجمال. لم تكن آلامي أبدا أشد من تلك التي وصفها فيلبي، غير أن مذكراتي التي كنت أكتبها على عجل وبدون عناية خلال الخمس عشرة دقيقة أو ما يقاربها من وقت الفراغ في المساء والتي تتخلل نصب الخيمة والظلام، كانت مليئة بالشفقة على الذات. "الأربعاء - آلام مبرحة. جعلني الحك والتشريط في حالة سيئة. وضعت الدواء على الجراح، غير أن تحسن الحالة بطيء إن وجد. أخذت شيئا من الدرفون ثم واصلت الطريق. اليوم بارد، لذلك ترجلت لعدة ساعات. ومع قدوم المساء، أحسست بآلام مبرحة. غضبت من هويمل غضبا شديدا بسبب بعض السخافات. مساء رائع مرة أخرى وتحسن في آلام وإنهاك اليوم. نمت على الساعة التاسعة مساء".

بما أن الكتابة كانت مستحيلة، فإن مذكراتنا كانت قصيرة، إذ لم يكن تمايل الناقة وحده قد جعل الكتابة أمرا مزعجا، خاصة خلال فترة التدريب، بل كذلك، كانت الرياح التي كادت تكون متواصلة، تمزق الصفحات وتحمل قصاصات من ملاحظاتنا وخرائطنا بعيدا. كانت فترة ما قبل تقويض الخيمة، قبيل طلوع الشمس، تتميز بكثرة الحركة والجلبة، وذلك أثناء وضع الرحال على الإبل وحزم لفافات الفرش وفحص البوصلات. وعموما، كنا نتوقف لمدة نصف ساعة أو أقل، عند منتصف النهار، وكانت مهمة استكشاف أوراق الكتابة والأقلام في

أعماق عدل الخرج تبدو صعبة جدا. كنا نسير كل يوم حتى غروب الشمس، وبعد الانتهاء من الأعمال الروتينية المختلفة لنصب الخيمة، لا يتبقى سوى القليل من الوقت والطاقة أو الضوء لتدوين أحداث اليوم. ولحسن الحظ، فإن الأحداث كانت تنطبع في أذهاننا بصورة قوية، لا تتطلب سوى بعض المذكرات المكتوبة.

بالاستيقاظ عدة مرات كل ليلة، وبنعاسنا المتقطع خلال ساعات ما قبل الفجر، كان من السهل علينا أن نرى كيف أمكن للبدو أن يصبحوا الفلكيين الكبار في العصور القديمة. كان بهاء السماء يكاد يفوق الوصف. وكما ذكر لنا الإغريق القدامى، كانت النجوم تبدو معلقة في قبة كبيرة، تعلو رؤوسنا بعض الأميال فقط. كانت مجموعة نجوم الدب الأكبر والأصغر والجوزاء وذات الكرسي والثريا، المطموسة في السماء كثيرة الضباب فوق المدن الأمريكية الكبيرة، تكاد ترافقنا في هذا المكان. وحتى التشكيل البديع للبروج، والذي لم يسبق لي أن تبينته حقا في حياتي، فإنه كان واضحا جليا. ومثل الطقوس المتعلقة بالقهوة، كانت النجوم لساعات عديدة من موضوع حديثنا الذي يتلاشى تدريجيا في أطراف الذاكرة وغبطة النوم، ولكنه يبقى عالقا بالوعي بفعل القوة الخالصة للجمال. على هذه الستارة المهيبة التي تدور ببطء، شاهدنا التطور المثير للقمر كل ليلة، يحول المنظر الطبيعي المزعج للنهار، في رفق وهدوء، إلى موطن ساحر.

لقد صوّر القرآنُ الكريمُ الليلَ في بعض أروع صوره، فكان المنظر الطبيعي لليل الجزيرة العربية يتحلى في الآية تلو الأخرى، في قوله تعالى "... والناشطات نشطا، والسابحات سبحا، ... أأنتم أشد خلقا أم

السماء بناها، رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها، متاعا لكم ولأنعامكم"* صدق الله العظيم.

لقد أصبح هذا المشهد اليومي بالنسبة للبدو، محورا للأساطير الشبيهة بتلك التي تعرف عند الإغريق القدامى. ولما كانت أشعة القمر تغمر وجناتنا المحترقة وأعيننا التي وترتها الشمس، كان من السهل علينا أن نفهم حب البدو للقمر وخوفهم من الشمس. وهذه هي أسطورة البدو كما دونها المستكشف التشيكي ألويس موسيل، خلال السنوات الأولى من هذا القرن، ومصدرها قبيلة الرولة التي تمتد أراضيها من مدينة حلب في اتجاه الجنوب عبر الصحراء السورية الكبرى والصحراء السورية الصغرى ورمال النفود إلى حائل.

يذهب موسيل إلى أن الرولة يعتقدون أن القمر يكثف بخار الماء، ويجلب سحب المطر، ويضيء طريقا معتدلة الحرارة لقافلة الصيف. أما الشمس، فهي تمثل العدو، إذ أنها تجفف كل الندى، ليس فقط من على سطح الأرض بل كذلك من النباتات والحيوانات والإنسان أيضا، كما تقتل جميع مظاهر الحياة، وتسهل على العدو الغزو لأنها تسمح له بمجالات واسعة للرؤية وتنتقم من الحيوانات النافقة والموتى بتحويل جثثهم إلى سم قاتل.

عندما عبر شارلز دوفتي الجزيرة العربية على ظهور الإبل، قبل قرن من الزمن، وكان جائعا وقد أخذ منه التعب مأخذا، كانت هذه الليالي الرائعة بمثابة الحافز للتعبير بالفكرة والكلمة على نوع من التصور الذي يتعلق بالكتاب المقدس في العصر الفكتوري.

" تعاقبت الأيام في هذه الحالة من الوهن الذي سببه الجوع ونسيان العالم المتباعد

* سورة النازعات، (الآيات ٢ و ٣) ثم (من الآية ٢٧ إلى الآية ٣٢).

والحياة المستنزفة لقوة الجسم. لقد أصبح الرونق الممتع غاية الإمتاع لليالي الصيف في الجبال وحبتنا اليومية. كما وجدت في الاستلقاء لنيل بعض الراحة بين الأحجار القاسية داكنة اللون، تحت النجوم الواضحة على أرض تعج بالأعداء، استراحة أكثر من تلك التي وجدتها في النوم على الفرش الوثيرة في غرفنا المغلقة. هنا، لا يوجد شيء من مدن العالم، تنقضي ألف سنة تماما مثل ضوء نهار واحد، نعيش في عالم وكأننا لسنا فيه، هذا العالم الذي جعلت الطبيعة الإنسان فيه كلغز لذاته، وزرعت فيه روح شريرة بذور الفناء. وبالنظر إلى ذلك المشهد اللامتناهي، كانت هذه الحياة للجسد الفاني تبدو لي في تراجع، والروح تخفق أجنحتها التي تشبه أجنحة صقر صغير في تلك الظلمة الإلهية. تراءى لي أنني أستطيع أن أعد عشرين شهابا وهي تنتقل بسرعة من مكان إلى آخر خلال كل ساعة من الزمن.

تأملت خلال هذه الأيام والليالي في النُسَّاك القدامى الذين كانوا يدينون بالمسيحية والذين عاشوا في بلدان الصحراء العليا - سوف يبرز طبع بدائي ما في كل عصر، للتجديد في الأرض والحكم عليها، كيف التجأ إليها الكثيرون، طواعية، هربا من تموجات العالم المتعبة، متدبرين الأمر داخليا لإحياء آدم وحواء الأصليين في أرواحهم، وراغبين في مكان طاهر للإقامة والعيش، اعتمادا على خبز القربان وخمره، حيث ينقذون أنفسهم من الخطيئة المنتشرة التي يمكن أن يرتكبوها خلال ما تبقى من صبرهم، ثم يرحلون إلى حياة أفضل. تتأمل الفلسفة الطبيعية في القاعدة والعلاج المناسبين، بينما يعد التنسك الديني جراحة جذرية للتخلص من ميل الإنسان الغريزي إلى الخطيئة، وانسجاما رائعا مع ذلك الكبرياء الخيالي وكآبة الفكر التي ترجع هي الأخرى إلى النفس البشرية التي تسأم من نفسها في هذا العالم، والتي لا تخلو من بعض العيوب حتى خلال حياة قصيرة. إن النفس التي تستطيع التخلص من جميع العادات المربكة ترغب، عندما تكون في حالة غضب، حتى في التخلص من هذا الجسد العدائي الذي هو السبب الوحيد لعلتها. لقد وعد محمد صلعم) بالشفاعة لذلك الجيل من الوجوه ممتقعة اللون من أولئك الذين اتخذوا لأنفسهم سبيلا آخر، الذين يقيمون الصلاة والذين اسودت وجوههم في الصحراء،

والذين يمثلون نوعا من الصيادين الروحانيين العمالقة الذين يسعون في عالم ديني ساحر ليبنوا لأنفسهم سلما إلى الجنة " *.

كانت الليالي تمثل وقتا من البهجة الخالصة، حيث تغيب أشعة الشمس الحادة المؤلمة التي تعمي وتحرق من شدتها عن أعيننا وأنوفنا الموجعة، ويخفف النسيم البارد عطشنا. غير أن ليالي شهر مارس كانت أيضا قارسة البرودة. فكنت أحس بالبرد الشديد، حتى عند ارتداء جميع ملابسي والدخول في كيس النوم، وغالبا ما أستيقظ من شدته. ولولا عباءاتنا التي صنعت من جلد الخروف أو الفرو، ولولا سترنا لكنا بكل تأكيد في حالة من البؤس الشديد. ومع ذلك، لم يكن للبدو فرو، وكانت عباءاتهم ممزقة وفرشهم تتكون غالبا من بطانية واحدة. ربما كان هذا تفسيرا للدافع الذي يجعلهم يستيقظون باكرا جدا كل صباح: لقد كانوا يشعرون ببرد شديد عندما يواصلون الاستلقاء على سطح أرض الصحراء لفترة أطول. لذلك، كان الاختيار بين نوم متقطع والقهوة حول نار المخيم أمرا سهلا.

يحتفظ الليل، بالطبع، بمظاهر خاصة به، مرعبة لجميع الناس. وحتى عند البدو الذين يرون فيه فترة راحة من أتعاب النهار، فإن الليل يمكن أن يكون مصحوبا بالمخاطر والعذاب. وقد أقنعنا الاطلاع على روايات الرحالة، بأن الصحراء كانت تعج بالعقارب والثعابين. ربما كان البرد قد حمانا منها، غير أننا لم نر أي عقرب البتة، وبعض الثعابين فقط. لكن الفكرة المزعجة، المتمثلة في أن يزحف أي منها فوق أكياس النوم، بقيت حلما مرعبا.

كان الأمر المرعب، على الأقل بالنسبة لي، يتمثل في الشاهين المغمّى

* دوتي، الجزء الثاني، ص ٥٢٠ .. ٥٢١.

الذي كان يربض على مجثمه في هدوء وسكينة. يتكون المجثم ذاته من وتد معدني طويل يدق في الرمل، وعمود خشبي وعقدة من الجلد تمسك بها مخالبه الحادة القوية مسكا محكما. تربط رجل الشاهين إلى الوتد المعدني بواسطة قلادة تمنعه من الطيران بعيدا. وأثناء الصيد، يحتفظ البدو بالشاهين مُغمًّى، ولا يزيلون الغماء من على عينيه إلا عند رؤية طريدة. كان شاهيننا، وهو هدية من أمير الرياض، بحجم صقر كبير تقريبا، وهو طائر جشع وشره بطبعه، تمثل رؤيته وهو يمزق قطع اللحم من الكم الجلدي لأحد البدو، مشهدا مريعا. والشيء الذي أثار في نفسي الرعب، هو فكرة الاستيقاظ ليلا والاصطدام غير المقصود بهذا الطائر أو بمجثمه فأكون بذلك هدفا لغضبه الشديد، يقطعه إربا بواسطة مخالبه الحادة. وفي كل ليلة قبل أن أنسحب، كنت أتثبت في المكان الذي كان يستريح فيه الشاهين وأرسمه بدقة في ذهني، مثلما يفعل طفل صغير عندما ينظر إلى جهاز التدفئة لمعرفة المكان الذي تختبئ فيه الروح الشريرة أو التنين.

على الأقل لم يحاول الشاهين أبدا الوصول إلى فراشي، خلافا للحيوان الآخر الذي كان يرافقنا: الكلب السلوقي المدلل جدا، وهو كلب صيد كان الأمير ذاته قد أعارنا إياه. كلب السلوقي هذا – الذي يكون حجمه عادة بين الوبت (وهو كلب صغير نحيل سريع العدو) والهرجع (وهو كلب من الكلاب السلوقية) – هو كلب صيد سريع جدا يستعمله العرب في مطاردة الأرانب وحتى الغزلان. ويتميز كلب السلوقي بتربية جيدة وتوتر شديد، يدلل وينعم تماما مثل الأطفال. وخلافا لمعاملتهم للكلاب الأخرى، التي يعتبرون أنها حيوانات غير نظيفة ، تشمئز منها النفوس، يضع العرب كلب السلوقي في مكانة تقارب مكانة الخيول عندهم. لقد كانت لكلب السلوقي حرية تامة في

التجول حول المخيم، وكانت تقدم له أفضل الحصص من وجبات طعامنا.

وللبدو ولع شديد بالصيد. ربما يرجع ذلك جزئيا إلى حرمانهم الشديد من مادة البروتين، الذي يشتكي منه كل البدو. ولكن، وأكثر من ذلك، فهو يعد طريقة أخرى للترويح عن النفس من القلق وشكلا بديلا لحالة الحرب. فتراهم يتركون أعمالهم مهما كانت، أو أي شيء آخر هم بصدد التمتع به، لا لسبب غير ترويع أرنب بري أو غزالة أو طائر الحبارى. واليوم، توجد احتمالات ضئيلة لمشاهدة أي من هذه الكائنات في الصحراء، ولكن يبدو أن هذه الحقيقة لا تقلص من حماس البدو إلا قليلا.

وباعتبارنا ضيوف الملك، وبعد أن ظهرنا على الصفحات الأولى للصحف الصادرة في الجزيرة العربية في بداية رحلتنا - كان يبدو أن الجزيرة العربية تنسج على منوال الكتاب الأمريكي للعلاقات العامة، الذي جعل من المستكشفين أبطالا مشاهير، حتى قبل أن يبدؤوا استكشافهم - وجدنا على امتداد طريقنا، أنه تم إعلام مسؤولي الحكومة، بطريقة مفصلة، ببرنامجنا، وأنهم كانوا جد منشغلين باستعدادهم لتقديم ما يستوجبه كرم الضيافة، حتى يكونوا جديرين بالتقدير. و لم يكن سخاؤهم محرجا لنا فحسب، بل تعدى ذلك إلى الإنذار بإفساد مغامرتنا. أعتقد أن هذا السلوك كان مشكلة جميع الرحالة، بما فيهم أولئك الذين أقنعوا أنفسهم بالسفر متنكرين. تتنقل الأخبار في الصحراء بسرعة مفزعة، ويسعى الرحال، وقد حرموا من وجود ما يكفي من أسباب الالتهاء و الإثارة التي توفرها الحياة في المدن، بشوق إلى الحصول على كل ما أمكن من تفاصيل حول حياة الآخرين.

وإني أشك في أن البعض من أسلافنا، حتى وإن سافروا متنكرين، قد نجحوا أكثر منا في النجاة من الانتباه. وأحسن مثال على ذلك هو حاكم مدينة مجمعه.

بعد إشعاره بالطريق المرسومة لرحلتنا، والموعد المحتمل لوصولنا، جعل محمد بن عبد الله سديري يرصدنا. لقد برهن الأمير محمد على أنه ممثل عصري للعادة الشعبية العربية، التي يتفحص بموجبها البدو الأفق بحثا عن الضيوف ويبتهجون بتكريمهم. تروي القصة أن أحد العرب القدامى، يطلق عليه اسم حاتم من قبيلة طيء، كان عند سماعه لذئب يعوي خلال الليل، يخرج خروفا صغيرا خوفا من أن يقال إن ضيفا كان في المناطق المجاورة له ولم يتم مده بحاجته. وعند وصولنا إلى مجمعه، كنا جياعا مثل الذئاب، وكان محمد سليلا فاضلا لحاتم. ولما علم من خيالته بوصول قافلة عتيقة، خرج على متن سيارته لملاقاتنا.

نزل من سيارته واتجه نحونا وقد تولته الدهشة لرؤيتنا ونحن نجلس على ظهور إبلنا وعلامات الرضا تبدو علينا، تحت شمس منتصف النهار، ووسط عجاجة من الغبار المتطاير. هل كنا سنشرفه بزيارة إلى مدينته؟ اعتذرت لعدم قبول دعوته اللطيفة، ربما بشيء من الغلظة في تلك الظروف، قائلا إن هدفنا كان البقاء بعيدا عن المدن. ومرة أخرى، حاولت أن أشرح الرحلة بطريقة موجزة إلى أبعد حد، وأن أغطي طريقة الرد الغربية السريعة والمقتضبة، بشرح فيه أكثر بهرجة. ضحك من كلامي هذا بأدب، وقال بما أنه يجب علينا تناول طعام الغداء، على أية حال، فإنه قد جاء به معه. هل كنا سننزل من على ظهور إبلنا إذا وعدنا بأن لا يستدرجنا داخل سيارته؟ ضحكنا. وبعد أن جلسنا في ظل سيارته، وجدنا أنفسنا أمام وليمة من التمر والزيتون والخبز والبطيخ

الأخضر المخلل ونوع من العجين الذي صنع من البيض والطماطم. ومثل ذئب حاتم، جعلنا نلتهم هذا الطعام. لقد وضع الطعم بصفة جيدة وشبكت الصنارة، وعندما أصر الحاكم على مرافقتنا له لزيارة مجمعه، أرحنا ضمائرنا بتغطية الدعوة بالاستحمام والملابس الجديدة وتناول طعام العشاء، انتظارا للقيام بزيارة: إلى المدارس والحصون القديمة والواحات. وعند إدراكه لحيرتنا أمام خياريْ رغبتنا في البقاء في الصحراء من ناحية وانشغالنا بأن نحافظ على قواعد الأدب من ناحية أخرى، واصل الحاكم سعيه للتخفيف من العبء الذي كنا نشعر به وقال: "حسنا! أقبل رفضكم لمرافقتي إلى بيتي لقضاء هذه الليلة، ولكن بشرطين: أولهما أن ترافقوني لزيارة مدينتي حتى لا أؤخر برنامجكم، وثانيهما أن آتيكم بطعام العشاء إلى الصحراء". وعندما أجبت بأن السفر قد أنهكنا، وأخذ منا الوسخ مأخذا قال:"عندي ثياب لكم" . كان الإغراء شديدا. وبشيء من التردد المفتعل أكثر من أن يكون حقيقيا، رافقناه لزيارة مجمعه.

تقع مجمعة، وهي مدينة قديمة يعني اسمها حرفيا: نقطة الالتقاء، خارج طريق الرحلة بقليل. وقد شيدت أكثر البنايات التي تحيط بالواحة من آجر الطين، ولها أسقف ذات شرفات مناسبة للدفاع ضد المغيرين. وجدنا المدينة تكاد تكون تماما مثلما وصفها وليام بلجريف سنة ١٨٦٢، عندما أدى زيارة إلى أحد أسلاف الحاكم الحالي. وكانت الحدائق وقنوات الري محاطة بجدران تشبه الحصون.

وفي مجمعه، ترك فينا الأمير محمد أثرا عميقا بأنه شاب متفانٍ، له شعور عميق بالوطنية. لقد نجح بإمكانيات محدودة ومدينة ليست إلا نادرا

مقصدا للزوار في الجزيرة العربية، في تعبيد ثلاث من طرقاتها خلال السنة المنصرمة. وباعتزاز واضح، قادنا إلى المستشفى الجديد الذي كان قد بناه. ومثل الأغلبية من مواطنيه، يؤمن الأمير بالتعليم إيمانا راسخا، ويؤكد على أن التعليم وليس البترول هو مستقبل الجزيرة العربية. غير أنه كان يهتم بالسياسات الدقيقة للتنمية أكثر من بعض المسؤولين الآخرين. وبإدراك عميق بأن المواطنين قد يحسون بمساعدة الدولة كدفع قوي، سعى بإحساس مرهف إلى إيجاد طرق للتخفيف من وقعها. ومن الطبيعي أنه كان من الأهمية بمكان أن تذهب الفتيات إلى المدارس وإلا، فكيف يمكن للجزيرة العربية الجديدة أن تكون لها عائلة متعلمة؟ ولكن، ولجلب الفتيات إلى المدارس بدون إحداث تغيير عنيف في حياتهن العائلية الحالية، اتخذ الأمير الإجراءات اللازمة لتوفير حافلات تنقلهن في أمان وبأدب إلى منازلهن.

وقد كان له بدون شك حنين لجدران المدينة الكبيرة القديمة التي بنيت من الطين وزودت بشرفات معدة لإطلاق النار، أقل بكثير من حنيننا إليها وكان بالتأكيد أكثر حبا لزخارف المدينة، ولكنه كان يملك أيضا إدراكا متبصرا للمستطاع وحسّاً مرهفا لطريقة العيش التي كانت بصدد الاندثار. وقد انعكس هذا بوضوح على تصميم وتأثيث بيته.

إذ يحيط بالمنزل جدار قديم، غير أنه تم فتح مدخل جديد وسطه، لتمكين العربات والسيارات من دخول ساحة كانت قد آوت الخيول والحمير والإبل في وقت مضى. وعلى مقربة من المدخل، يوجد بيت للضيافة خصص لأبناء القبائل الفقراء، والمعوزين الآخرين الذين قد يسعون إلى الحصول على حمايته. قديما، كانوا يستطيعون الوصول مباشرة إلى منزله، ولكن اليوم، فقد تم إعداد مكان منفصل لهم. كان المنزل ذاته، خليطا من القديم والجديد، ذلك أن الجانب الأمامي منه،

وهو الجزء العمومي، ينقسم إلى غرفة جلوس واسعة، محاطة من كل جوانبها بمقاعد منجدة طويلة، وأرائك تكون المجلس، وغرفة على هيئة المكتب المنزلي للأمير، وغرفة حمام جديدة. كانت غرفة الحمام تحتوي على تأثيث عصري ولكن كان ينبغي نقل الماء إليها بواسطة الدلو. وأما بقية المنزل فهو الحرم. وللأسف فإنه ليس من الحرم الذي تصوره أشرطة هوليوود في شيء. إذ هو ببساطة، المكان المخصص للعائلة، غرف نوم وحمامات ومطبخ.

على تلك الحالة من الوسخ وقد ألحق بنا السفر تعبا وإنهاكا شديدين، جلسنا أولا لشرب القهوة وتناول شيء من التمر مع الحاكم وابنه الأصغر في غرفة الجلوس. وبعد فاصلة زمنية مناسبة، تسربنا إلى غرفة الحمام الجديدة لخلع عباءاتنا القديمة. سكبت المغرفة تلو الأخرى من الماء الذي يتصاعد بخاره فوق رأسي وكتفي. وبعد الانتهاء، كانت كومة صغيرة من الرمل قد تجمعت عند رجلي. وعندما دخلت إلى مكتب الأمير، وجدت ملابسي الجديدة. ففي المكان الذي كنت قد وضعت فيه ملابسي، كانت توجد جميع الملابس التي يمكن أن نستعملها من أغطية جديدة للرأس و كوفيات وعقالات، طويت بعناية ورتبت لتكون كدسا صغيرا. لا يتخذ الكثير من البدو لباسا لأرجلهم، ويستعمل أغلبهم صنادل من البلاستيك أو المطاط. يشكل هذا مع حزام الرصاص، الذي لا يخلو منه مكان، مجموعة ملابس الشخص الخاصة. تلبس الثياب ليلا و نهارا، وتكاد لا تخلع أبدا حتى يحين الوقت للتخلي عنها. إن وجود الماء أندر من أن يستعمل في غسلها، كما أن ليالي الصحراء شديدة البرودة، الشيء الذي يتطلب من الإنسان أن يرتدي كل ما يملك من الثياب القديمة والجديدة.

تتحلى ديمقراطية البدو في لباسهم. وليس ذلك فقط لأنه لا توجد مناسبة واضحة تتطلب ارتداء شكل جديد، بل أيضا لأن تفصيل الثياب يجعل عباءة شخص ما مناسبة ليرتديها أي من الآخرين جميعا. كما يكاد لا يوجد أي شيء يميز الغني عن الفقير. وفي آخر الأمر، وبما أنه لا تظل مكشوفة من المرء سوى الأرجل والأيدي والوجه، فإنه لابد أن تلاحظ علامات النبل فيها، وليس في الأشياء التي يمكن ابتياعها مقابل المال.

يتراءى للمرء أحيانا، أن تجربة ما كانت قد حصلت من ذي قبل. وهذا ما شعرت به في مجمعه، بيد أنني لم أتمكن من تذكر السبب في ذلك. وبعد فترة طويلة، أعدت قراءة رواية بلجريف لرحلته. كان أهم حدث يتمثل في البحث عن التبغ – ففي سنة ١٨٦٢، كان ذلك في الجزيرة العربية يشبه إلى حد كبير، طلب الأفيون من الشرطة في نيويورك اليوم. وكان عنوانا تعرف به الأحوال، أن الأمير محمد، عند رؤيته لغليون بيل مارز، وعندما تفطن إلى أن التبغ يكاد ينفذ منه، أحضر كمية جديدة مباشرة من أحسن باعة التبغ في لندن.

كانت الهدية المتمثلة في الملابس، مزيدا من الكرم تجاهنا، ونوعا من التعليق حول التباين بين الصحراء والمجتمع المصنع. لقد أهدى الأمير محمد لكل منا ثوبا جديدا، وهو اللباس الرئيسي في الصحراء. يجعل تفصيل الثوب ذاته على شكل لباس نوم عتيق للرجل، مسألة المقاس أمرا سهلا. ولم يكن الأمر تماما على تلك الصورة بأن مقاس الواحد من الرجال يناسب جميع الآخرين، ولكن بعد إجراء تغييرات طفيفة، يصبح الأمر كذلك. وبما أن الثوب كان بسيطا، فإنه لم يكن باهظ الثمن

عموما. وكما اكتشفنا أثناء رحلتنا، فإن المضيف غالبا ما يوفر ملابس جديدة لضيوفه. وكم يصبح التباين بين المجتمعات واضحا، خاصة عندما يأخذ المرء بعين الاعتبار المشاكل التي قد تنشأ في مجتمعنا نحن، إذا اتبعنا العادة ذاتها. عند ذلك، ينبغي على المرء أن يحتفظ بعشرات من البدل والملابس ذات المقاسات المختلفة الأمر الذي يتسبب دون شك في تكاليف باهظة.

ربما تتضح هاته المسألة أكثر بالتفكير فيها ثانية: لا يمكن للمرء أن يستعمل أو ينقل خزانة ملآنة بالملابس. ثم إنه يمكن الاحتفاظ بثوب واحد لعدة أشهر، ولم تكن هناك مشكلة تتعلق بامتلاك ثوب أسود أو ثوب رمادي أوثوب بني، ومع كل واحد منها ما يناسبه من الأقمصة وأربطة العنق والجوارب والأحذية. وهكذا، فإن كرم مضيفينا البسيط والعملي ومتواضع الثمن إلى حد ما، ما كان ليجعلنا بدورنا قادرين على أن نكون كرماء فحسب، بل أجبرنا فعلا على أن نكون كذلك. ما كنا نستطيع أن نحتفظ بالهدايا المتلاحقة، أو أن نحملها معنا، ولذلك أعطيناها إلى رفاقنا الأكثر حاجة إليها. وبحلول آخر ليلة لنا في الجزيرة العربية، كان كرم مضيفينا قد مكننا من كساء جماعتنا من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين.

كان هذا المكان مصدرا للكنية التي أطلقت على بيل مارز. ذلك أن اسم بيل يوحي، بالنسبة للأذن العربية، برنين غريب ويصبح عند نطقه بواسطة الفم العربي: بول. بل ويتصف هذا المقطع الهجائي الوحيد والقصير الذي تحتويه الكلمة حينئذ، بالمباغتة وحتى بالشدة. وهنالك، وسط الجزيرة العربية مترامية الأطراف، تم حل المشكلة التي تتعلق بما قد يطلقه رفاقنا على بيل، وذلك بصفة غير مباشرة: من الصين. فعند

ارتدائي لقميص داخلي كـان مضيفي قد منحني إياه، نظرت إلى العلامة المميزة لـه، وقرأت: "صنع في شـانغاي، بول المضـاعف، أجود قطن". البـول المضـاعف – بلبل. ذلك هو الاسـم المناسـب لبيل. والبلبل هو الاســم العربي للعندليب. ربمـا لم تصل الصـورة إلى الذهن المشـوش والشارد لزميلي الذي عَشَّته آلة التصوير. ولكن بصفته عضوا سابقا في نـادي الغناء بهارفارد، كان منشغلا، بطريقـة غير مناسبة إلى حد ما أثناء سـيرنا في الصحـراء، بإنشـاد:"أهزوجـة نوتيـة الفولجا" . كذلـك كان الأمر، وممـا بعث بهجـة شـديدة في نفوس رفاقنـا، أصبح بيـل، ومثلما يسمى، بول المضاعف، بلبل، أو عندليب الجزيرة العربية.

كانت أسماؤنا مشكلة بالنسبة لرفاقنا البدو، تماما مثلما كانت أسماؤهم مشـكلة بالنسبة لغير المتكلم باللغـة العربية. لما كنت طفلا صغيرا، كنت أرتجف عند التفكير في أنني قد أحمل اسم جدي من الأم، أديسون. كان يبدو لي أن هـذا الاسـم طويل جدا، وكنـت أخشـى أن يجعلني عرضـة لسـخرية التلاميذ. وحتى اسـم بيلي، الذي كـانوا يطلقونه علي آنذاك، كـان وصمـة عـار. ويكـاد تدرجي إلى الكنيـة بيل، وهـو الإسـم الذي يوحي بالرجولة، بصفـة لا تقارن، يعود إلى زمن طقوس الانتقال، عندما بلغت الحاديـة أو الثانية عشرة مـن عمري. ويحتوي اسم بيل على القدر اللازم من المجهوليـة التي تتناسـب مع ذوق الصبي: كان كل فصل يحتوي على عدد كبـير منه. غـير أن بيل كـان اسما يصعب نطقـه جدا بالنسـبة للعربي، كما كان وجود رجلين يحملان الإسـم نفسه ويسافران معا عبر الجزيرة العربية الوسطى، أمرا عسيرا بالنسبة لرفاقنا.

بعد مناقشة طويلة، تم الاتفاق على تسميتي، حسب التقاليد العربية، أبا ابني جـورج. وهكذا أصبحت (أبو جورج). وبما أن بيل كان أعزبا في

ذلك الوقت، فإنه كان علينا أن نكتفي بالكنية التي أطلقت عليه. كانت أسماء رفاقنا مثيرة، وكان هويمل - الجمل الصغير غير المقيد، الذي له حرية الشرود - أكثر الأسماء بداوة. أما الأسماء الأخرى، فكانت متمدنة إلى حد ما. ولو عدنا قرناً إلى الوراء، فإننا ربما لا نجد أسماء مثل زامل وراشد وسلطان.

في كتابه المختصر الجامع المرموق، الذي يعنى تقريبا بكل شيء يتعلق بالحياة البدوية، يمدنا دجون ليويس بوركهارد بمعلومات حول الأسماء المستعملة حوالي سنة ١٨٠٠.

" يطلق الإسم على المولود حال ولادته. ويشتق الإسم من أي حادثة تافهة أو من أي شيء كان قد طبع ذهن الأم، أو أي امرأة تحضر ولادة الطفل. وهكذا، فإنه إذا صادف أن يكون الكلب على مقربة من هذه المناسبة، فإن الطفل ربما يطلق عليه اسم كلاب (من كلب)؛ أو إذا جاء المخاض ليلا، إلى حدود انبلاج الفجر، فإن الإسم الذي يطلق على الطفل ربما يكون ضويحي (من ضحو). وخلافا لمحمد، وهو اسم ليس بقليل الانتشار، فإن الأسماء الحقيقية عند المسلمين مثل حسن، علي، مصطفى، فاطمة أو عائشة، قلما توجد عند البدو الأصليين. وعلاوة على اسمه الخاص، فإن كل عربي ينادى باسم أبيه واسم القبيلة واسم الجد الأول لعائلته. وهكذا فإنهم يقولون:" قدوة بن غيان الشامسي" أي " قدوة، ولد غيان، من قبيلة الشامسي "*.

وفي وقت لاحق خلال المساء، بعد مدة طويلة من التحاقنا برفاقنا على ظهور الإبل، وصل الأمير ومعه عربة ملأى بأتباعه وأخرى بالغذاء. وبعد أن نصب رفاقنا خيمتي السفر بعناية، ولبسوا أفضل ما يملكون من الثياب، استقبلوا بافتخار أصحاب المقام الرفيع من الزائرين ورحبوا بهم.

كانت أمسية على الطريقة التقليدية، استمتع خلالها كل منا استمتاعا

*مذكرات حول البدو والوهابيين (لندن، ١٨٣١) الجزء الأول، ص ٩٧

كثيرا، حيث تقهوينا - كما يقول البدو - وتناولنا طيب الطعام وتجاذبنا أطراف الحديث، ثم توجت الأمسية بتبادل الأقاصيص. تدعو نار المخيم كل شخص إلى الاقتراب من الآخرين، ذلك أن الجلوس بعيدا عن بعضنا البعض أمر صعب، لأنه لا يوجد في غير ذلك المكان سوى الظلام والبرد ولا توجد القهوة. جلس الرجال متراصين في حلقة حول النار للتنعم بدفئها، وراحوا يحدقون في وجوه بعضهم من خلال النار أو فوق الجمرات المتوهجة، تكاد تنومهم رواية الأقاصيص. وغالبا ما كنا نلاحظ الاحترام المكتوم اللطيف الذي كان يعامل به كل رجل من طرف الآخرين، حتى أقل المجموعة ذكاء أو فصاحة. كان فن الاستماع الذي أصبح متجاهلا قد بلغ أصفى حالاته، وقل التركيز على البراعة الفنية للراوي وانعدمت المنافسة بطريق المزاح لجلب الاهتمام، بل كان عدد من الرجال يروون القصص ببساطة وبصورة طبيعية. ونادرا ما كانت الروايات تتعلق بأعمالهم البطولية الخاصة، حيث لا أتذكر سوى قصتين ورد فيهما اللفظ "أنا" بصفة بارزة، وغالبا ما كانت القصص تتعلق"بعظيم الشأن".

قبيل العشاء بقليل، جلست مع الأمير وعدد من الرجال الآخرين لنبحث في مسائل تخص الصحراء، ونتبادل أبيات الشعر ونتحدث حول تطور مقاطعته. وبمهارة المضيف في معرض الآثار الفنية أو رئيس حلقة دراسية، أدخل الأمير ضيوفه وأتباعه في الحديث. وخلال فترة سكون خاطفة، أخذ رجل مُسِن ينشد بصوت عال ومسيطر ولكنه رقيق إلى حد ما، في نوع من الشعر التافه ومختل الوزن، قصة رومنسية تعود إلى القرون الوسطى. سكت الجميع والتفتنا إليه. وعندما سأل الأمير أتباعه عن هوية الرجل المسن، حرك كل واحد رأسه يمينا و يسارا. لم يكن أحد قد رآه من ذي قبل. كانت شخصية الرجل والظروف المحيطة

بظهوره عند الخيمة لقول الشعر مماثلة تماما للمدار المتعارف عليه لقصص السجع العربية الشهيرة في القرون الوسطى: مقامات الهمذاني، حتى أنني لم أكن أصدق ما سمعت.

تتصف الشخصية الرئيسية للهمذاني بأنه: "مرتجل سريع البديهة لا يتورع عن شيء، يتجول من مكان إلى آخر ويعيش من الهدايا التي يجود بها عليه الكرماء وأصحاب الذوق، مقابل استعراض ما تجود به قريحته..." وكان الرجل المسن الذي رأيناه تشخيصا مطابقا تماما لشخصية الهمذاني التي عرفت بنظم وقول الشعر للحصول على القوت في جلسات مماثلة لجلسة تلك الليلة.

وبعد بضع دقائق، توقف الصوت المرتعش للرجل فجأة. لقد ألقى ما كان يعتقد أنه قدر كافٍ للفوز بالعشاء، ولذلك توقف ومضى لاتخاذ مكان أقرب من الموقد وشرب القهوة وانتظار العشاء الذي كان حتما يشعر أنه أصبح الآن حقا من حقوقه. شعرت بالبهجة لملاحظتي عدم اعتراض أحد على حقه. وبعد العشاء، بينما كنت أرجو أن أمسك به ليروي لي حكايته، كان قد اختفى في ظلام الليل، مثل شخصية الهمذاني.

إن أصناف الإهانة والتأبه عند البدو حقيقة ملموسة، غير أنها غالبا ما تختلف عن تلك التي تعرف عندنا. خلال السنوات الأولى من هذا القرن - "القرن" الذي بدأ باكتشاف البترول - كانت قصة تروى وتتعلق بصديق للملك ابن سعود، كان قد وصل إلى مكاتب شركة البترول راجلا، وهو يرتدي ثيابا بالية وتبدو عليه كل ملامح الفقر. كان هذا الرجل يمسك بيده قطعة صغيرة من الورق كتب عليها:"ادفعوا لهذا الرجل مليون دولار، عبد العزيز ابن سعود". وكما ذكر أحد

المسؤولين بشركة البترول:"لو كنت ذاهبا لأقبض مليون دولار من تشايس منهاتن بنك، لارتديت دون شك أحسن بدلة أملكها، غير أنه بكل تأكيد، لم يخطر ببال ذلك الرجل أن لباسه أو مظهره كانت لهما علاقة ما بكرامته. كان كل ذلك يقاس بمعايير أخرى، مثل نسبه وإنجازاته الشخصية، وليس بلون بدلته أو طريقة تصفيف شعره".

واليوم، فإن هذا الأمر حقيقة ملموسة مثلما كان، عندما كتب دجون ليويس بوركهارد:

" .... يمكن أن يقال بصدق، إن الثروة وحدها لا تعطي البدوي أي قيمة بين عشيرته. ذلك أن الرجل الفقير، إذا كان كريما وخيرا حسب ما تسمح به إمكانياته، لا يتوانى في ذبح خروف عندما يحل به غريب، ويحضر القهوة إلى جميع ضيوفه ويمسك دائما بكيس التبغ الذي يملكه استعدادا لتعمير غلايين أصدقائه ويقتسم أي غنيمة يحصل عليها مع الفقراء من عشيرته، ويضحي بآخر فلس يملكه لتكريم ضيفه أو إغاثة المحتاجين، فإنه يحظى بتقدير ونفوذ بين أفراد قبيلته، أكثر بكثير من الثري البخيل الذي يلاقي الضيف ببرودة ويترك أصدقاءه الفقراء يموتون جوعا. إن الرجل الثري لا يحصل من وراء الثروة على أي رضا أخلص مما يمكن أن يتمتع به أفقر فرد في القبيلة. يعيش أثرى الشيوخ تماما مثلما يعيش أقل قومه شأنا: إذ يأكل كلاهما كل يوم من الطعام نفسه وبالقدر نفسه ولا يتمتع أبدا بشيء متميز إلا بمناسبة قدوم غريب عندما تكون خيمة المضيف مفتوحة أمام جميع أصدقائه. كما يرتدي كلاهما ذات العباءة البالية وذات المشلاخ. وتتمثل المتعة الرئيسية التي يمكن أن ينعم بها كبير القوم في امتلاكه لفرس سريع والارتياح لرؤية زوجته وبناته يرتدين ثيابا أكثر أناقة من تلك التي ترتديها الإناث الأخريات في ذلك المخيم.

كما أن الإفلاس، بالمعنى المتعارف عليه، غير معروف عند العرب. فترى البدوي يضيع ممتلكاته إما عن طريق العدو (وعندها يقال إنه وخاذ حلال)، أو إنه ينفقها في

السخاء المسرف. وفي هذه الحالة الأخيرة، يمدح من طرف جميع أفراد القبيلة. وبما أن السخي من العرب غالبا ما يكون متشبعا بفضائل بدوية أخرى، فهو نادرا ما يفشل في استرجاع ما أضاعه بكرم نفس، عند نفحة من حسن الحظ. "*

ومع ذلك، فإن العديد من البدو الذين التقيناهم كانوا من المتأبهين والبخلاء الذين كانت الظاهرتان مرتبطتين ببعضهما في أذهانهم بصورة وثيقة. جرت العادة، كل مساء حول نار المخيم، أن تناقش فضائل، أي سخاء الرجال من ذوي الشأن، فكانوا يقولون:"انتظروا حتى نزور فلانا. سوف يغدق علينا الهدايا. إنه رجل ذو شأن. إنه ابن عم الملك، عم فلان، أخو فلان". كما يتم اختيار التصاهر والولاء بعناية، لأنهما ينعكسان على الفرد تماما مثلما ينعكس اختيار فارس القرون الوسطى لسيده الإقطاعي. ويرجع حصول التابع على صفته الاعتبارية، إلى حد بعيد إلى مولاه، وعادة ما ترى موضوع الحديث يدور حول الفضائل الحقيقية أو المفترضة للراعي، ونادرا ما يهتمون بالصفات أو الأفعال الشخصية كما سبق أن ذكرت. وفي حقيقة الأمر، ومهما كانت الروايات التي تقص، فإنها لا تكاد تعنى بالأفعال إلا قليلا، وغالبا ما تتعلق بما قال الشخص لا بما فعل نتيجة لسلسلة ما من الأحداث. ولم يكن التركيز على الكلام، لا على الفعل، أوضح في أي وقت من الأوقات مما كان عليه عندما توجهت المجموعة إلى الشعر.

والشعر العربي، كما سبق أن ذكرت، هو فن صعب، إذ يتطلب سنوات عديدة من الدراسة ولا يمكن الخوض فيه بسهولة.

غير أنه في الصحراء، مثلما هي الحال في الحانات الرائقة للفنادق على الجبال اللبنانية، يستمتع الرجال بتبادل أبيات الشعر مع بعضهم البعض. وتشبه" المناظرة " الشعرية إلى حد ما، لعبة شيكسبير التي أصبحت، منذ

---

* بوركهارد، الجزء الأول، ص ٧٢، ٧٣.

بضع سنوات، منتشرة في الولايات المتحدة الأمريكية. والهدف منها ليس " الربح " بل أن يتم ذكر الأبيات وتدريجيا، استنزاف معلومات المجموعة. يبدأ أحدهم بذكر "حرف اللام"، ثم يذكر كل واحد من المجموعة، من الذين يستطيعون ذلك، بيتا ينتهي بهذا الحرف. ولا يتم تسجيل نقاط، كما لا توجد منافسة بين أفراد المجموعة، ذلك أن الهدف يتمثل، بكل بساطة، في تمكين كل فرد من سماع الشعر الذي ينتهي بتلك القافية والذي يدور بالبال. وعندما يتعذر على جميع أفراد المجموعة تذكر بيت ينتهي بحرف اللام، يذكر أحدهم حرفا آخر لتبدأ اللعبة من جديد. وفي واقع الأمر، فإن هذا يشبه عدة مظاهر من الحياة حول نار المخيم أو على الراحلة وهو ببساطة، نوع من قضاء الوقت في المرح.

بعد الفتوحات العربية بفترة طويلة، وبعد موت الشعراء الجاهليين المشاهير بفترة أطول، كان العلماء في المراكز الحضرية يخشون من فقدان تلك المعرفة الجيدة باللغة العربية التي تعتبر السبيل الوحيد الذي يمكنهم من فهم المعنى الدقيق للرسالة الإلهية، كما أنزلت باللغة العربية على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ودونت في القرآن. وكان الاعتقاد السائد أن " أفصح " لهجات اللغة العربية، هي تلك اللهجة النقية المتداولة في الصحراء، والتي لم تتعرض للتحريف بتأثير اللهجات الأجنبية. كما أنها اللغة التي كانت، في أوجها التقليدي، لغة الشعراء القدامى. إننا مدينون لمسلمي هذه المدن، الذين لم يكن عدد كبير منهم من العرب إطلاقا، بسبب منشوراتهم ومجموعاتهم الشعرية. وبدونهم، فإننا ربما كنا نجهل كل شيء حول هذا الجزءالجيد من الأدب.

غير أن أهل المدن بطبيعة الحال، لم يعرفوا و لم يفهموا و لم يولوا عناية

للحياة في الصحراء، حيث كان هدفهم نفعيا بصورة خالصة. وكان الشعر بالنسبة إليهم وسيلة لا غاية في حد ذاته: ذلك أنهم كانوا يريدون إعداد قواميس وكتب نحو بالاعتماد عليه. ومن القواميس ذاتها، نلاحظ إلى أي مدى تم التنقيب في الشعر والتجربة في الصحراء، لاستخراج المعاني الدقيقة لألفاظ مازالت غامضة. وأثناء بحث المرء عن لفظ في معجم عربي، فإنه غالبا ما يجد المعنى المطلوب، يدعمه استشهاد من البيت ذاته الذي كان يحاول فهمه. وإذا سعيت إلى معرفة كيفية شرح بيت يتوقف معناه على كلمة معينة، فإنه يتجلى أن معنى الكلمة بدوره يتوقف على البيت. إن دائرية موضع البحث تكتسي صعوبة أقل بالنسبة لمن يريد تأويل القرآن، ولكنها تشكل بالتأكيد مشكلة عويصة للنقد الأدبي للشعر.

وفي غير ذلك، وربما حتى في مجالات أكثر، يتعرض المرء إلى لفظ مثل: رهط، الذي يرد معناه في المعجم الهام الذي ترجمه المستشرق الفيكتوري أ.و. لاين على أنه:" قوم الرجل وقبيلته، ممن تربطهم به صلة دموية: ويقل عدد الرجال عن العشرة وليس فيهم امرأة، أو يتراوح عددهم بين السبعة والعشرة، وفي بعض الأحيان يكون أكثر بقليل ... أو من ثلاثة إلى عشرة ... أو أكثر من عشرة إلى حدود الأربعين".

انظر من خلال النص، وستستحضر مباشرة صورة ممتعة ومضحكة لعالم تقي من بغداد وهو يجلس صابرا، رغم استكباره وعدم ارتياحه، أمام نار المخيم مع مجموعة من البدو الفقراء الأميين، الذين يرتدون ثيابا بالية وسخة، ساعيا إلى تنوير فكره بواسطتهم. يسألهم:"ما هو الرهط؟". فينظر البدو إلى بعضهم بعضا، وقد أغاظتهم فكرة أن يكون هذا المدني المخادع ربما يسخر منهم خلسة. وفي آخر الأمر، يتكلم

أحدهم ويقول:"مجموعة من الرجال". فيفحص العالم المدني الأمر:"رجال، وليس نساء؟". فيجيب البدوي:"لا، رجال فقط". "كم رجلا؟" "آه، عدد قليل". "حسنا، كم تقول؟ ثلاثة؟". "لا، أكثر من ذلك". وإلى هذا الحد، تصبح المناقشة، بدون شك، عامة. وبما أن البدو يناقشون كل شيء يتصوره العقل، فإنهم يقعون في المجادلة بسبب الضجر، ليذكر كل واحد منهم بصوت مرتفع وبحماس شديد أي شيء يتبادر إلى ذهنه. "أقول سبعة". "لا، لقد كان رهط فلان يتكون من عشرة على الأقل". وهكذا يتواصل الحوار إلى أن يحدث شيء أكثرأهمية يسترعي انتباه البدو الذين لا يقيدهم الاهتمام بالدقة، حيث أنهم كانوا بكل بساطة يقضون أمسية ممتعة وهم يتحدثون إلى ضيفهم المزعج، الذي اكتسب ثقافته من صحائف الكتب فقط مع افتقاره للحكمة العلمية. وبالنسبة للعالم الحضري، كان هذا عملا جديا تماما مثلما كانت الحكايات العرضية أو النوادر التي يرويها الهنود الأمريكيون للخبير بعلم الإنسان الذي يزورهم. كان كل شيء يدون كما يجب وبكامل الجدية، ويجمع ويصنف ويطبع، وأهم من ذلك كله، يصدق به ويعتمد عليه كتاب لاحقون. وهكذا أصبحت كلمة رهط تعني فعلا في اللغة العربية التي صارت متداولة فيما بعد، ما ذكر في المعجم بالتدقيق.

وفي آخر الأمر، وبعد فناجين لا يحصى عددها من القهوة، وقف الحاكم وجماعته وانصرفوا بدون عبارات توديع متريثة أكثر مما ينبغي وبدون حسرة عابرة. لم تكن هناك أوانٍ للغسيل، ولا أثاث يعاد ترتيبه ولا منفضة سجائر تفرغ، بل القمر والنجوم وجمال الليل فحسب.

استيقظنا، أنا وبيل، باكرا ونحن نشعر إلى حد ما بالذنب من جراء انغماسنا في الرفاهية التي توفرها حياة المدينة وتناولنا لكميات هائلة من الطعام. .كنا منشغلي البال بالانطلاق في طريقنا. تمثل الرحلة، في الوقت ذاته، نوعا من العمل المبهر الذي يدل على القوة وتمثل كذلك محاولة لإحياء وعيش العصور القديمة، مثالنا في ذلك ما عاشه الشاعر لبيد. وإذا أردنا أن نعيش تلك التجربة، فمن الواضح أنه كان علينا أن نحاول، بالقدر الذي نستطيع، الابتعاد عن الأشياء التي لم يعشها. لم يكن غرضنا التلذذ بالألم، بل كنا نحاول أن نقترب من نمط حياة معين. كان رفاقنا يستطيعون أن يكونوا سعداء بالبقاء في مجمعه، يتناولون طعام العشاء على طاولة الأمير طوال ما تبقى من حياتهم، و لم تكن لديهم أي رغبة في الرجوع إلى الصحراء، معتبرين بوضوح أن الرحلة تجربة جنونية. وخلافا لنا نحن، لم يكن لديهم اختيار، حيث كانت الحكومة قد عينتهم لمرافقتنا ولذلك قبلوا مصيرهم بكرامة ورحلوا. واصلنا السير في ذلك اليوم وقطعنا مسافة خمسين ميلا في زمن يقارب الثلاث عشرة ساعة في اتجاه الغرب تحت شمس ساطعة.

تختلف الآراء حول المسافة التي يمكن للإبل أن تقطعها، كما تختلف روايات الرحالة بصورة كبيرة. وتعتمد الطريقة العادية التي يقدر بواسطتها البدو المسافة، على المراحل أو وحدة السفر ليوم واحد. ولو كان باستطاعة البدو أن يعدّوا خرائط، فإنها سوف تكون مثل خرائط سير" الجيش، التي تظهر السرعة والسهولة التي يمكن للمرء أن ينتقل بهما على أرض ما، أكثر مما تكون قياسا تجريديا للأميال. ومن الواضح أن الإبل تقطع مسافات أقصر على الرمال العميقة أو في الممرات الضيقة الصخرية المكسرة، من المسافات التي تقطعها عبر الأرض الرهوة المفروشة بالأحجار أو الطين أو الرمل. ويمكن لميل واحد أن يحرف هذه

الحقيقة الجوهرية.

يستطيع المرء أن يعتبر أن المسافات التي يزعم رحالة ما أنه قطعها خلال يوم، عدا في حالة تدوينها بدقة، نوع من المقياس للمفاخرة والحقيقة. ومثلما يمكن أن يتوقع، فإن ت.أ. لورنس شهير على سلم أميال الإبل في اليوم". وفي ما يتعلق بهذا الأمر، كما هي الحال بالنسبة لأمور أخرى، فإن لورنس كان شديد الإيمان بالمقولة الشهيرة لمارك تواين التي تفيد بأن:"الحقيقة شيء نفيس ويجب على الإنسان أن يستعملها باقتصاد". لقد اشتهر لورنس على نطاق واسع، باتباعه لهذه القاعدة الذهبية، غير أن عددا من الرحالة الآخرين اقتفوا أثره. إنه لمن المحزن أن يطالع الإنسان في العديد من الروايات التي تتعلق برحلات طويلة وشاقة عبر الصحراء، ملاحظة قام بها معلق جاء لاحقا أو ناشر مذكرات الكاتب الذي لم يكن على قيد الحياة في ذلك الوقت: "... باعتبار ذلك كله، فإني على يقين أنه قام فعلا بالرحلة، رغم الخروج عن التناسق المنطقي والأخطاء التي تتعلق بالحقائق ...".

روى لورنس أنه قطع ٩٠ ميلا خلال سير يوم واحد، وذكر الرحالة الإيطالي جوارماني أنه قطع ١٨٢ ميلا خلال يومين. غير أن كليهما يجعلنا نشك في زعميهما، ذلك أن لورنس لم تكن تفصله مسافة يوم كامل من السير في واحدة من معاركه الصحراوية التي تم الترويج لها بالدعاية الإشهارية بصورة كبيرة، كما أنه من المؤكد أن جوارماني لم يعش أبدا أي جزء من رحلته الشهيرة. إن السفر الذي يتم توثيقه بصورة أفضل هو دائما أكثر بطأ، غير أن الروايات البطولية تظل مستمرة.

وفي وقت لاحق من الرحلة، أخبرني أحد أفراد دورية في الصحراء

الأردنيـة، أنـه بعـد سـير حثيث لمـدة ١١ سـاعة، كـان قد قطع ١٣٠ كيلومترا أو حوالي ٨٠ ميـلا. ويعد هذا الرقم قياسيا، تحقق في ظروف جد مناسـبة، على ظهـر جمل ضخم، مسـتريح جيد التغذيـة. وبعد أن أجريت سباقا ضد إبل أكثر ضخامة ووزنـا وقوة تابعة لدورية الصحراء الأردنيـة، أراني أميل إلى تصديـق ما قالـه، على الرغم من أن أفضـل ما تمكنا من تحقيقـه خلال يـوم مرهق يمتد على مـدى ١٤ ساعة، يقدر بما يقارب ٦٠ ميلا، كانت نسبة كبيرة منها، سيرا خببا في ظروف مناسبة. كما كان حاصل أقصر يوم على الرمال العميقة للنفود، ١٧ أو ١٨ ميلا فقط. (لقد جعلتنا أرقام مثل هذه نلجـأ إلى نظام المقاييس المترية! ذلك أنـه يحط من المعنويـات أن نفكر في أننـا لم نقطـع، في بعض الحـالات، سـوى ٢٠ ميلا، وترتفع معنوياتنـا عند التفكير في أننـا قطعنا في أحسـن الأيام ما يقارب ١٠٠ كيلومتر).

فاجأنـا اكتشـاف مدى هشاشـة الإبل. فالقول المـأثور الذي يفيد بأن الجمل هـو حصان رسمتـه لجنة، لـه أكثر من قـدر ضئيل من الصحة. إن كل الإبـل التي توجـد في الجزيرة العربيـة تنتمـي إلى فصيلـة الإبل ذات السنام الواحد، أما تلك التي لها سنامان، فهي خراسانية وتوجد في آسيا الوسطى. ومثلمـا هو متوقع في حضـارة كانت تعتمد إلى هذا الحد على الإبـل، كمـا هي الحـال بالنسـبة للبدو، فإننـا نجـد مـأثورات قوميـة من عـادات واعتقـادات وحكايـات كثـيرة حـول هذا الحيـوان، تمتـد من الممارسة البيطرية إلى التندر.

وتتمثـل واحدة من الحقائق البـارزة التي تتعلق بـالإبل في صعوبة التوالد عندهـا. ذلك أن الذكر منهـا يعـوزه بصورة فريدة، مـا يسـهل عمليـة التوالد، وغالبـا ما يكـون في حاجـة إلى مسـاعدة سـيده البدوي لسـفد

الأنثى.

يعتبر احتواء تقارير المخابرات البريطانية حول الجزيرة العربية، التي نشرت سنة ١٩٤٦، على معلومات مفصلة - كانت لها قيمة عملية في ذلك الوقت - حول الإبل وتناسلها وأمراضها ومعداتها، دلالة على مدى حداثة التغيرات التي حصلت في الصحراء.

لقد ورد في نص تقرير المخابرات:

" وفي ما يتعلق بأحسن السلالات، تولى عناية كبيرة إلى " الصفات الغالبة " كما هو الشأن بالنسبة للخيول. ذلك أنه يجب أن تكون للناقة الجيدة أذنان صغيرتان حادتان وعينان لامعتان وعنق مقوس شديد منتصب وكتفان قويًا العضلات وأخفاف صغيرة وأكفال متينة ومكتنزة. تلك هي الميزات الأساسية في حكم بدو الرولة في الشمال الغربي ... وعموما، فإن الأنثى أكثر صبرا من الذكر، وتستطيع التحمل لفترة أطول بالقليل من المرعى والماء خاصة خلال فصل التزاوج، عندما تكون الذكور سريعة الإنهاك. وفي وقت كلأ الربيع، تصبر الإبل ما يزيد عن الشهرين بدون ماء، مستمدة رطوبة كافية من النباتات الغضة. وحتى في فصل الشتاء، فهي تقدر على الصبر على الماء دون انزعاج لمدة أسبوع كامل... وفي فصل الصيف، فهي عادة تشرب الماء بعد فواصل زمنية تقدر بثلاثة أيام ... ويعتبر البدو أن الناقة في حاجة إلى أشهر من الراحة بعد سير شديد الإنهاك ".(١)

كان بالجريف، الذي يبدو أن الإبل سببت له آلاما واضحة في المؤخرة، أقل تحليلا للموضوع. إذ يرى أن الجمل "حيوان غير مدجن ومتوحش، أصبح نافعا بفعل الغباوة فقط، وذلك بدون مهارة من طرف سيده أو أي تعاون من جهته، باستثناء السلبية المفرطة. كما أن التعلق لا يؤثر فيه ولا حتى التعود، رغم أنه ليس له من اليقظة ما يجعله متوحشا تماما"(٢).

(١) الجزيرة العربية والبحر الأحمر (لندن، ١٩٤٦)، ص ٥١١/٨، ٥٠.

(٢) بالجريف، الجزء الأول، ص ٤٠

من مجمعه، واصلنا السير نحو القرية الصغيرة، زلفه، وهي تشبه منظرا من كتاب صور يستحضره الأمريكي إذا طلب منه أن يغمض عينيه ويفكر في الصحراء. لا يمكن أن يتجاوز ذلك الجمال الساحر للأسقف ذات الشرافات إلا ما تنتجه يد فنان ماهر من هوليوود.

تعشش القرية في بستان رائع الاخضرار من أشجار النخيل، في منخفض يقع بين امتدادين للصحراء. وتمتد وراءها أرض الصحراء الصخرية الصلبة الجرداء، بلونها الأبيض الضارب إلى الشهبة، كما تنتصب وراء ذلك كثبان عالية من الرمال الصفراء الذهبية، التي تبدو على الخريطة مثل اللوامس المتدلية للسمك الهلامي، منحدرة من صحراء النفود الكبرى إلى صحراء جنوب الجزيرة العربية. كانت قرية زلفه تشبه سمكة صغيرة علقت وتأذت في ركود خامل عند ذلك الامتداد من الرمال. أما أعيننا المفتوحة الجامدة، التي انطفأ بريقها بفعل شمس الأيام الماضية، فقد كنا نحس وكأن خضرة الواحة تشن غارة عليها. وقد جعل تباين الرمال الصفراء، الأشجار الخضراء والحدائق الناضرة الريانة المرتوية، تكاد تبدو، تحت ظلالها، كخضرة متعفنة، وبالأحرى ذات اخضرار صفراوي.

كانت القرية في سبات عميق، تبدو غير آهلة بالسكان ونحن نتقدم نحوها ببطء. وكانت خرائطنا تظهر الصحراء وكأنها ليست سوى شريط رقيق، غير أنه لم تكن لدينا طريقة تمكننا من معرفة مدى بطئنا في التقدم، ولذلك، سعينا بحذر إلى البئر التي كنا سنورد الإبل ونستقي نحن منها.

قديما، كانت كل مدينة تتعهد عند أطرافها بئرا لها أحواض للماء.



كانت الإبل تلتهم الأشواك مثلما يلتهم الأطفال سندوتشات ماك دونالد.

وأعتقد أن الفكرة كانت ترمي، في جزء منها، إلى تشجيع البدو على التوقف خارج المدينة. كما توجد في العادة، قرب أحواض الماء، سوق للمدينة ودار للضيافة. هنالك، يمكن بيع الحيوانات وملء قرب الماء وتناقل الأحاديث، وبذلك لا يخرج البدو ولا الحضر عن البيئة الملائمة لهم ولا يهددهم نصب كمين. وكانت زلفه، التي تقع على حافة صحراء النفود الصغرى، تحافظ على هذه العادة، حيث تمثل بئر عميقة آخر منشأة في القرية عند حافة الصحراء. لقد أصبحت البئر اليوم تعمل بواسطة محرك ديزل بدلا عن الإبل مكمومة العينين. كان الماء عذبا، ولذلك شربنا منه الكثير قبل العودة مرة أخرى إلى الكثبان الرملية الهائلة، متجهين نحو الغرب تقريبا. تسلقنا الكثبان إلى ارتفاع عدة مئات من

الأقـدام فوق مسـتوى المدينـة، لنـنزل بسـرعة إلى منخفض بـين الكثبان، حيث مررنا بسلسـلة من الحدائق التي ترويها آبار عميقة وتحميها جدران من عدوان الرمـال. هناك، وقعت أنظارنـا على خضرة زمرديـة مشبعة تكاد تكون مؤذية لأعشـاب يتخللها النخيل. وباسـتثناء الآبار وأشجار النخيل، كانت الحدائق التي يملكها بدو لا يأوون إليها سوى خلال فصل الصيف، مهملة وغير آهلـة. وعلى امتداد بقية السنة، عندما يكون الكلأ وافـرا في الصحراء بقدر يكفي دوابهم، يهجـر البدو الحدائق - ويهربون من جحافل الناموس العدواني - إلى هواء الصحراء النقي المنعش.

وبينمـا كنا نتقدم في السـير، ونحن نفكر في التباين بين واحـة مثل زلفه وعظمـة الصحراء الجدباء، رأينـا فجأة شـبحا يركض بسـرعة، نازلا من كثيـب رملي شــديد الانحدار، مثـيرا حولــه دوامات كثيفــة من الرمل، وشـعره وعباءتـه يتطـايران، وهو ينـادي حتمـا بكـل ما أوتـي من قوة. وعندمـا أصبح أخـيرا علـى مســافة تسـمح لنـا بســماعه، هتـف بأعلى صوتـه:" طـال عمركم، أيها المسـافرون ... ياللروعـة! إنكم تسـافرون تماما كما كانوا يفعلون أثناء طفولتي. واصلوا دون توان!".

كان أمرا جميلا أن تؤخذ اللمسة الدنكخوتية للرحلة بمعناها الأصلي.

أنهكنـا صعود الكثبـان الرمليــة الهائلـة ونزولهـا عشـرات من المرات، وحوالي وقت الغداء، أطللنا على هضبـة منبسطة السطح. كان علينا أن نتوقف في مكـان صحراوي خـال تمامـا من الظل لتنـاول القهوة والتمر، وسـط لفحات الرياح الحارة، تحت شمس لا ترحم. كان التوقف خاطفا وغالبا ما يمثل تجربة محبطـة. هل كان من الأجدر أن نواصل السير لكي نسـتطيع، على الأقل، أن نحدث نسـمة عند الحركـة، أو أن نتوقف قليلا

مـن الوقت لنحصل علـى التغذيـة والتشـجيع اللذين يزودنـا بهمـا التمر والقهوة والخبز والشاي؟ لم تكن هناك ورقة عشب أو غصن لين أخضر تأكلـه الإبل، غير أننا كنـا جميعا بحاجـة إلى راحة بعد ست ساعات من السير. ولإنعاش هذه الاستراحة التي تستغرق نصف ساعة، أخذنا نجرب مسدساتنا وبنادقنـا في التدريب على الهدف. لم يكن لنا استعمال كبير آخر للذخيرة بما أن الصحراء تكاد تكون خالية من الحياة البرية. كانت إحـدى مظاهر الصور الرائعـة في الشـعر العربي القديم تتمثل في "صور" الغزلان والمهـا والذئـاب والنعـام، غـير أن أغلبهـا قد انقـرض تمامـا من الجزيرة العربية، وحتى طيور الصيد البرية، فإنها تكاد تكون منقرضة هي الأخرى. وبعد نصف ساعة من التدريب على الهدف والأكل والحديث، ركبنا الرحال مرة أخرى، وقد نشـطنا إلى حد ما، أو على الأقل التهينا، للانطلاق في مـا كان يبدو دائمـا، أطول جزء في اليوم، مباشـرة في اتجاه الشمس المنحدرة.

ربما كانت رؤيتنـا لثعلبين ورؤية راشد لأرنـب تؤذن باقترابنا من منطقة آهلـة بسكان مستقرين. وحيث أن راشـد كـان شديد الرغبـة في تغيير غذائه، فإنـه اختطف بندقيته القديمة التي كانت قد تعطبت بصورة مفزعة من جراء الاسـتعمال العنيف، والتي كـانت تبدو إلى حد الآن، لا تصلح إلا كعقافة يعلق عليها صندله أثناء الركوب، وقفز مترجلا من على ظهر ناقتـه. ثم أخذ رصاصـة من مشـط الذخيرة وأرخى مـزلاج بندقيته إلى الـوراء. وبمـا أن المزلاج كـانت قد كسـته طبقـة من الرمل والحجـارة الرمليـة الخشـنة التي تراكمت عليـه خلال سـنوات عديدة ، فقد أحدث صرصرة مثل تلـك التي تحدثهـا شـفرة عند التقاءهـا بالزجاج. وبرباطـة جـأش، وضـع راشـد الرصاصـة الـتي كان لهـا تقريبـا عيـار خرق أنبوبـة البندقية نفسـه، ونجح في غلق عقب البندقيـة. وبحكم الغريزة، رجعنا أنا

وبيل بعض الخطوات إلى الوراء خوفا من أن يتبين أن هذا السلاح القديم فتاك من عقبه أكثر منه من فخرته.

غير أن راشد عوض بالمهارة ما كان ينقصه في المعدات، حيث أخذ يمشي إلى جانب أحد الجمال محافظا على أرجله على مداد واحد مع أرجل الجمل، مقتربا بذلك من المكان الذي كانت تختبئ فيه الأرنب، ثم انقبض نحو الأرض وصوب بعناية نحو وكر الأرنب وراح ينتظر. التفت سلطان الذي كان على ظهر راحلته ورجع للانضمام إلينا. في هذه الأثناء، وعندما لاحظ الأرنب البري تقدم وتراجع الجمل، برز من مخبئه باطمئنان. سمعنا انفجارا يصم الأذنين عندما انطلقت الرصاصة ومعها صدأ ورمال خلفتها خمسون سنة، جاعلة أنبوبة بندقية راشد تميل إلى الأسفل. وبصيحة فرح، أسرع راشد إلى المخبأ ليخرج عشاءه.

كان ذلك اليوم بالخصوص، أحد أشق أيام الرحلة بكاملها، حيث كانت خرائطنا غير دقيقة وبوصلتنا مخطئة و لم يكن معنا أدلاء. كانت أرجل الإبل تؤلمها، أما نحن، فكنا نشتكي من آلام في ظهورنا. وأتعس من ذلك كله، أننا ذهبنا ضحية لآفة جميع المسافرين: التفاؤل. كنا نتجه نحو المكان الذي يدعى جبل برمه، وهو جبل يظهر بوضوح على خرائطنا، وكنا قررنا أن نخيم عنده. يبدو جبل برمه عن بعد وكأنه قمة بركان. ابتهجنا لأنه كان يبدو أقرب مما كنا نتصور، غير أن بدويا اقترب مني بعد سير عدة ساعات وقال بالصوت نفسه الذي تعود البدو على التحدث به أثناء هبوب الرياح، والذي يستعملونه كذلك في المحادثات العادية: " أخشى أن لا يكون هذا الجبل هوالذي نقصده. في لغتنا، يعني لفظ برمه، أسود، والجبل لا يبدو أسودا ونحن نقترب منه". واصلنا السير رافضين أن نصدق، إذ لم يكن أمامنا خيار واضح آخر

متسـائلين مـا إذا كـان علينـا أن نثـق بالخريطـة أو بالبوصلــة أو بعلـم الاشـتقاق لكلمـة برمـه. وشـيئا فشـيئا، تبين أنـه علينـا أن نسـلم بعلـم الاشـتقاق. لقد أدركنـا، بأعين لا تقـوى على الرؤيـة بوضوح وقلوب أصابها الهبوط، أن ثلاث سـاعات مـن السـير الشاق علـى أقل تقدير ما زالت أمامنـا. سرنا مسـافة خمسة عشـر كيلومترا أخرى، في اتجاه قرص برتقالي اللون محرق لشدة حرارته، فوق سطح رملي يشبه المرآة. واصلنا الطريق خلال فترة مـا بعد الظهر، متثاقلين من شـدة التعب، إلى أن بلغنا قمة جبل مرتفع أسود، هو جبل برمه الحقيقي.

هنـالك، نزلت مـن علـى ظهر نـاقتي، وقـد أصبت بالنزلـة الوحيدة للدوسـنطاريا، ومشـيت وراء رفـاقي متعثرا واهنـا. قررنـا أن نخيم في مكـان يقع أمامنا على بعد حوالي كيلومتر، غـير أننا قطعنا ما لا يقل عن الثمانيـة من الكيلومترات المؤلمة، و لم أصل إلا بعـد أن أسدل الليل ظلامه بوقـت طويل. كنت منهك القوى وكـان الغضب قد أخـذ مني مأخذا. اتجهت إلى البدو لأوبخهم بسبب خداعهم لي . ضحكوا عن طيب نفس وأجابوا أن ذلك كان الدرس اللغوي الثاني بالنسبة لذلك اليوم. لم تكن المسـافة التي قطعوها سـوى "الكيلو البـدوي"، وهي مسـافة مطاطة جدا دون شــك، وربمـا يكون أحســن مرادف لهـا:"هنـاك، على الطريق" أو على مرمى حجر".

كان ذلـك في ما تبقـى من الرحلـة بمثابـة علامـة الإنذار بالنسـبة إلينا عندمـا نسمع لأول مـرة كلمة تبدو دون عواقـب وخيمة ظاهريـا وسط مجموعة من الاتجاهات. لقد كانت صيغة التصغير في اللغة العربية لكلمة "قريب": وهي: قريّب، وتعني حرفيا، " قريبا شيئا ما " لكن هذا قد يعني السير الشاق طوال ما بعد الزوال.

رأينا قرب مخيمنا عند جبل برمه، أول قطيع هام من الإبل، وكانت هذه علامة تدل على أننا كنا الآن على حافة قلب الجزيرة العربية الوسطى: القاسم، وعاصمتها بريدة التي تقع على بعد حوالي خمسين كيلومترا إلى الغرب منا.

بحلول الليل، قدم راعي الإبل نحو موقد مخيمنا، مؤرجحا دلوا في يد وممسكا بالأخرى ابنه الذي يبلغ الخامسة من عمره. وتبعت ذلك المراسم المفصلة المألوفة للتحية. وبحركة حرص على أن تكون خالية من الكلفة، وضع البدوي الدلو الذي اتضح أنه مملوء بحليب الناقة، وهم بالانصراف. أسرع مرافقونا إليه، يكادون أن يمسكوا بذراعيه ليطلبوا منه أن يلتحق بنا عند نار المخيم لتناول القهوة. تظاهر البدوي بعدم الرغبة في ذلك، ولكنه استسلم في آخر الأمر. كان ذلك الحادث مسليا بالنسبة للمشاهد الغربي، غير أنه كان فيه نفاق واضح. كنا جميعا، بما فينا البدو بكل تأكيد، نعلم أنه سيبقى لا لشرب القهوة فقط، بل أيضا لتناول طعام العشاء. وإذا نظرنا إلى الحادثة بصورة إجمالية، فإن هديته هذه، التي تتمثل في حليب الناقة، كانت بمثابة بطاقة تمكنه من تناول العشاء.

ومع ذلك، فإن هذا الحادث يبدو مختلفا من وجهة نظر البدو. لقد كان طعام العشاء في حد ذاته شيئا مرغوبا فيه ولكنه كان في الأساس مناسبة اجتماعية. أما هدية حليب الناقة، فمع أنه كان بكل تأكيد مستحبا لحناجرنا الجافة، فإنه لم يكن غير مطلوب فحسب، بل كذلك غير معتاد. إذ يستطيع الضيف أن يطالب بالكرم، وقد فعلنا ذلك لاحقا في عدة مناسبات. ولكن العنصر الأساسي كان يتمثل في مراسم التحية وعلامات الصداقة وحسن الرفقة. ولم تكن هذه وسائل للظفر بالعشاء

فحسب، ولكنها كانت هدفا في حد ذاتها. لقد وفرت الحركات والمراسم في مجملها الرضا النفساني المباشر، وحددت طابع الأخوة لكامل السهرة.

عندما وصلنا أخيرا، بعد تتابع طويل للقهوة والتمر والشاي والخبز، إلى طعام العشاء الذي يتكون من الأرز وقطع لحم الضأن المطبوخة في المرق على نار هادئة - وهو كل ما تركناه من الذبيحة السابقة -، جلس ابن الراعي معنا وأخذ يأكل على هيئة الرجل الصغير، وقد اتسعت عيناه، وهو بصدد اكتساب كامل التجربة في سكون. لا شك أننا كنا أول غرباء يلتقي بهم، كما أن تلك السهرة كانت بكل تأكيد تضم أكبر عدد من "الناس" الذين قد يصادفهم على مدى أشهر عديدة.

تمثل نار المخيم المدرسة التقليدية للشبان. إذ يتعلم الطفل حولها المعارف الخاصة بقومه والعادات المأثورة عن الآخرين أكثر مما تلقن له. ويتلقى كذلك المعلومات الخاصة بالعالم الأوسع بالطريقة التي يحتاج إليها ويستطيع أن يستعملها. وعلى الرغم من أن البرنامج التربوي للحكومة، يحتوي على فتح مدرسة جديدة كل يوم - حوالي أربعمائة كل سنة - في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية، فإن عددا كبيرا من السكان لم يتمكن بعد من الالتحاق بها. وإلى اليوم، ورغم أنها تكتسي أهمية أقل، فإن مدرسة نار المخيم لا تزال حاسمة بالنسبة لتربية النشء.

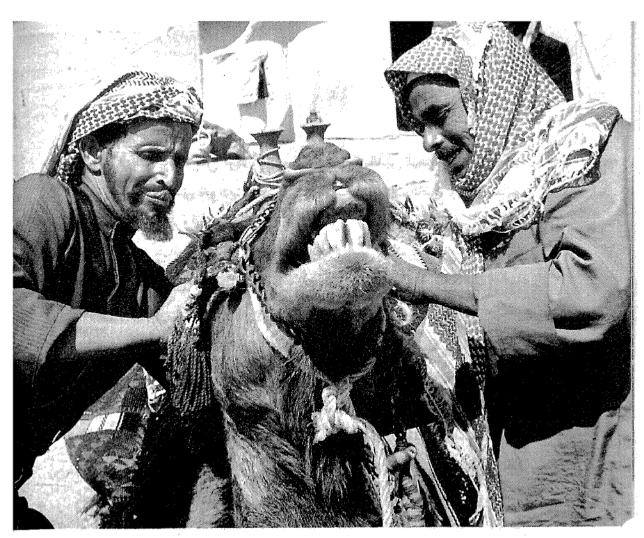
لم تكن هناك قضية فارق بين الأجيال أو انشغال بالتلفزيون يشوب متعة العلاقة بين الأب والإبن. لقد كان هناك نوع من الطبعية والارتياح اللذين تسعى المهمة التربوية بواسطتهما بالتحديد، إلى تحقيق ما يتشدق به عدد من المدارس، بغباء في بعض الأحيان : الإعداد للحياة.

تعرضت محادثاتنا حول نار المخيم بصورة واسعة لمجرى التاريخ العربي.

كانت آراء البدو، مثل آراء أغلب الأشخاص الذين ليسوا من أصحاب الاختصاص، تتعلق بحوادث بارزة وعرضية، وتبدو كأنه تم اكتسابها كسلسلة من الروايات والنوادر التي تدور حول المشاهير من الرجال والأبطال. كانوا كثيري الاهتمام بالفترة التي كان فيها المشاهير من الرجال ينحدرون من قبائل الجزيرة العربية. وبالنسبة إليهم، فإن الحياة القبلية تبقى هي الحياة المثالية.

لقد حددت القبائل البدوية بالجزيرة العربية طابع الحياة في الصحراء. ولكن من الناحية السياسية، فإن القبائل كانت وحدات اجتماعية نظرية أكثر منها فعلية. لا يستطيع عدد كبير من الرجال أن يجتمعوا لمدة طويلة وإلا فإنهم سيستنفدون مخزونهم من الماء. لذلك كانت صلات الرحم المباشرة هي التي تحدد للمرء المجموعة البشرية التي لا تنحل. ولا يمكن داخل تلك المجموعة، أن يحدث أي عنف أو أن تنشب أي حرب أو أن ينفذ أي رد فعل، حيث أن الثأر لأذى لحق أخا أو ابن عم، من شأنه حتما أن يمس الآخرين. ولا يوجد في حالة القتل أو عند حدوث جريمة خطيرة أخرى داخل المجموعة سوى إجرائين يمكن اتخاذهما، ويتمثلان إما في طرد المذنب أو انشقاق المجموعة.

وفي جميع الحالات، يجب على المجموعة أن تنقسم عندما تتسع بصورة كبيرة جدا. وتحدد الصحراء عدد الذين يمكن أن يسافروا ويعملوا ويرعوا القطعان معا. يسمي العرب هذه المجموعة عشيرة، وهي عبارة تتميز اللغة العربية بأنها تحتوي على عدد كبير من الكلمات التي تشير إلى معناها. وتشمل العشيرة أولئك الذين تربط بينهم صلة الرحم على امتداد خمسة أجيال تقريبا أو ما يتراوح بين خمسين ومائتي شخص. وينبغي على المجموعة أن تبلغ حجما يسمح لها بحماية نفسها ضد



تشتكي الإبل بدون انقطاع وخاصة عند وضع الرحال عليها في الصباح.

المجموعـات الأخرى على أن تبقـى صغيرة بحيث تسـتطيع العيش اعتمادا على موارد الصحراء الشحيحة.

لقـد تسـببت هـذه العوامل في تحولات مسـتمرة في الحيـاة القبليـة، مما أحدث في المجتمعات القبلية ممالك وتحالفات متغيرة على الدوام. وتعيش المجموعات البشرية باستمرار في حالة تجـاوز لإمكانياتها، فتنشـق نتيجة لذلك، إلى مجموعات معادية لبعضها البعض.

في ظروف مجتمع مـا قبل الإسلام، كـانت هذه العوامل تنحو إلى إيجاد نوع من التـوازن، حيث لا تسـتطيع أي مجموعـة أن تتجـاوز المجموعات المنافسـة لهـا قوة، بما يسـمح لهـا أن تسيطر على أكـثر من البعض منها.

وهكذا، فحتى اتحادات البدو، كانت صغيرة نسبيا وسريعة الزوال.

لقد أنشأ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، في المدينة المنورة وحولها نوعا جديدا من القبائل، لا تعتمد على صلة الرحم وإنما على الانتساب إلى الدين الإسلامي. كانت الحرب ممنوعة داخل المجموعة الدينية وكذلك داخل العشيرة، لكي تتجه طاقة المنتسبين إليها ضد المجموعات الخارجية. وبما أن الإسلام كان قبل كل شيء تطورا حضاريا، فإنه استطاع أن يحافظ على جيش أكبر حجما من منافسيه، فقد استطاع استمالة الكثيرين إلى جانبه ودخولهم الاسلام. حيث بسط سيطرته على الجزيرة العربية.

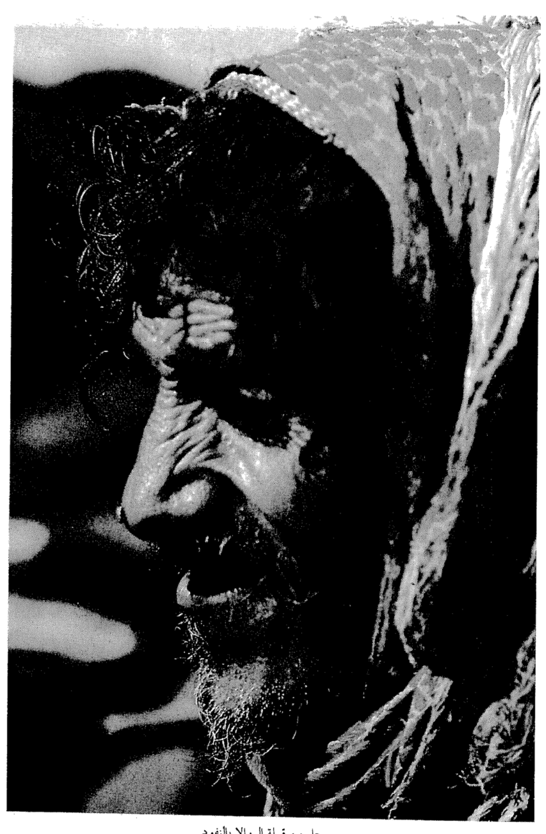
وبعد وفاته ارتدت بعض القبائل العربية عن الإسلام. لكن خليفة الرسول (ص) أبا بكر حارب المرتدين وأعادهم إلى الإسلام. ثم بعد ذلك توالت الفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة العربية ليصل الإسلام في مدة تقل عن قرن من الزمن إلى المحيط الاطلسي غربا والى حدود الصين شرقا.

وقد تراجعت القوات البيزنطية المهزومة إلى ساحل البحر وتركت الأراضي التي تقع خلف الساحل إلى العرب. وأعلن الخليفة العربي عمر السلم في القدس سنة ٦٣٧ م. وتحدث الروايات التاريخية بأنه كان يركب ناقة بيضاء ويرتدي ثوبا صحراويا رثا عندما جاء للصلاة في المكان الذي كان محمد صلى الله عليه وسلم قد رأى في المنام أنه عرج منه إلى السماء والذي كان قبلة لصلاة المسلمين الأوائل.

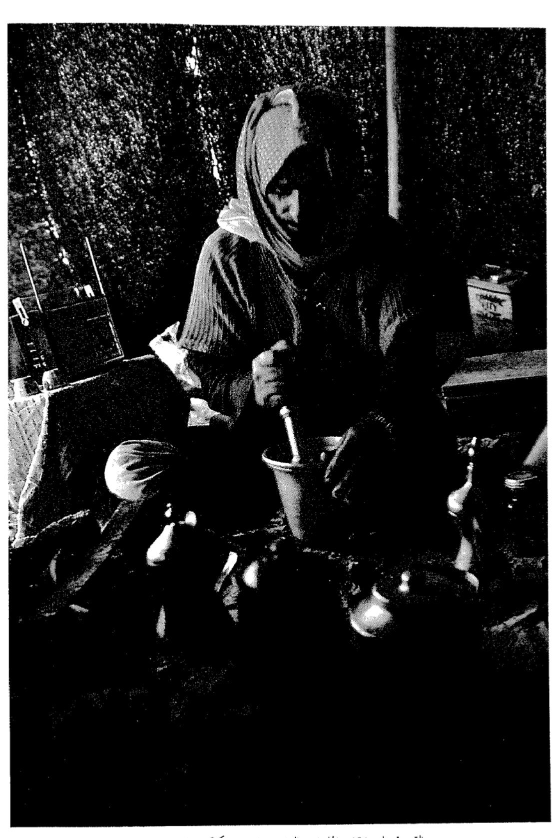
كان المسلمون الذين يعتبرون الإسلام دين العرب، والذين كانوا يريدون دخلا يتجاوز دخل الجنود، يبذلون جهدا قليلا لإدخال الآخرين في دينهم. وفي هذه الأثناء، كان هناك عالم ينتظر من يفوز به. وفي

السنة نفسها، أثناء زيارة الخليفة للقدس، استطاع جيش عربي أن يهزم قوات الإمبراطور الساساني وأن يستولي على عاصمته طيشفون التي كانت تقوم قرب مدينة بغداد الحديثة. وكانت بلاد فارس أيضا تنتظر بدون حماية أمامهم. وبعد ذلك الوقت بقليل، أقنع قائد عربي آخر الخليفة بأن يسمح له بفتح مصر. ويذكر أنه قال:" أرضها ذهب ونساؤها لعب ورجالها لمن غلب، يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا ". وقد هزم القائد بجيشه الذي يتركب من فرسان يمنيين الحامية البيزنطية الأولى التي لقيها. وبدعم ومساعدة من الجالية القبطية المسيحية المحلية، استولى بعد ذلك على مدينة بابل التي تقع قرب مدينة القاهرة الحديثة، وضرب الحصار حول الإسكندرية التي استسلمت سنة ٦٤٢ م. وحوالي ٦٦٩ م، كان العرب قد كونوا قوة بحرية وهجموا على قبرص. بعد ذلك بست سنوات، تمكنت هذه القوة من تدمير معظم الأسطول البحري البيزنطي الذي يتكون من خمسمائة بارجة حربية. وفي هذه الأثناء، كانت الجيوش العربية قد تغلغلت في أعماق الأناضول شمالا وفي أفغانستان شرقا.

كان نجاح المد الإسلامي ذاته قد استنزف من الجزيرة العربية عددا كبيرا من سكانها. إذ انتقلت قبائل بكاملها إلى مناطق نائية من الإمبراطورية وفقدت الاتصال بالجزيرة العربية إلى الأبد. ولمدة عدد من القرون لم يعد توازن الجزيرة العربية الذي كان قائما قبل الإسلام ولو جزئيا، وبدأ ثانية ما يشبه العصر البدوي. وحيث أن عددا كبيرا من القبائل لم يول الديانة الجديدة إلا اهتماما طفيفا، فإن الحياة في الصحراء آلت تدريجيا إلى عدة مظاهر ومُثُل تابعة لفترة ما قبل الإسلام. وهكذا، فإن الجزيرة العربية في رأي الرحالة الغربيين القدامى في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، ربما كانت تشبه إلى حد كبير الجزيرة العربية لعصر



رجل من قبيلة الروالا بالنفود



سحق حبوب القهوة على إيقاع المذياع (الراديو) قرب سكاكه على حافة النفود الشمالية

ما قبل الإسلام.

يقسم العرب الإنسانية تقليديا إلى مجموعتين: المستقرون والرحل. وحتى الذين يميلون فلسفيا بشدة نحو إحدى المجموعتين، فإن موقفهم كان دائما متأرجحا بين المتناقضين. تعتبر الحضارة ظاهرة عمرانية. ولا يمكن للفنون أو الحرف اليدوية أن تزدهر إلا في الحياة المستقرة. إلا أن ازدهار الفنون والحرف اليدوية ذاته من شأنه أن يفسد الطبيعة البشرية. ففي المدينة، يصاب الناس بالكسل والميوعة والجشع. واعتبر ابن خلدون، الفيلسوف الشهير الذي عاش في القرن الرابع عشر في شمال أفريقيا أن هذه العملية مصدر لتواتر التاريخ. ورأى أن ما يقابل مقولة :"من الأسمال إلى الثراء إلى الأسمال" في العربية هو، حقبة من الزمن تمتد على مدى أربعة أجيال. خلال الجيل الأول، زحف المحاربون، الذين يتصفون بالهمجية والفظاظة ولكنهم يتصفون كذلك بالرجولة، من الصحراء وفتحوا بلدان الشعوب المستقرة. ودأب أبناؤهم، الذين لا تزال الصحراء في ذاكرتهم، على الصبر على المشاق والجهد، ولكنهم بدأوا يتأثرون بالعادات المأثورة للحياة المستقرة. وعند الجيل الثالث، تلاشت الصحراء من ذاكرة الرجال وسيطرت المدينة. وعند الجيل الرابع، حطمت الميوعة والجشع والفساد الأخلاق و الفضيلة التي كان يتميز بها الأجداد بدرجة فقدت معها سلالتهم القدرة على مقاومة الغزوات الجديدة من الصحراء.

يعتبر ابن خلدون ومعظم المفكرين العرب أن الصحراء كانت بمثابة خزان الرجولة. وقد كتب بعبارات سبق بها فلاسفة الحرية في القرن الثامن عشر:" إن الشعوب الصحراوية أقرب إلى الخير من الشعوب المستقرة ... ". لقد ذكر أن الإنسان يولد صفحة بيضاء، ويصبح

خيرا أو شـريرا حسب ما يقدم إليـه. " ... إن الشعوب المستقرة تدنس نفسـها بالكبر والشـر وتضل عن طريق الخـير من جراء المبالغـة في فنون الملذات والتعود على الأشياء الدنيوية وقبولهـا ... وبينما يتوق البدو إلى التمتـع بملـذات الدنيـا، فـإنهم لا يتمكنـون مـن ذلـك بحكـم الظروف السائدة...

خـلال القرن التاسـع عشر، كـان لظهور بندقيـة الفتيل أولا ثم البندقية ذات الزنـاد المصون، ثم لظهور المدفع الذي يحشـى من فوهته بحلول هذا القـرن، أن أحدث ثورة أسلحة خدمت مصلحـة سكان المدن، الذين هم من المترفين نسـبيا. فتمكنـت الرياض وحـائل ومكة والمدينـة من بسـط سـيادة غير محكمـة علـى القبائل المجـاورة. ولكن خـلال هذه الفترة، لم يكن لحكومة الإمبراطورية العثمانية البعيدة سيطرة على بحر الرمال الكبير تحت الهلال الخصيب، تغطي جميع الجوانب العملية.

أحدثت الحـرب العالميـة الأولى تغيـيرات كبـيرة. فقبيل الحرب، مدت الحكومة العثمانية خط سـكك حديدية داخل الجزيرة العربية، مكنها من نقل وحشـد قوات عسـكرية أكبر من أي قوة توافرت لحكومـة مستقرة مـن قبل علىالإطلاق. كانت العداوة الدفينـة التي يكنهـا البدو للحكومة المركزية والخوف من عواقب السكك الحديدية جزئيا، هي الأسباب التي مكنـت ت. أ. لورنس مـن تشـكيل قوة مـن عصابـات البدو لإزعـاج خطـوط الإمداد التركيـة وتدمـير السـكك الحديديـة. ولكـن الحرب أحدثت تطورين هـامين آخرين: الطـائرة والسـيارة. في البدايـة، كانت السـيارة محـدودة في قدرتهـا على التحرك في الصحـراء، غـير أن الطائرة أوجدت نوعـا جديدا من الحرب، وآذن تضـافر الإثنتين بالقدر المشـؤوم لاستقلال البدو.

كان الشرق الأوسط أول حقل تجربة للقوة الجوية بعد الحرب العالمية الأولى. وقد اكتشف البريطانيون أنه يكاد يكون السلاح المثالي للصحراء. وتمكنوا، انطلاقا من قواعد آمنة ومعزولة نسبيا، من تنسيق قوات برية متحركة ومجهزة بأسلحة خفيفة، لاستكشاف مساحات واسعة فسيحة من الأرض الصعبة، وقصف حشود من الثوار بالقنابل. كان الطابع الأساسي لحرب الصحراء، المفاجأة، قد تحول من الجمل إلى الطائرة. وبالتجول على امتداد مئات الأميال في الصحراء – ما يعادل سير الجمل طوال أسبوع – اكتشف البريطانيون أنهم يستطيعون الاستغناء عن العساكر المرابطة. ودفعة واحدة، تمكنوا من حل أعوص مشكلة أزعجت الحكومات طوال آلاف السنين: الدفاع الثابت. وبدلا من انتظار هجوم التسلل عن غير هدى، كانوا يستطيعون مسبقا توقع تحركات البدو وتشتيت حشود المحاربين البدو عن طريق القصف الجوي.

وفي العشرينات من هذا القرن، تمت إضافة سلاح رئيسي ثان إلى فريق إحلال السلام، يتصف بقدرة احتمال أكبر من تلك التي تتصف بها الطائرة ويتمثل في العربة. ومع ازدياد متانة وخفة وقوة العربات، أصبح بإمكانها أن تنقل عددا أكبر من الجند والمدافع الرشاشة عبر كل أراضي الصحراء، باستثناء الوعرة منها، بسرعة تفوق سرعة الجمل بعشر مرات. وباستعمالها مع جهاز الاتصال اللاسلكي والطائرة، وفرت العربات للحكومات إمكانية تعبئة قواتها بسرعة تفوق سرعة البدو وإمكانية غزو أراضيهم إلى أقصى نقطة في أعماقها. وقد اكتمل إخضاع القبائل باكتتاب البدو في خدمة الشعوب المستقرة. فالتحق البدو بالقوات العسكرية الحكومية وبدأوا ينتقلون إلى المدن للعمل لديها.

وخلال العشـرينات والثلاثينـات من هـذا القرن، تعلمت الحكومـات المستقرة في الشرق الأوسـط استعمال الأسلحة والتدابير ممـا تسبب في ضيـاع المزايـا العسـكرية البدويـة القديمـة. ولم يفقـد البدو قدرتهم على السـيطرة على الـبراري والإفلات مـن الضرائب والتجنيـد الإجبـاري فحسـب، بل سـرعان مـا اكتشـفوا أن البضـائع التي كـانوا ينتجونهـا ويبيعونهـا للشعوب المستقرة، قد فقدت أسعارها المرتفعـة. ولما أنشئت الطرقات أو أصبحت المسالك معروفة للعربات، زالت الحاجة إلى الأدلاء مـن البدو، إذ أصبح بإمكان العربات أن تنقل الناس والبضائع بتكلفة أقل مـن الإبـل، وأصبح سـكان المدن يسـتثمرون أموالهـم في المضخـات والجـرارات للحصول علـى فـائدة أكـبر وبطريقـة اقتصاديـة أكـثر، من الأراضـي التي كـانت تقليديـا في حـوزة البـدو، كمـا كـانت البضـائع المصنوعة من الصوف أقل تكلفـة بصفة عامة، عنـد توريدها من استراليا أو الهند. وأصبح الفلاحون الذين كـانوا تقليديا يدفعون ضرائب"الخوة" إلى البدو، يسددونها الآن إلى الحكومات المستقرة.

ومما يعتبر أكـثر شـؤما في نظر القبـائل، هو أن الحكومـات نفذت إلى تركيبـة القبائل لتكـون داخلها لأول مرة سـلطة حقيقيـة. فأصبح "صنع الشيوخ" مهمة أساسية للحكومات المركزيـة، حيث يتم تحديد شخصية القائد الطموح في قبيلـة ما و"ترقيتـه" إلى مقام أعلـى، ودعمه من طرف الحكومـة لفرض أولويتـه على منافسـيه. وغالبـا مـا يعهد لـه شـخصيا بأراضي القبـائل، فيقتني مضخـة ويسـيطر على الماء – الـذي يعتمد عليه أبنـاء القبـائل – ويصبح تدريجيـا السـيد المطلق بين عشـيرته. وفي هذا المجـال، أصبحت طبيعـة الحياة البدويـة فاسـدة. فقد ضاع الشـيء الذي كان حرية رومنسـية مفرطة، تمثل المظهر الوحيد الذي مكن الإنسان من الصمود أمام المشـاق الرهيبة والحرمـان المادي في الحيـاة البدويـة. كما

كان السحر والذوق بصدد الزوال من الحياة الصحراوية، وكان الهامش الدقيق للنجاة من المجاعة الذي يوفره الغزو وقيادة قوافل الإبل، في طريقه إلى الاضمحلال.

وفي الأثناء، بدأت تحدث تغيرات كبيرة في المناطق المستقرة، وبصفة خاصة في المملكة العربية السعودية والكويت والعراق، وكذلك بدرجة هامة، في دول الشرق الأوسط الأخرى، حيث تم التركيز إلى أبعد الحدود على التطور الاقتصادي. فاكتسبت المدن كساء من الأضواء الساطعة، والطرقات المعبدة وقاعات السينما، وفيضا من حلية المدن الصناعية الغربية والعناية الصحية ومواطن الشغل. ومثلما ذكر ابن خلدون، فإن أخلاق البدو لم تكن فاضلة بحكم الطبيعة بل بفعل الحرمان. ولما أصبح إغراء المدن في متناولهم، تركوا الصحراء فورا عن طواعية مثلما فعل أسلافهم الذين كانوا يتميزون بكثرة السؤال وشدة الحرص على الكسب.

بدأت موجة جديدة واسعة النطاق من النزوح إلى خارج الصحراء العربية، تشبه تلك التي حدثت خلال القرن السابع عقب ظهور الإسلام مباشرة. في البداية، جاء أبناء القبائل للتفرج، وكان الهول يتملكهم في غالب الأحيان. ثم بدأوا تدريجيا يمكثون ويتذوقون، ثم أخذوا في التعود والإدمان. وكانت الأكواخ التي ركزت العديد من سكان الصحراء الرحل في المجتمعات المستقرة تظهر إلى الوجود في حلقات متطابقة حول العديد من مدن الشرق الأوسط، وغالبا ما كانت تبنى من الطين أو من براميل النفط المهملة. كانت حياة هؤلاء الناس بائسة شديدة الفاقة، كما كانت أحياء الأكواخ التي يسكنونها، أو كما يسميها الفرنسيون، الأحياء القصديرية، مظهرا مفزعا لمجتمع الشرق الأوسط، حيث يغلب

عليها البؤس والفقر والأمراض والقـذر. يتساءل المرء عـن السبب الذي جعلهم يتبدلون الفقر المدقـع الثابت في المدن القذرة التي تكتـظ بالسكان الفقراء بفقر الصحراء الشـديد الذي تلطفه الحريـة. ولكن الاستبدال قد تم، ويمكنهم على الأقـل أن يتمتعوا بـالعلاج الطبي والمنتوجـات الصناعية. وبين الفينة والأخرى، كما حدث خلال هيجان انقلاب سنة ١٩٥٨ في بغداد، تتم إثارتهم سياسيا فيشجعون على الإيمان بأن أرض الطوبى تمتد فقط قبالة الجسر على الجـانب الآخر من المدينـة. ربما أمكن للبعض أن يجـدوا طريقا إلى المدارس وأن ينجوا، ولكن بالنسبة للأغلبية، فإن فقدان حرية الصحراء لم يجلب متعة الحياة المستقرة.

كانت صناعـة النفط في المملكة العربية السعودية والكويت قد امتصت العديد من البـدو في حين حقق آخـرون التحول من الناقـة إلى العربـة أو التاكسي وانتفعوا بثمر اقتصاد يقوم على المال. وقد تولت الأغلبية بحزم ثابت عن حياة الصحراء التي لن يعرفها أبناؤهـم أبدا.

وعلى الرغم من أن هـؤلاء لم يجدوا الشخص الذي يكون بمثابة "دجون ستاينباك" عنـدهم، فـإن حياتهم تبـــدو أكـثر مرارة ويأسـا من حياة "الأوكيز" في كتاب "عناقيد الغضب".

لم يصبـح الحنين أحـد مـميزات مجتمع الجزيـرة العربيـة بعـد. ويجوز أن تتلاشـى تركيبـة الذاكرة الدقيقـة المعقدة إلى غـير رجعـة قبل أن يسـعى بعضهـم إلى تدوين الطرق القديمـــة أو اسـتعادتها للذاكـرة. وحتى تتبع الأنمـاط خلفـا، فهو حاليـا أمر صعب. ذلك أنـه ليـس من الصعب على المرء فحســب، أن يعثر على ســهم أو حربـة.أو ترس، بل إن الأخبـار المأثورة للصحراء، "مدونـة" بالشـكل الذي كانت عليـه في قلوب الناس وأذهانهم، ستندثر عن قريب إلى الأبد.

خلال الليل، جاءت الضباع لزيارة الخيمة، وحيث أن نومي كان متقطعا، فإني لم أشعر بزيارتها. لم تحصل الضباع سوى على نفايات قليلة لأن وليمتنا كانت قد اقتصرت على البقايا. و لم نكن قد لحسنا الأطباق إلى حد تنظيفها فحسب، بل إن رفاقنا كسروا العظام ليمتصوا المكاك منها ومسحوا الدسم بالخبز والأصابع. كان رفاقنا، وقد جففتهم رياح الصحراء، قد تاقوا إلى شيء من الشحم والزيت، ولذلك دهنوا أجسامهم من الداخل والخارج على حد السواء بالقطرات التي تسيل من الآنية. فكانت بشرتهم المتشققة الجافة وبطونهم التي فيها سعار الجوع والتي تفتقر إلى مادة البروتين تنتقع فيه. وجدت الضباع الخيمة تكاد تكون خلوا من الطعام واكتفت بأن تلوك قطعا من الجلد التي وجدتها ملقاة على سطح الأرض حول أجسامنا النائمة. أما كلب السلوقي الذي يترفع عن تلك المهمة الوضيعة التي تتمثل في حراسة الخيمة، فإنه كان نائما نوما عميقا خلال الزيارة، و لم يكن الفضل له في أن أحدا منا لم يفقد حذاء ... أو قدما.

إن الضباع أحد أنواع الحيوانات التي تم ذكرها بصورة واضحة في الشعر القديم. فبالنسبة للشعراء اللصعاليك، كان الضبع أو التجمع الأسطوري للضبع والذئب، رمزا قياسيا للهجوم الليلي والثأر بوحشية وفظاعة لا تتوانى.

أفقت قبل الفجر بوقت طويل في ذلك السكون الذي فيه ما يحدث في النفس الخوف من الأشباح والجن. ثم استكنت بشدة داخل كيس نومي وأنا أحدق في السماء. كان كوكب الزهراء يضيء تماما مثل شمس مصغرة. تتبعت الخط الكفافي المألوف للدب الأكبر وعلامة W التي يرسمها كوكب ذات الكرسي بواسطة الرسم البياني للنجوم الذي

كنت قد درسته مع بيل الليلة السابقة، وحاولت أن أتتبع علامات فلك البروج في ذاكرتي، فشعرت بطريقة لم يسبق لها مثيل، أنني أستطيع أن أفهم لعبة علم الأساطير وعلم الفلك: ذلك السلام المثالي وذلك الوضوح الصافي خلال اللمسات الأولى للفجر. وبدون وعي حقيقي بمرور الدقائق، تمكنت من رؤية انتقال كوكب الزهراء عبر جزء من السماء وغيابه التدريجي في ضوء بداية الفجر. ثم انقطع الصمت بلطف بالصوت المكتوم للمهراس والمدقة عند سحق القهوة وحديث رفاقنا الخافت حول نار المخيم التي تزمزم برفق. أخيرا، تراجع الخفوت وعلا صوت طلبات الإيمان الملحة مع أنها لا تزال مستنيمة، وصوت الإبتهال الغرغوري لآذان الفجر.

لقد لخص الرحالة الإنجليزي جيرالد دو غوري منذ ثلاثين سنة المزيج من إثارات النفس الدقيقة لليال مثل هذه:

" يشعر الرحالة في مثل هذه الأراضي القفراء بالجاذبية الغريبة للصحراء بتمامها، ويصبح افتخاره بإنسانيته أقوى لأنه لا يمكن للإنسان أن يتذوق لذة إنسانية كاملة إلا في الصحراء، لذة الهروب من الأدغال المربكة. ففي الصحراء، يترك كل منافس في النهاية إلى الوراء. لا يستطيع أي حيوان أن يصادفه على حين غفلة، فحتى تلك العقبات الجميلة الواهنة في سباق البقاء على قيد الحياة – الأشجار – فإنها غائبة عن النظر. في ذلك القفر الصامت، تهدأ أعصابه، وتصبح كل ملكية، باستثناء حيوان أو آلة يتنقل بواسطتها، أو أقل ما يمكن من وسائل البقاء، عديمة الجدوى وغير مرغوب فيها. إنه وحيد، وحيد مع أخيه الإنسان، فوق الأرض التي خلق منها، ومع عناصر الوجود العظيمة التي أبدعها خالقه: الشمس والقمر والنجوم. يخبره جمال الفجر السافر وبهاء غروب الشمس، وتألق النجوم يوميا بانتصاره كمخلوق. يبدو حب الصحراء لأول وهلة أمرا يخالف العقل، ولكن لا بد أن تكون غريزة الإنسان السليم متعلقة بها. وعندما يتعرف عليها فإنها تجذبه إليها

ثانية إلى الأبد " *

بينما كنا نسير ببطء انطلاقا من مخيمنا بجبل برمه، بدأنا في النقاش حول الأنواع المختلفة من الأراضي القفراء. وقد لاحظ بيل أنه قد لفتت نظره الرتابة المملة مرات عديدة، عندما كان بصدد عبور الصحاري الأمريكية وحتى السهول الكبرى. أما هنا، فإننا لم نجد أي رتابة مملة. وتدريجيا، بدأنا ندرك قيمة عنصر معدل سرعة السير. يسمح السفر البطيء للمرء بأن يحس برقة ودقة الصحراء التي تنفلت منه عندما يكون على متن سيارة تتنقل بسرعة. إن التغير التدريجي من الرمل إلى الصخر والصوان والطين والحصباء والحالة المدهشة التي تحتوي على تضارب عنيف بين قوى مختلفة للنباتات في صراعها للبقاء على قيد الحياة، كل هذا يتطلب الوقت والانتباه لإدراك قيمته.

من فوق المنصة التي تعلو ظهور الإبل، كانت أعيننا تبلغ ارتفاع عشر أقدام عن سطح الأرض. كنا نستطيع أن نرى الامتداد الفسيح للصحراء وكأننا نستعمل عدسة فسيحة الزاوية. كانت الجزئيات تتراجع لتصبح أشياء عامة والألوان تختلط في تسلسل دقيق وتغبش. وعندما ينزل الراكب إلى أرض الصحراء، يختلف حقل الرؤية فيصبح ضيقا ويبدو أن كل شيء يأخذ حجما من الخاصيات الفردية أكبر من ذي قبل، فيصبح المنظر الحجري المنبسط الذي تقع عليه العين، مجموعة من المواقع الخاصة والعوائق. وإذا ما جثوت على ركبتيك، ظهر لك منظر كامل جديد. كانت المسارب الدقيقة للنمل والخنافيس والعظايا تكون تشكيلات متشابكة ومنفصلة تشبه الكتابات المجونية على الجدران. كما جعلت نباتات تكاد تكون مجهرية أرض الصحراء تبدو كمنظر طبيعي أخضر ناضر ريان إذا شوهدت من ركن الطيار في

* فيلبي الجزيرة العربية (لندن، ١٩٤٦)، ص ١٠٥

الطـائرة. إن ما يبدو عن بعد باهتـا رتيبا يمكن رؤيته الآن مختلف الألوان ومتشابكا ومفصّلا، مثل حديقة يابانية. والسمة البارزة التي تشد الانتباه أكثر مـن غيرها هي الاقتصاد في الحياة. لقـد كانت كل نبتة تخرج فقط مـا يكفي مـن الأغصـان الصغـيرة الخضـراء النابتـة حديثـا، أو الأوراق للتمثيل الضوئي لما يتوافر من غذائهـا. أما الأغصان الأخرى الزائدة عن الحاجة، فهـي "تذوي متراجعـة إلى الجذر" دون أوراق، في انتظار المطر. كـانت كـل نبتـة تنقبض نحـو الأرض، على اسـتعداد للـبروز إلى الحياة، مثلمـا تفعل مباشـرة إثر القطـرات الأولى من الرذاذ. كمـا كـان المنظر الطبيعي الذي بدا قاحلا من على ظهر الجمل يبدو أخضر زمرديا، عندما تنظر إليـه وأنت جـاث على ركبتيك، وكـانت أزهار صغـيرة جدا تزين حدائق العظايا والجعلان غير المزروعة.

وفي وقت متـأخر من عصر يوم اشتدت حرارتـه ورطوبته فـانقبض له الصدر وأنـذر بعاصفة لم تحدث، وعلى ظهر ناقة أصابها المرض والعرج، صعدت فـوق ربوة صغـيرة، وفجـأة تعثرت في البقايـا المتعفنـة لبعض الحيوانات وجثة ناقـة كانت قد مزقتها النسـور. قريبا، ستكون عظامها التي امتقـع لونهـا قد نظفت من بقايـا سـكرة الموت الأخـيرة، ولكن في ذلـك الوقت، وفي جو من الهـواء الفاسـد لعصر شـديد الحرارة، قبضت الرائحة الكريهة جدا على حنجرتي على نحو يصيب النفس بالعلة. وبعد أن اجتزنا سلسـلة تلال أخرى، وصلنا إلى منظر طبيعي متغير تغيرا سريعا كـان يعلن عن الاقـتراب من واحـة. انكسـر السـكون بضجيج كانت تحدثه دراجـة ناريـة، وسمعنا الارتجاف المتواصل لمحركـات المضخات التي تعمل بالديزل. كانت الرمال العالية والروابي لا تزال تسد سبيلنا ولكننا نجحنا في الوصول ببطء إلى الضواحي المنبسطة لواحة بريدة.

طفنـا حـول أطراف المدينــة في طريقنـا إلى بيت الحـاكم وهـو ابن عم لملك، كان قد سمع بأننـا مصرين في عناد على عدم مغادرة الصحراء، ننصب لنا بلطف، خيمة بدوية. هنـالك، تحت الأجنحة السوداء الواقية للخيمـــة، ونحن نتكئ علـى كومـة من الوســادات ونجلس علـى بسـاط فارسي ضخم، توجه لنا الأمير وحشمه وأتباعه بالترحيب. وفجأة، وفي ظلام الخيمـــة، راعنا وميـض الأضواء عندمـا بدأ فريق لتلفزيـون الرياض عمله مسجلا كل مصافحـة. وبعد سباق شديد التنافس وهزلي إلى حد ما لإبل سكان بريدة، قدم لنا فنجان من القهوة. وبعد انتهاء المقدمات، أجرى لنا الحاكم مثل مضيفنا في الرياض، امتحانا لطيفا ولكنه دقيق، دام حوالي الساعتين. وبعد اقناع الحاكم ورفاقه بأننا كنا فعلا مهتمين ببقايا نمط حيـاة البدو وجـادين بخصـوص مـا قمنـا بـه مـن دراســة تجسيدها الحضاري، دعينا إلى تناول طعـام العشاء. ثم قدمت لي ناقة نجدية يطلق عليها اسم أميرة، لتعويض دابتي التي بدأت تتعثر في السير.

كـان تشارلز دوفتي قد أصر منذ قـرن على التصريح والتباهي بمسيحيته في أرض يعتبرهــا المســلمون حرمـا، وهـي بتلك الصفــة محرمــة على المسيحيين، ولذلـك تعرض إلى الإذلال والتهديد حتـى أنـه ضرب مرارا وتكـرارا كلمـا دخـل الجزيـرة العربيـــة متطفـلا. وكـــانت بريدة أكـثر الأمـاكن التي أقام بها خطـرا. ففي المكان الذي تم تصويرنا فيـه بواسطة التلفزيون سـنة ١٩٧١، كـان دوفتي قد وقع ضحيـة السـرقة والطرد من المدينة سنة ١٨٧٨.

(مسـكين دوفتي. لقد مر بأوقـات صعبة في كل مكـان حل به. لقد كان أوروبيا زيادة عن اللزوم بالنسبة لآسيا، كما كان آسيويا زيادة عن اللزوم بالنسبة لأوروبا. وعندما قـدم كتابه الضخم إلى الناشرين، فإنهم



أمير بريدة (عند رأس الطاولة) وقد أعد لنا وليمة ضخمة وجعل رفاقنا الذين لم يكونوا قد استعملوا الملعقة والشوكة للأكل من قبل يجزعون.

لفتوا الانتباه خاصة إلى تجربته الأسلوبية مع اللغة الإنجليزية والخليط الإنجليزي العربي، ورفضوه معللين ذلك كتابيا بأنهم وجدوا "أسلوب الكتاب غير مألوف بدرجة جعلته في بعض الأحيان يكاد لا يفهم ... وأن أغلب القراء والمراجعين ... سيقولون إن بعض الأجزاء منه لا تمت للغة الإنجليزية بصلة." وسوف لن يهتموا به إلا إذا:" أعيدت صياغته من طرف شخص كفء يستطيع إصلاح الأسلوب بما يتوافق مع التعبير الإنجليزي ... يجب أن تتم معالجة الكتاب وإعادة صياغتة وخاصة إعادة كتابة المخطوط من طرف رجل أدب من ذوي الخبرة".)

حالما غادر الأمير خيمتنا تقريبا، شرع كل منا في الإعداد لاحتفال ذلك المساء. وقد تمكنت مجموعتنا رثة الملابس، بقدر من اللعاب والتهذيب، من أن تصبح لائقة الهيئة. لم تكن مسألة ارتداء ملابس للسهرة واردة أبدا ولا حتى ارتداء ملابس أخرى، إذ أننا كنا نرتدي

كل ما نملك في الصباح وفي منتصف النهار و الليل. كنا أنا وبلبل تعبين ووسخين، ولكننا كنا فرحين بوجوهنا الشعثاء. قمنا بما في وسعنا لمسحها بواسطة خرقة ندية ثم انطلقنا في اتجاه منزل الحاكم.

كان مسكن الحاكم يقع على بعد ما يقارب الميل . كان يحيط به جدار وكان رمادي اللون، لا يدعي الجمال ولا يتنازل عن الهدوء. يستطيع المسكن بكل سهولة أن يقوم مقام الحصن. مررنا عبر مدخل فخم إلى ساحة تنتصب فيها خيمة كبيرة أخرى يقع فيها المجلس، أو تجمع الحاكم وأتباعه. ومن هناك، دخلنا بناية صغيرة ووجدنا أنفسنا وسط غرفة استقبال ذات طابع غربي. استقبلنا الحاكم واثنان من أصحابه بحرارة ورحبوا بنا. ثم جاء خادم سمين الجسم أسود اللون، يبدو أنه من مخلفات تجارة العبيد في الجزيرة العربية سابقا، بالقهوة وراح يصبها من مسافة بضع أقدام من إبريق نحاسي في فناجين بحجم البيضة، جاعلا فيها ما يشبه الكويرات الصغيرة. مضت الدقائق في حديث مؤدب حول أمور صغيرة على سبيل التآنس. هل كنا بخير، هل كنا نشعر بالتعب، هل وفقنا ا لله في المرور بسهولة، هل انقضى وقت العصر في متعة؟ هذه الجمل التي ليس لها أي معنى في اللغة الإنجليزية، تكاد تمثل أساس كرم الضيافة في اللغة العربية. وبدون أن يكرر لفظا واحدا، يستطيع مضيفنا، مثل أي عربي كريم الأخلاق ومثقف، أن يواصل الحديث لأكثر من نصف ساعة. وأخيرا، سأل الحاكم ما إذا كنا نرغب في الاغتسال. ربما كان يقصد أيدينا فقط ولكننا اقتنصنا الدعوة في معناها الأكثر سخاء. وعند قيادتنا إلى غرفتي استحمام كبيرتين، وجدنا فيضا من أباريق الماء الذي يتصاعد بخاره. نزعت حزام الرصاص وغطاء الرأس وارتميت داخل حوض بكامل لباسي الصحراوي. غسلتها قطعة بعد قطعة ثم اغتسلت بدوري. وعند خروجي من الحوض، وجدت

مرآة صغيرة انعكس فيها وجه غير مألوف، نظيف يحمل لحية شقراء. كان الماء في الحوض يشبه القهوة الفاترة. ومرة أخرى، كانت حزمة صغيرة نظيفة مرتبة من الثياب تنتظرنا. ارتديت بسرعة ملابس داخلية مصنوعة من القطن الناعم الجاف وثوبا، كانت في حزمة واحدة، وشددتها بحزام الرصاص. ثم وضعت غطاء الرأس المتميز المخطط بخطوط تربيعية حمراء وبيضاء: الكوفية، في مكانه بواسطة الحبل الأسود: العقال، ورجعت إلى الغرفة الخالية وأنا أحس بأنني إنسان جديد. ومن هناك، تم توصيلي إلى الساحة ومنها إلى مجلس الحاكم.

كان الحاكم يجلس تحت خيمته السوداء في أبهة تليق بمقام نائب الملك، محاطا بأربعين من أتباعه أو ما يقارب هذا العدد في حلقة كبيرة. وفي الوسط، في مكان مطوق بجدران من الحجر، كانت نار أعواد الحطب وهشيم الصحراء تزمزم، بينما كان الخدم يقدمون للمجموعة الدورة تلو الأخرى من القهوة والشاي. وقف الجميع عندما دخلت بخطى واسعة، ومثلما يجب أن يفعل كل ضيف قلت: "السلام عليكم"، وبصوت واحد، ردوا: "وعليكم السلام". ثم قال الحاكم وهو يغمز بعينيه: "لست متأكدا من أنك الرجل نفسه الذي رأيته. هل أنت كذلك؟". فأجبت: "لا! بل نصفه فقط. لقد بقي النصف مني على أقل تقدير في قاع حمامك. لقد أعدت لك الصحراء".

مباشرة إلى يساري، كانت حوالي عشرة من الشواهين السيبيرية تجثم على أوتادها الخشبية وهي مغماة ومقيدة ولكنها تبدو شرسة عدائية في صمت. وفي الحلقة التي يكونها الرجال، كان كل يجلس على البساط، ملفوفا في طيات العباءة ذات اللون الأسود البني ورأسه مغطى بالقماش الأبيض أو المخطط بخيوط تربيعية بحيث لا يبرز منه سوى عيناه وأنفه

وفمه. وكـان كل وجه يبدو كأنـه يكاد يكون منفصلا عن الجسد. لم يكن الرجـال يشـبهون مجموعـة من الشـخصيات المتباينـة مثل تلك التي تظهر علـى خشـبة المسـرح. وقعت عينـاي بعد ذلك على رفاقنـا وهم يجلسون في زمرة صغيرة تشـكل حلقة. ورغم أننا لم نكن بعد قد تعرفنا على بعضنا جيدا، فإننا كنا قد بدأنا في تمييز بعضنا كأفراد.

وكمـا ذكرت، فـإن رفاقنـا كانوا يتحدثـون كل مسـاء بـأمل وتطلع، حول سمعة كل سيد ذي شـأن كان من المنتظر أن يكافئهم بسخاء بتلك الأشياء القليلة التي كانت حياتهم تفسح لها المجال: بندقية جديدة، ناظور مـزدوج أو خنـاجر مـن الفضـــة. كـــانوا يتوقون إلى رمـوز الشـــرف والرجولة، ولكنهم كـانوا ينظرون إلى الهبة الماليـة بازدراء. ثم إن الهدايا الثقيلـة أو المرهقـة لا يمكن نقلها. وربمـا تكون أقل الأشـياء فائدة، تلك التعـاويذ الهشـة للحضـارة الصناعيـة: سـاعات اليد، لأن هـؤلاء الرجال كـانوا يعرفون الوقـت بالشـمس أوالنجوم أوبـالبطون والأمعـاء. كانت المواد المعقدة أو الـتي تحتاج إلى صيانـة، سـرعان مـا تذبل وتتلف. وقد رأينـاهم يلقون بهدايا ثمينة عندما تكـون عديمة الفائدة أو عندما لا تكون الحاجة إليها آنية. ولا يتم التعبير عن العرفان بالجميل بالكلمات أبدا، إذ أن الجود، في الوقت نفسه مكافأة لذاته ونتيجة طبيعية للوفرة.

غـير أنـه كـان من الملفت للنظـر أن نرى كيف أن مجموعتنـا أصبحت عطوفـــة على بعضهـا البعـض ومتضامـة. ولا يمكـن إنكـار أنهم كـانوا متضامين، وذلـك لوجود صلـة القرابـة الدمويـة والجوار والرفقـة طوال حيـاتهم، ولكن الرحلـــة كـانت قد جعلت مـن مجموعتنـا كلهـا رهطا. مجموعة تتكون من سبعة أفراد إلى العشرة"، كما يقول القاموس.

ربما يكون أحسن مظهر للرحلة وأهم باعث على الارتياح هي الروابط

التي تكونت بين مجموعة الرفاق. فخلال المرور الشاق عبر الصحراء، وصل بنا الحال إلى أن نستلطف ونشفق على بعضنا البعض في حالات الضعف. لقد برز كل رجل بشخصيته المتميزة والمختلفة تماما، وأعتقد أنه إذا كان هناك أي فائدة للجزء الأول من رحلتنا، فهي تكمن خاصة في تطوير هذا المعنى من الرفقة. ويرجع عهدها عند كل منا إلى حادثة خاصة وتافهة: المساعدة على التقاط بندقية كانت قد سقطت، أو سلطان يمسك بالجمل بينما بلبل يتخبط في صراع مع معدات آلة التصوير، أو لقاء مع غرباء. وفي مقابل ذلك، كما علمنا لاحقا، كان البدو قد بدؤوا في تطوير الشعور نفسه تجاهنا. إذ بدؤوا تدريجيا يتأثرون بهدف ومهمة رحلتنا. فالشيء الذي كان في وقت ما، أمرا من الحكومة، أصبح الآن مهمة مشتركة حتى ولو كانت غريبة. لقد التحم دون كيخوت وسانشو بانزا تدريجيا في مغامرتهما.

وبما أنني كنت قد اطلعت على روايات الرحالة في القرن التاسع عشر، فإنني غالبا ما كنت أتبرم من حدة العاطفة التي نشأت بين الرجال خلال رحلة على ظهور الإبل. وكنت أتساءل عن السبب الذي جعلهم يحدثوننا حول بعضهم البعض عوضا عن الحديث عن الصحراء وحيواناتها. بيد أنه صباح يوم ذلك الإثنين، بدأت مذكراتي الخاصة تعكس الاهتمامات نفسها.

وكما يحدث غالبا في علاقات الصداقة، فإن الرجل الذي ترك في نفسي وفي نفس بيل، في آخر الأمر، أعمق أثر، لم يظهر في مذكراتي كشخصية مليئة بالحيوية والنشاط أومتآلفة بالشكل الذي ظهر عليه الآخرون. ولم يحدث إلا بعد عدد من الأيام أن أصبح زامل، الصورة المرسومة بدقة والتي تكاد تكون منحوتة بحيث لن تمحي من ذاكرتي

أبدا.

كان لـه وجـه بدو الصحراء الـذي يشـبه الصقر، وجـه تقليدي نحيف يكاد يكـون هزيلا. كان نحيـل الجسـم، يبلغ طولـه حوالي خمسـة أقدام وعشـر بوصـات وقد بلغ العمر نفسـه الذي بلغته: إثنتـان وأربعون سنة. كـان زامل هادئا ومنطويـا على نفسـه، لا يملك طبيعـة راشـد المرحة إلى حد المبالغـة، ثاقبا في ملاحظاتـه، برهن على أنـه يتصف بالحكمة والرأي الصائب. وبينما كان راشـد في بعض الأحيان ينتابه الغضب أو الاستياء بسـرعة أثناء الأيام الشـاقة مـن الرحلة، كـان زامل يسـير بهدوء منطويا على نفسه، منعزلا، يبـدو عليه الوقار في أول الأمـر، إلا أنه تبين تدريجيا أن ذلك كان طيبة خجولة.

يتمـيز زامل بدعابـة جافة، وقد تجلـى ذلك في أحد الأيام عندمـا مررنا على مقربـة من قريـة صغيرة. حدث أن أسـرع قروي بمـا يلزم من كرم وآداب ليدعونا إلى شـرب القهوة. شكره زامل بـأدب ولكنه حثنا على مواصلة السير حيث أن المنطقة لم تكن مناسبة لإبلنا حتى نتوقف عندها. تبين فيما بعد الدافع الحقيقـي للقروي: لقد تملكـه الفضول، من يا ترى يكون هؤلاء الرجال الذين يسـافرون على الطريقة التي أصبحت لا تكاد تسـتعمل؟ ولشد ما كانت مفاجـأة رفاقنا وتقززهم عندما سأل القروي عن المكـان الذي أتينا منه. صاح زامل بلطف ودماثة: "من الاتجاه الذي يقع خلفنا طبعا". وبـدون خوف، سأل القروي وهو يجري بجانبنا، عما لا يخطر ببال البدو أبدا: "وأين أنتم ذاهبون". كان رد فعل زامل يحتوي على كل سـوء الظن الذي أنتجتـه السـنون من الغـارات والكمائن لدى عشـيرته، فقال مـرة أخرى بلطف ودماثـة: " لماذا؟ في الاتجـاه الذي يقع أمامنـا طبعا ". ثم كشر زامل لي وهو يلتفت بعيدا عن الرجل وقال: "

آه يا أبا جورج، ما أسوأ أخلاق سكان المدن المستقرين ".

وبما أن بيل شرع في تصوير المناظر لتوضيح ترجمة قصيدة لبيد عن طريق الشواهد، فقد اتضح لاشعوريا أن زاملا هو الذي يمثل دائما شخصية لبيد. كنا كلما صادفنا أحد المخيمات المتتالية، تجلى أمامنا المشهد المخلد في بداية كل من القصائد القديمة. كان زامل إذن، هو الذي يقف دائما مثل الشاعر القديم، متذكرا لقاءه مع حبيبته. لقنت زاملا الأبيات الافتتاحية لعدد من القصائد، وعلى سبيل المزح من جهة، وبإيمان من جهة أخرى، كان زامل يجلس منفرج الساقين على ظهر راحلته، ويخفض النظر إلى بقايا مكان المخيم ويعيد الأبيات:

فوقفت أسألها، وكيف سؤالنا   صما خوالد ما يبين كلامها.

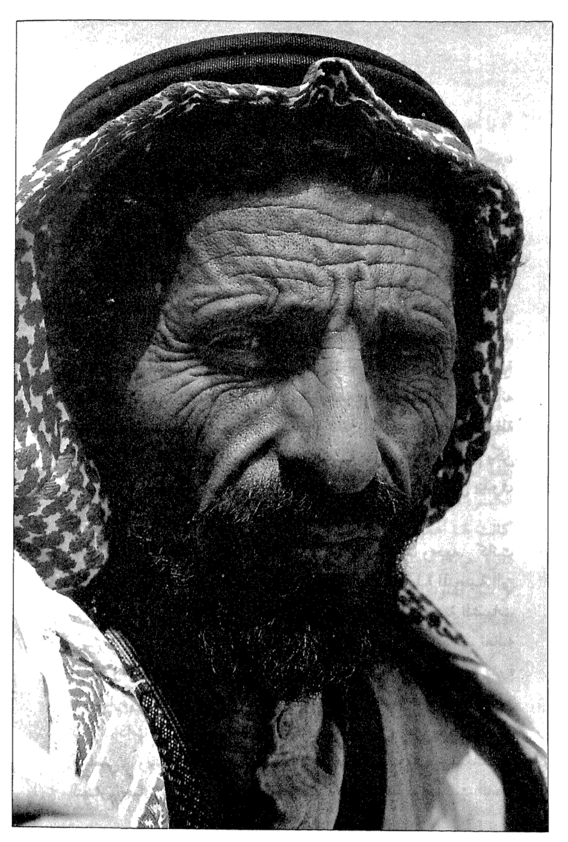
كان زامل مستمعا جيدا، لا يأتي بمعلومات بنفسه، ولكنه لم يكن يغفل سوى القليل النادر مما يقدم له. كان رجلا متواضعا وخاليا من الكِبْر، قد وصل إلى تسوية سليمة مع الحياة. وكان يعلم الأشياء التي كانت لها أهمية آنية بالنسبة إليه، ويهتم بما كان يحدث على مقربة من دائرة حياته، أما الأشياء التي لا أمل في بلوغها، فإنها كانت تشغل ذهنه أو تثير فضوله، ولكنها كانت تسلية أكثر منها تربية. فمشاهدة قمر صناعي يتنقل عبر السماء كالشهاب، كان أمرا تقل أهميته بكثير عند زامل ورفاقنا الآخرين، عن تسلسل الرواية ذات العبارات الدقيقة التي قاطعتها صرخة الفرح التي أطلقتها. وقد حدث في نهاية الرحلة أن وضع زامل أمام الخيار بين جولة بالطائرة وزيارة لمجلس أحد أصحاب الجاه الذي تربطه به صلة قرابة بعيدة، فوقع اختياره على ما كان قريبا وماديا وحقيقيا في حياته.

وفي وقت لاحق، لما وقعنا في أزمة عرضتنا إلى خطر قاتل، كان تبصر

زامل وفراسته وثباته هي الميزات التي ساعدتنا كثيرا على الخلاص.

وكان سلطان، وهو يصغر زامل سنا بقليل ويخف عنه وزنا بكثير، يتصرف بطريقة تكاد تجعله كالفتاة. كان لطيفا وحتى مغريا في حركاته وكلامه، و لم يكن أكثر من جلد على عظم. يحسب المرء أن سلطان لم يأكل أبدا إلى حد الشبع الأمر الذي جعله ضامر البطن مجوف الخدين. لكنه كان دائم الابتسام، وغالبا ما كنت أشعر بحضوره إلى جانبي، عندما كنت أتقدم في السير. وعندما أستيقظ من أحلام اليقظة التي تأخذني لرتابة الشمس والتواتر الممل لرحل الناقة، كنت ألتفت لأجد سلطان على مقربة مني وهو يبتسم بطريقة لطيفة كالطفل، بحسن نية مطلقة. كان سلطان يتعلق بكل كلمة ويعيدها ويستعملها في جمل كأنه يحاول أن يرسخها في مفردات لغته. وكانت كل دعابة أو ملاحظة تقال ارتجالا، تصبح جزءا من المجموعة اللفظية لديه. ولكن هذا لم يكن متخما و لم يكن فيه تكرار. لقد كان يعطي الانطباع بأنه رجل يتذوق ويتطعم كما يفعل الإنسان بالطعام والشراب قبل أن يبتلعه.

كانت قدما ويدا سلطان لافتة للنظر تماما مثلما كان وجهه. كانت يداه تبدوان وكأن لهما وجود منفصل، وأصابعه الطويلة المنحنية التي تتصف برشاقة ورقة الثعبان، خليطا غريبا من سهولة مرونة الشباب وآثار تقدم السن. غير أن المرونة زالت عن القدمين. كانت نعاله قاسية ومشققة كالجلد المدبغ، من جراء المشي أميالا عبر صحراء كثيرة الحجارة. وكنت أراه فيما بعد، وهو يجري بخفة على صحراء من الصوان ذات حجارة حادة ومسننة، تؤلم قدمي من خلال الحذاء الرياضي. وبينما كنت أشاهده ذات مرة، أثناء التوقف عند منتصف النهار، حافي القدمين متمددا إلى جانب ناقته، تذكرت بيت الفخر



زامل

المغرور في لامية العرب الذي يقول فيه الشاعر الصعلوك الشنفرى:

إذا الأمعز الصوان لاقى مناسمي تطاير منه قادح ومفلل

لقد قارن الشنفرى قدميه بخفي بعير قائلا: "كانت صلبة حتى أنها تطلق شرارات من الصوان عندما أمر بسرعة". ولا تبدو في هذا البيت مغالاة بالنسبة لقدمي سلطان.

كانت لسلطان أيضا الميزة التي أطلق عليها تشارلز دوفتي صفة "سفينة من الأخشاب الخفيفة". وفي وصفه لمعاناته مع البدو خلال مجاعة الصيف، كتب دوفتي: "إن الذين أنهكهم الجوع في ذلك الجو الهادئ الجميل دونما بذور من الاهتياج، لن تلم بهم الأمراض المنهكة بسرعة. يشبه البدوي سفينة من الخشب الخفيف، تستطيع أن تبقى مستقرة على الشاطئ حتى يحين موعد تيار فصل الربيع، عندما يتمكن من استيفاء حاجته الطبيعيه بواسطة وجبة وافرة واحدة، حيث يتجدد دمه بعد عدة أيام ساءت خلالها الأمور ... لقد كان الوهن الذي يسببه الجوع -داء الصحراء- منتشرا في كل الخيام"*

كانت طبيعة سلطان تحوي طاقة من القساوة لا تعرف الشفقة أو المبالاة. ولا نستطيع أنا وبيل أن ننسى رؤية سلطان، وهو يكسر أرجل يربوع بهدوء ليمنعه من الهروب، ويرينا إياه بعدما تقفى أثره في الصحراء وأمسكه. كان يشبه القط في سلوكه، وربما لم يكن غليظ القلب بل بكل بساطة غير مكترث. وكما هي الحال بالنسبة لقدميه، فإن نفسيته كانت منهكة، متصدعة وقاسية من جراء الجوع والحرمان وبؤس الحياة في الصحراء.

كان راشد متقلبا في مزاجه، مشرق الوجه والكلمة في غالب الأحيان، ينبعث منه نوع من المكر أوهته نوبات من الانفعال، وغالبا ما تراه يجهد

* دوفتي، الجزء الأول، ص ٥٢٠

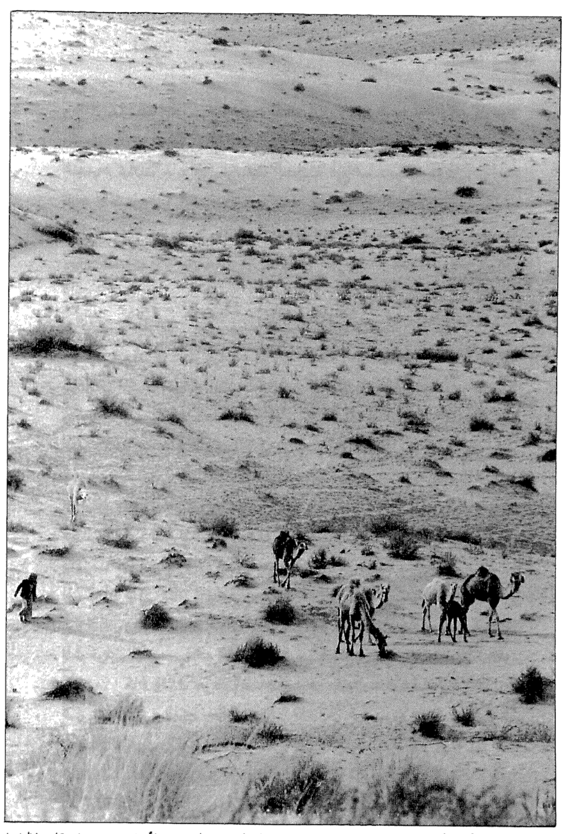
نفسه في محاولة إرضاء الغير. وفي حين أنه كان أكثر ذكاء من سلطان، فإنه كان يفتقر إلى رصانة زامل. كان يعمل بجد وكد وكان ماهرا في معاملته للإبل وكذلك عند المخيم، كان يدبر للأمر احتياطا بطريقة ليست من البدو في شيء.

وفي بريدة، عندما انطلقنا من خيمتنا قاصدين منزل الحاكم، أخذني راشد جانبا وقال: "أبو جورج، لا تحمل خنجرك هذه الليلة لأنني علمت أن الحاكم سوف يهديك خنجرا جديدا". شكرته لذكائه، ولكنني أدركت مدى ما يعطي ذلك من فكرة موجزة عن طبعه. لم يكن لأحد من بقية مجموعتنا أن يزعج نفسه ليحصل على تلك المعلومة. كان راشد يريدني أن أتفطن إلى قيمته وأن يجعل مطالبته بمكافأة أمرا جليا.

كان راشد يسعى إلى التقرب منا ليضعف عزيمتنا أو يغير مقصدنا. وبنظرة إلى الوراء، أستطيع الآن أن أدرك مدى حيف الكثير من مطالبنا وتطلعاتنا في مظهرها. كان هناك أكثر من عنصر تشابه ورد في تجربتنا دون قصد. وقد وصف سرفانتس ذلك بروعة في دون كيخوته وسانشو بانزا. كانت أفكارنا إما تافهة أو جنونية. لماذا كنا نتمسك بركوب الإبل، بينما كانت وسائل أفضل متاحة لنا؟ لماذا ننام بين العقارب والضباع في الصحراء، بينما كان الطعام والحديث والتكريم ينتظرنا في بلاط الملك؟ لماذا رفضنا عرض الحكومة السخي اللطيف بأن يبعثوا لنا كل ليلة طعاما دافئا بواسطة العربة؟ لا شك أنه لا يوجد بدوي على هذا القدر من السذاجة إذا كان يتمتع بكامل مداركه العقلية. ولكن إذا كنا نريد أن نكون سذجا، فإن حكمة شيخ البدو، هويمل، ومساعده الأول، راشد، ستتغلب بالحيلة والمكر على حماقتنا

وذلك لفائدتنا جميعا. لم تكن هناك فائدة من المجادلة ولكن المرء لا يستطيع أن ينسى أو أن يقوم، بكل بساطة، بأشياء مخالفة لما تم الاتفاق عليه. كانت هذه هي الوسيلة الصائبة التي استعملها هويمل. وأمام تفجرنا ضجرا أو غضبا، كان راشد يقوم بدور المصلح، الرجل الذي كانت مهمته تتمثل في الموازنة بين طرفي المواجهة. وهكذا، أصبحنا نستنكف من مكائد راشد، بدرجة تكاد تكون أكبر مما نفعل تجاه هويمل ذاته.

كانت مذكراتي حبلى بهويمل أكثر من أي فرد آخر، لأنه كان قائد المجموعة وقد أوكلت إليه الحكومة مهمة إخراجنا من الجزيرة العربية بسلام. كان هويمل المثال الكلاسيكي للبدوي الناجح فيما مضى. وكبدو مزيفين، أدركنا أن هذا الأمر لا يطاق أبدا، حيث أنه مباشرة عند نزولنا من على ظهور الإبل في المساء، لما كنا ننفدع جميعنا هنا وهناك مسرعين للقيام بالأعمال الروتينية اليومية، خلال الدقائق التي تتوسط غروب الشمس وإسدال الليل لظلامه كاملا، كان هويمل يتخذ مكانه قرب نار المخيم مترفعا، ويعطي أوامره بصوت جهوري، وهو يشرب قهوته الأولى:" احلب هذا "، " احمل ذاك "، " ضعه هناك ". ظننت أن بيل كان سيضربه ذات مساء، عندما كنا نقوم بأعمالنا الروتينية، وقد اشتد بنا التعب والإرهاق، وإذا بهويمل ينادي أحد الرجال المشغولين ليأتيه بردائه الخارجي الذي صنع من الفرو، ويطرحه على كتفيه. كان ذلك جرحا أصاب جوهر مفهومنا لديمقراطية الطريق. غير أن الشيء الذي جعله بغيضا عندنا في غالب الأحيان، لم يؤثر في الرجال الآخرين الذين بدوا لنا نحن على أية حال، فخورين به إلى حد ما. ربما كانت نظرتنا لهويمل غير منصفة، فهو لم يكن يريد أن يقوم بالرحلة التي كانت تبدو له سخيفة ومتعبة وخطرة، ولذلك، فقد قام



كان سلطان المسكين يكلف دائما بمهمة جمع الإبل وإعادتها إلى المخيم في الصباح، لأنها حتى عندما تعقل، غالبا ما تشرد وتبعد ميلا أو أكثر عن المخيم

بكل ما في وسعه لتفادي العناء وانتهاز كل فرصة ليمتع نفسه، وربما ليعمل على إنجاح مصالحه. لقد كان واضحا مثلا، أنه كان يستعمل علاقته بنا ليثبت مكانته عند مسؤولي الحكومة الذين التقيناهم على امتداد الطريق. ثم إنه لم يركب الإبل خلال الأسبوع الأول، بل استمتع برفاهة عربة الحكومة التي كانت تزودنا بالعلف لإبلنا كل مساء. وأثناء النهار، كان يتجول على مسافات بعيدة على متن العربة البغيضة ليتمتع بكرم ضيافة أي مدينة تقع في مجال رحلتنا، ومعه الشاهين الذي يكاد يكون بغيضا بنفس الدرجة، ليصيد الطيور البرية. ومما كنا ننظر إليه بنظرة أكثر جدية، أنه كان يحاول بإصرار أن ينقض اتفاقنا على تجنب العربة. إن كل هذه الإزعاجات البسيطة - التي تبدو سخيفة عن بعد - والتي كانت في حالتنا تلك مركبة ومضاعفة بالمشاكل المألوفة للسفر في الصحراء، جعلت هويمل محورا لغضبنا اليومي.

رجعنا إلى المجلس بعد الاستحمام السريع بمنزل الحاكم وأجسامنا نظيفة ونحن نرتدي عباءاتنا الجديدة. وكما سبق لراشد أن تنبأ، فقد أهدي إلى كل منا خنجر ذهبي مزخرف بشكل أنيق على الطريقة اليمنية. من الواضح أن الأمير كان مسرورا سرورا عظيما برحلتنا، وكان هو ذاته خبيرا بالأنماط القديمة في الحياة ومدافعا متحمسا عنها. وقد أصبح الأمير بعد تحفظه في أول الأمر، صديقا حميما ومناصرا قويا وأظهر لنا سخاءه على الطريقة البدوية السارة المتكررة.

وبعد فاصلة لطيفة من الحديث في مجلسه، تبعنا الأمير عائدين إلى منزله وإلى غرفة طعام تم إعدادها بكامل العناية والتفصيل. جلسنا هناك جلسة ثابتة إلى طاولة غربية مرتبة بأواني صينية مزخرفة بالزجاج والذهب، وتم إكرامنا بوليمة من الطعام العربي الذي قدم لنا على

الطريقـة الغربية. تبع ذلـك سكون: إن رفاقنـا الذين كانوا جد متحررين وجد طبيعيين وكثـيري الروايـات والنوادر حول نـار المخيم، قد روعهم الآن التحدي المتمثل في تناول الطعـام بالشوكة والسكين والملعقة، ومن الصحون الـتي كان يبدو أنهـا تترنح مهددة على حافـة هذه الطاولـة غير المريحة. كانت السكاكين الفضية غير حادة بحيث لا تستطيع قطع اللحم وكانت قليلـة العرض لتقدر علـى حمل حبـات البـازلا. أمـا الشـوكة، فكانت تمثل عند الإمسـاك بها بطريقة عادية مثل الخنجر، مشكلة شاذة: كانت الشعب تخطئ طريقها لتجعل من إمسـاك الطعام وحمله أمرا غاية في الصعوبـة. ويبدو أن الملعقـة كانت الشـيء الوحيد الذي صمم على الوجـه الصحيح. جعل رفاقنا، الواحد تلو الآخر، يستعينون باستدارتها المألوفـة في صيـد الأرز المتملص والخضـر. بذلت كـل مـا في وســعي لأتمالك نفسـي، ثم شعرت بـالكبت عندما تذكرت تدريبهم اللطيف لنا عندما حرقنـا أصابعنا في الجمـام المكومة من لحـم الضأن والأرز والطعام المتنـاثر على ذقنينا حـول نار المخيم. ورداً على نظـرات التوسـل، أشرنا إلى بعضنا بصمت، باقتراحـات حول الطرق المثلى للتحكـم في الشوكة. حاول كـلّ الطريقة الجديدة في عرفان. وهكـذا، ظلت قطع اللحم ثابتة طوال طريقهـا إلى الفم. لحسـن الحظ، انتهى الأكل دون تهشـيم مروع لأواني الحـاكم باهظـة الثمن الـتي صنعت من الخزف الصيـني والزجاج. ولكن رغـم كـل الطعام الـذي وضع على المـائدة المتأوهـة، فقـد غادرها رفاقنا وهم جياع.

عندمـا عدنـا إلى المجلس بمعيــة الأربعين أو مـا ينــاهز ذلك من أعيـان المدينــة، سـألت عن العـادات القديمـة لـبريدة. وبعد الخـوض في أعماق المعارف والتقاليد المحليـة، اتضح أن لا أحد يعرف فعلاً الشيء الكثير عن مـاضي المدينة. سألت الحـاكم ما إذا كنت أستطيع إحضـار آلة تسجيل

وسؤال المسنين من أهل المدينة أن يقصّوا حكايات استمعوا إليها من آبائهم وأجدادهم حول نار المخيم، قبل اندثار المعارف والتقاليد المحلية. أجاب متأسفا بأنه يخشى أن تكون قد اندثرت. كان يبدو أن واحدا أو إثنين فقط من أهل المدينة يعرفان، أو حتى يكترثان بالماضي. لقد تحولت كل الأنظار إلى الحاضر والمستقبل. كان يبدو مرجحا أنه قبل أن يتمكن الحنين من إمساك الماضي ونقله مباشرة إلى الورقة المطبوعة، يمكن أن يكون اليوم الطويل للحياة على النمط العربي قد استقر في الغرب.

الفصل الرابع

4

من بريدة إلى حائل

من بريدة ، اتجهنا إلى الشمال تقريبا. لقد أصبح الطقس باردا وكانت أرضية الصحراء سهلة ومطاوعة تحت أخفاف الإبل. وقد اعتدلت الطريق الصلدة المحدودبة التي تربط بين الرياض وبريدة والأيام القاسية الساكنة المتوهجة. يبدو أن الحظ بدأ يحالفنا. لقد اكتسبنا صلابة كافية لتحمل الرَّحْل، وبدأنا نتعود على بعضنا البعض ونقوم بمهامنا المعينة بدون عناء، ونركن إلى الرتابة التي تفرضها الإبل. نبذنا المعدات الزائدة أو وضعناها في أسفل أعدال الخرجة المتكهفة. لقد علمنا الأشياء اللازمة حقا من بين الأشياء القليلة التي كنا نحملها وتعلمنا كيف نحتفظ بها في المتناول. كان هناك نوع من المرح في مجموعتنا عززته الإقامة الوجيزة في المدينة. فبعد قطع المرحلة الأولى، تجاوزنا مرحلة المبتدئين. وشيئا فشيئا، بدأت توافه الحياة اليومية تمتلئ بالتفاصيل، الأمر الذي

جعل رفاقنا يأخذون أشكالا محددة تتمثل في شخصيات متميزة فردية ونابضة بالحيوية.

تخللت الساعات الأولى بعد الخروج من بريدة دقة مخيفة نائية، مسموعة ولكنها غير واضحة في سكون الصحراء. كان العرب القدامى، عند سماع صفير الرمال أو حالة التشوش التي يحدثها سقوط الصخور خلال الليل، وعند رؤية أعمدة شاهقة من الرمال تعلو بفعل تيارات الرياح اللولبية، يستحضرون عالم الجن الخرافي. والجن مخلوقات ليست من الجنس البشري بل هي من النار. أما الإبل التي كانت دائمة الفزع لرؤية أو سماع شيء جديد، فقد جفلت عندما اقتربنا من مصدر "أصوات الجن".

كانت أنابيب المضخات ذات محركات الديزل تمتد مثل الأصابع داخل الصحراء منذ بريدة. وكان ارتجافها الممل يحدث هذا القرع الإيقاعي أثناء مرورنا. كانت هذه المضخات تمثل في الوقت ذاته نعمة الحاضر وآفة المستقبل للجزيرة العربية.

وكما سبق أن رأينا في مزرعة هويمل في خَرْج، فإن الرجل الذي يقتني مضخة يصبح سيدا بين عشيرته. كان توزيع الماء في الجزيرة العربية الامتياز التقليدي المقصور على الأقوياء والمبجلين. فيستطيع صاحب المضخة أن ينعم بحديقة باردة تحت ظل النخيل المورق المثمر، بينما يتودد إليه جيرانه الظمآنون بحسد. والمضخة تمكنه من الاقتراب من أدق مفهوم بشري للجنّة التي ترد في القرآن: "جنات تجري من تحتها الأنهار"، حيث تسمح له بأن يخطط ويغرس ويستثمر وأن يتغلب هكذا على تقلب نمط الحياة البدوية. لكن نقل المضخة غير ممكن، الأمر الذي يجعل اقتناء مضخة يعني الانقطاع عن الحياة البدوية. وتحتوي اللغة

العربية على تعبير للدلالـة على هذا الأمر، مثلما تحتوي على تعابير لجميع المفاهيم. فعبارة "قنطر"، تعني في الوقت نفسـه، " ملك المال الكثير " و " ترك البداوة واستقر".

كانت رؤيـة أجمات من الأشـجار الخضراء التي تبرز من المنظر الطبيعي الأبيض الذي يشبه الدقيـق، ممتعة ومهدئة بالنسبة لأعيننا المرهقة المعرضة لأحوال الجو وتقلباتـه. من الواضح أن صفحة الماء الجوفي في هذا المكان قريبـة مـن سـطح الأرض، وأولئـك الذين يقـدرون على الاسـتثمار، يستطيعون ممارسة الزراعة باقتصاد في الإنفاق وتحقيق الربح. ومن وقت لآخر، كنا نرى حديقة صغيرة أو شجرة منعزلة تؤازرها وتحميها جدران مـن الطين والصخر من العـالم الخارجي المعـادي المتمثل في الماعز والإبل. وعندمـا تكـون الرمـال عميقـة وسـائبة، فإنهـا تغـزو الحديقـة وتدمر الأشـجار. وهكذا، فحتى الفلاحـة تبدو هشـة وسـريعة الزوال في هذه القفار القاسية التي لا تلين.

إن العبرة مـن هذه القصـة لا تتمثل في الانتصـار النهـائي للطبيعـة على الإنسان، إنما في هزيمة الإنسان في محاولته أن ينتصر على الطبيعة. في هذا المكان، كما هي الحال في أي مكان آخر، تستطيع لهفة الإنسان وجشعه أن يكونـا سببا في دماره. إن معظم كميـات الماء الموجودة تحـت سطح الأرض خزنت منذ عصور مـا قبل التاريخ ويستحيل تعويضها. ويرجع تجميعهـا الشـاق جزئيا إلى عشـرات آلاف السـنين من الأمطـار الضئيلة. ومثـل الابن الضـال، فـإن هذا الجيـل بصدد اسـتهلاك الثروة الموروثـة: يذهب كل يوم من الضخ بقسـائم قرن من الادخار. إن الارتجاف الممل لمضخـة الديـزل لا يشـير فقط إلى قدرة التحديـث والتطوير، بل وكذلك إلى إنفاق المـوارد بغايـة الربح في الوقت الحـاضر، الشـيء الذي يمكن أن يعتبر آخر حماقة مدمرة.

كنا نشاهد بين الفينة والأخرى جدار حديقة قد ألم به الخراب، حيث كانت مياه البئر قد نضبت والأشجار قد ماتت وارتحل الرجال والآلات، وأعلنت الصحراء عن سيادتها. كان التحول لطيفا، سهلا ورشيقا حيثما أنشأ الإنسان اعتمادا على موارد في الصحراء: بالصخور والطين، بالغماء والصوف. غير أن المجتمع الصناعي قد أتى بأشياء أخرى أقل قابلية للتخلل من نتاج صنع الإنسان وبراعته، بحيث يستبعد أن تمتصها الصحراء ثانية بتلك السرعة أو الرشاقة. وجدنا طريقنا من الرياض إلى حائل كلها مغطاة بالنفايات. تتوافر علب القصدير وقناني البلاستيك وقطع مكسورة من المعدات الآلية وبراميل النفط في أرض اختفت منها في التراب رحال الإبل والرماح والقدور التقليدية لإعداد الطعام.

أوشكت حركة الناقة المتواترة وارتجاف المضخات المتلاشي أن تنيمني وأنا أتأمل في هذه الانطباعات، عندما أيقظتني يد تلمس ذراعي. كاد سلطان أن يهمس لي، وهو ينحني ليحدق برقة في وجهي: "الناقة! الناقة! يجب أن لا نواصل بها هكذا. انظر كيف تعرج. لقد أدمت الصخور أخفافها. أبو جورج، لايمكن لها أن تواصل السير. يجب أن نتركها". قلت له: "حسنا" - وأنا أنظر إلى الدابة الاحتياطية - "ولكن أين نستطيع أن نتركها؟ لا يمكن لنا أن نتركها بكل بساطة سائبة في هذا المكان. إنها ستنفق".

انضم إلينا زامل الذي كان يسير إلى جانبنا وقال: " كلا، يا أبا جورج، سنحيد إلى النجد لنتوجه إلى مزرعة تقع خلف المرتفع القادم".

أجبت متكلما باللغة العربية الفصحى المستعملة في القرآن: "أيا زامل، أنت لم تزر هذا المكان من قبل أبدا. إني أعلم أنكم أنتم، البدو،

تؤثـرون مكايدتنا ممازحة لأنكم تعلمون أننـا لا نستطيع أن نرى بوضوح كمـا تفعلـون حتى بواســطة المنظـار المزدوج، ولكنني لا أعتقـد أنك تستطيع أن ترى من خلال الأرض".

كان من الثابت أن زامل أو سـلطان أو راشد، كثيرا ما يلاحظون ذرة هبـاء في الأفق، أكـاد لا أتبينها بواسـطة نـاظور الميدان الذي أحملـه، أو يصعب تمييزها بين الصخور أو الآجام. وعندها، كانوا يعلنون أن راعي قطيع أو امرأة أو طفلا صغيرا كـان قادما في اتجاهنا. وبعد ذلك بنصف سـاعة، كنت أستطيع أن أتثبـت من أنه إنسـان أو ناقـة. ولا شك أنهم كـانوا، بين عشـيرتهم، قادرين على تمـييز الشخص أو علـى الأقل معرفة قبيلتـه اعتمـادا على مشـيته أو لباســه. كانت أعينهـم قد تعودت على المســافات الكبيرة، و لم يجهدهـا الانشــغال بـالكتب والمطالعـة. فكانوا يسـجلون أدنى حركـة ويفكون رموزهـا، إذ غالبا ما كـانت حياتهم في الصحراء تتوقـف على الإنذار المبكـر باقتراب رجـال معـادين، أو وجود صيد بري للـتزود باللحوم. ومع ذلـك، اعتقدت هذه المرة أنني وضعت زامل في موقف حـرج. كـان واضحـا أنـه لا يسـتطيع أن يرى خلف الهضبـة و لم يكن يسـتطيع أن يعرف أن مزرعـة كـانت في انتظارنـا بعد سلسلة التلال. كان جوابه يشبه جواب شيرلوك هولمز للدكتور واتسن:

"أبـا جـورج، هـل لاحظـت، حـوالي كيلومـــتر إلى الـوراء، أن عدة مسارب قد تجمعت في واحد، وقد ديس هذا المسرب جيدا، وهو يفضي مباشرة إلى تلك الهضبة. ثم لاحظ أن هنالك فضلات حمير حديثة العهد على طول المســرب. إن الحمـير لا تعيش في الصحـراء، بل في المزارع. انظـر هنـاك". قـال ذلك وهـو يقفز بخفـة مـن على ظهـر ناقتـه ليجلس القرفصـاء أمام مجموعـة صغـيرة من الفضلات العريضـة بنيـة اللون. "لم

تمض على هذه الفضلات ساعتان أو ثلاث. وقد غادر هذا الحمار القرية بعدما أكل برسما هذا الصباح. هل ترى آثار حوافره؟ لقد كان قادما في طريقنا من وراء تلك الهضبة. لا يمكن أن يكون قد ذهب بعيدا. انتظر. سترى القرية عما قريب، يا أبا جورج".

كان على حق طبعا. فما أن بلغنا قمة الهضبة، حتى أبصرنا عند السفح، قطعة من الأرض الخضراء الناضرة الريانة، تتسع لحوالي خمسين فدانا إنجليزيا، تتوسطها مجموعة من بيوت منخفضة شيدت من الطين. وأمام المدخل المظلم الذي يشبه الكهف ويؤدي إلى مجموعة البيوت، كانت عدة أشكال بشرية مكففة تتشمس. كانت مضختهم ساكنة و لم تكن هناك أي دواب.

وفي شيء من الأدب غير المباشر الذي يكاد يكون متملصا، كان رفاقنا محترسين في إعلان حضورنا وذلك بالتقدم نحو القرية بما يلزم من الاحتراز. وكما لو كانت تذوب أمام أعيننا، انسحبت عدة من الأشكال البشرية، دون شك من النسوة اعتمادا على هيئة الجسم والقامة وليس على اللباس، إلى داخل مجموعة البيوت، وتقدم رجلان نحونا للترحيب بنا.

أوقفنا إبلنا وجعلناها تبرك ونزلنا على بعد ما يقارب الخمسين ياردة من المدخل. أخذنا بنادقنا معنا، ولكننا بقينا على مقربة من بعضنا البعض، لكي لا تبدو علينا أي نوايا عدوانية، وتقدمنا نحو القرويين وتوجهنا لهم بالتحية في سلام. ردوا التحية ثم دعونا للجلوس وشرب القهوة.

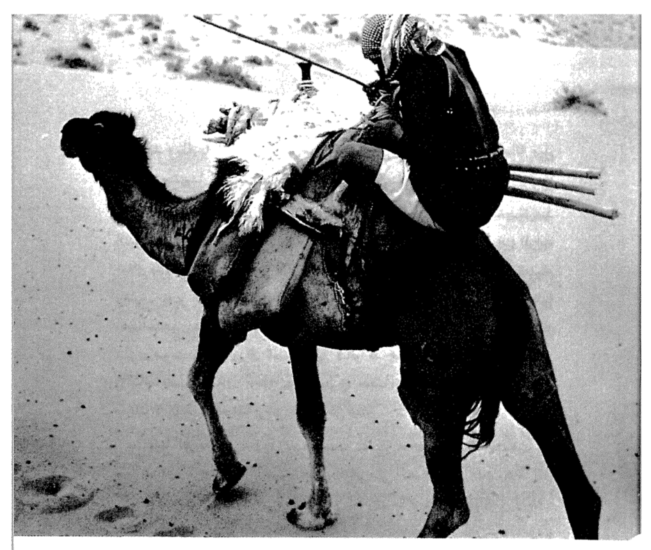
من الأمور التي لا تخطر على بال عند البدو هو أن ترفض دعوتهم، ولكن هؤلاء كانوا من طينة بشرية أخرى: مزارعين. لذلك، شكرهم

رفاقنا بأدب وتطرقوا مباشرة إلى صلبْ الموضوع بطريقة تكاد تكون غير مهذبة: هل كانوا يريـدون اشتراء ناقة رائعة، سـليمة، سمينة وقوية البنية؟ ذلك هو السـؤال الذي وجهـه راشد إليهم وهـو يشير إلى الدابـة منهكة القوى، المهملـة الـتي تعرج، والـتي تقف منفردة، بعيـدا عن مطايانـا الـتي تحمـل رحالهـا علـى ظهورهـا. خـالف الثمن المعـروض هذه الكلمـات الرائعـة، ذلك أنه كان من الواضح أن الناقـة لم تكن تقدر على السير إلى مدى أبعـد بكثـير. وبعد تبـادل بعـض العبـارات الروتينيـة من الغضب والاشمئزاز والحزن، توصلوا إلى اتفاق.

وبينما توجـه أحد المزارعين مسرعا إلى الداخل المظلم لمجموعة البيوت، تسـاءلت عمـا نستطيع أن نحصل عليـه في المقـابل. كنا لا نستطيع أن نحمل مـا نملك إلا بصعوبة وكـانت عدة أرطال من الطحـين تستطيع أن تمثـل عبئا أكـبر من الناقـة المهملـة. علـى الجبال اللبنانيـة، كنت أرى في غـالب الأحيـان صفقـات بحجم أصغر، حيـث يتم الدفع بواسـطة زيت الزيتون مقابل لفافـات من القماش. ولكن في هذا المكان، لم يكن هناك شيء حجمه صغير وقيمته كبيرة. وأمام دهشتنا، رجع الزعيم بعد بضع دقائق، وهو يحمل مقدارا كبـيرا من الأوراق النقدية المستعملة في المملكة العربية السعودية، مرتبة على نحو محكم. تم عد كل ورقة نقدية بعناية في يدي راشـد، وبدون مزيد من التظاهر بالمجاملـة، ركبنا مطايانا ثانية، بعد أن تخلصنـا من دابتنا المسـكينة ونحن مثقلون الآن فقط بـالرموز العصرية للقيمـة لم نسـمع مزيدا مـن ضجيج محركات المضخـات لقطع السـكون المتنقل لنسـيم الصحراء. وعندما اجتزنا الأراضي المنخفضة ورجعنا ثانية إلى السهل الواسع المرتفع القاحل، حثثنا الإبل على السير خببا. متيبسين على الرحال ومسرورين بالإحساس بالنعمة والعظمة فوق الظهور العالية للإبل، كنـا نبدو وكأننا نسبح فوق سـطح الصحـراء. أحسست لأول

مرة بمودة سعيدة تجاه ناقتي الجديدة، فاستويت في جلستي مسرورا بطريقتها في السير. كانت الأميال تبدو كأنها تتلاشى وراءنا في الوقت الذي كان المشهد دائم التغير لمنحدرات التلال يعطينا أكثر انطباعا عن تقدمنا مما كنا نحس به في الأراضي المنخفضة المنبسطة. سرنا بدون توقف لمدة ثماني ساعات حتى لامست الشمس الأفق الغربي. نزلت من على راحلتي وأنا أشعر، مثل عداء المسافات الطويلة، بإنهاك في كل عظم وفي كل عضلة، وفي الوقت نفسه، كنت مسرورا وخلت أنني لن أستطيع جمع قواي حتى لبسط كيس نومي. عندها، فهمت انفجار الهيجة الجنونية الذي طبع بصورة واضحة مسارح تخييمنا. لم يبق في عضلات كل رجل سوى ما يكفي من القوة والتصميم ليفك معداته ويسقي الإبل ويقدم لها العلف، ثم ينهار إلى جانب نار المخيم ليشرب المنبه المنعش من القهوة والشاي. ما كان للشامبانيا أو لكرسي وثير مريح أن يوفر مثل ذلك الطعم أوالإحساس بالمعنويات العالية. وشيئا فشيئا، كنا نشعر بوهج القوة وهي تعود إلىالعضلات المنهكة، وبالإرادة وهي تعود إلى الذهن الذي أذهلته الشمس. وكما كان رجفان المضخات في وقت سابق من اليوم، فإن التموج المستمر للحديث كان يتودد إلى انتباهنا. وبين بداية شرب القهوة وتواصل توقد نار المخيم، مضينا في حديث مطول، لطيف لا يخلو من المرح.

كان زامل وراشد وسلطان وهويمل قد عرفوا بعضهم بعضا منذ الطفولة، وكانت حياتهم مترابطة عن طريق الصداقة والجوار والنسب بصورة لا يمكن فكها، وكان مدى تجربتهم محدودا ومتطابقا بصورة كبيرة. وعلى الرغم من ذلك، فإنني لم أشهد في حياتي محادثات أكثر حدة. وقد رويت حكايات طويلة ملتبسة حتى من طرف سلطان، الذي يعتبر دون شك " متخلفا ذهنيا " في مجتمعنا، وكان الآخرون



يصعد راشد فوق ظهر جمل المؤن ليعيد تعديل حمله لكي لا يطوق نفسه بثعابين الخيمة.

ينصتون إلى حكاياته ليس فقط بأدب وإنما أيضا بكثير من التشوق.

لم تكن هـذه الروايـات أبدا، تقريبـا، من النوع الـذي نسـميه روايـات تحتوي على معـارف حول الأشـياء. بل كـانت دون تغيير تشبه قراءة مسـرحية. كانت كلها عبـارة عن حوار متواصل. وقد لاحظ بيل أثناء إنصاتـه إلى الحديث من خـلال ترجمتي، أنه كـان يسـمع باستمرار كلمة " قال ". كان ذلك بمثابـة تذكير حي لأولويـة الكلمة عند العرب مثلما كانت الحال عنـد شعوب سامية أخرى. كان العمل السيء الذي يروى بأسلوب جيد، يحظى بتقدير أكبر من عمل بطولي يوصف وصفا رديئا.

شـهد ويلفريد ثيسـجر منذ خمـس وعشرين سـنة وعلى خمسـمائة ميل جنوبا، مشهدا كان يستطيع أن يكون متعلقا بنا:

" وبعد تناول طعام العشـاء، جلسنا في حلقـة وتحادثنا حول الأعمال المفضلة عند البدو. إنهم متحدثون لا يكلون. يـروي الرجل منهم الرواية ذاتها عشرات المرات خلال فترة حـوالي شهرين إلى المسـتمعين أنفسـهم، وهـم جالسـون ينصتون باهتمام واضح. يعتبر الصمت عندهم مسألة شاقة لا تطاق. وعلى الرغم من ذلك، فعندما أخذ أحدهم ينشـد بعض الشعر، خلال ذلـك المساء، سـاد المخيم سكون لم يتخلله سـوى صوت سـحق أوراق السـاف التي كـانوا قد جمعوهـا عند الوادي، قبل ضفر الأليـاف لصنع حبـال. أخذوا يتجمعـون في حلقـة، الواحد تلـو الآخر، يكتنفهم صمت لا ينقطع إلا عندما يرددون قافية كل بيت.

يسـتطيع العرب بسهولة قـول الشعر عندمـا تتحرك عواطفهم. وقد استمعت إلى صبي يصـف، مرتجلا أبياتا شـعرية، بعض المراعي التي كان قـد عثر عليها لتوه: لقد كان يعـبر بصورة طبيعيـة عن أحاسيسـه. ولكـن بينما هـم يتصفون بحس مرهف لجمـال لغتهم، فإنهم لا يبصرون بصـورة غريبة جمـال الطبيعة، فلا يحـرك مشاعرهم لون الرمـال وغروب الشـمس والقمر وهو ينعكس في البحـر، بل ولا تصدر عنهم حتى ملاحظتها. وعندمـا رجعنا من موغشن السـنة الماضية وعبرنا الصحراء المقفرة لنصِل إلى هـلال مراعي قرة، ووقعت أنظارنا ثانية على الأشـجار الخضراء والحشيش وروعة الجبال، التفت إليَّ أحدهـم وقلت: " أليس هذا رائعا!"، فنظر، ثم نظر ثانية وقال دون أن يفهم: "لا - إنها مراعٍ فاسدة سيئة" *.

يحسب المرء أن البدو لا ينامون أبدا. فبينما كنت أتسلل عن حلقة نار المخيم لأبسـط كيس نومي عند السـاعة الثامنة أو التاسـعة، وقلما يكون ذلـك على السـاعة العاشـرة، وكـان بلبل يتـأخر في العـادة لينظف آلـة التصويـر التي يحملها أو ليتم تدوين ملاحظاتـه، تهدهده أصوات الحديث المنومـة التي لم يكن يفهم معناهـا كاملا، يظل البـدو متلملمين حول نار

---

* ثيسجر، ص ٧٢.

المخيم، يعدون ويشربون الشاي ويتحدثون حتى حوالي منتصف الليل، ليبدأوا في استقبال النهار على الساعة الثالثة أو الرابعة صباحا، وذلك بتحميص وسحق وتغلية القهوة. إن ولعهم الشديد بالرفقة – والقهوة – كان غير قابل للإشباع على ما يبدو. وبعد أن تصلبنا إلى حد ما وتعودنا على نمط حياتهم وعلى الرحلة، وجدنا أنا وبلبل أننا نحتاج إلى فترة من النوم تقل عن تلك التي كنا نحتاج إليها في البداية، وأصبحت القهوة بالنسبة إلينا حاجة ماسة تماما مثلما كانت بالنسبة لرفاقنا.

أثناء الرحلة، فكرنا في ذكريات عامنا الماضي، فتسبب لنا تذكر طعم القهوة الأمريكية، والإحساس بحمام دافئ أو حتى الألم الذي يسببه الصداع، في كدر كبير. ولكن في نهاية كل يوم، الذي كان يتكون مما يقارب الثلاث عشرة ساعة من التعرض إلى الشمس والريح والرمال وظهور الإبل، كنا نحس بكل عضلة، وكانت أعصابنا تخزنا. وأقسمنا على أن نتذكر طعم كل من مئات الفناجين التي تشبه قمع الخياط، من القهوة التي كنا قد شربناها. تناقشنا حول القهوة واستمتعنا بها، قهوة معدة بحب الهال وحبوب القرنفل، قهوة معدة بماء آبار مختلفة وكذلك بالماء الذي حملناه في قربنا المصنوعة من جلد الماعز. كانت كل واحدة تبدو كأنها تجربة ليس لها مثيل، متميزة بخاصياتها ومنقوشة بوضوح في ذاكرتنا.

إن القرآن الكريم يحذر مسلمي المدن بقوله تعالى: "ألهكم التكاثر حتى زرتم المقابر ..."(صدق الله العظيم). ولكن المرء لا يستطيع في الحياة البدوية أن يثقل نفسه بالأشياء، إذ أن الضروريات فقط جديرة بأن يتحمل الإنسان مشقة وكلفة نقلها. كما يكاد جسم المرء أن يكون عاريا، بكل ما في الكلمة من معنى، أمام العوارض الطبيعية، ذلك أنه من

المستحيل تجنب وقوع الشمس في أعينه أثناء النهار، والبرد في عظامه أثناء الليل. ومع عدم توافر ما يكفي فعلا للأكل والشرب، فإننا لم نحس بالشبع قط. كان كل إحساس، بل كل ألم يعلق بالذهن إذا لم يكن يستطاب على وجه التحديد.

يتباين عوز النهار مع وفرة الليل. لقد محت سنوات شيكاغو ذكرياتنا المتعلقة بروعة السماء في الليل. أما في هذا المكان، فإن النجوم تبدو وكأنها لا تعلو رؤوسنا إلا بمسافة قليلة.

في سنة ١٨٣٥، سافر تشارلز أديسون عبر الصحراء إلى بعض مئات الأميال شمالا. لقد ترك انطباعه حول قافلة إبل من بغداد وصفا حيا لحلول المساء.

نظرت في تأثر، وأنا أجلس أمام النار المتوهجة، متأملا في المنظر الرومنسي المقفر الذي كان يسود في هذه الوحدة الصحراوية. كانت السماء تتألق بكل تلك الروعة التي لشد ما اشتهرت بها في هذه الربوع. وكان الليل قد بدأ يبسط جناحه الأدهم في الشرق، حيث كان نجم وحيد من الطوالع الأولى يتعلق باهتا ضعيفا فوق الجبال الظليلة؛ كما تحول الاحمرار الذهبي طول الأفق الغربي تدريجيا إلى مسحة أرجوانية، وألقى لونا ناعما يانعا طوال المساحة الممتدة للسهل المقفر المهجور، مخففا مظهره الكئيب القفر؛ بينما كان القمر، الذي يتزايد نوره شيئا فشيئا، قد بدأ يتراجع الآن وراء بعض الكتل من السحب الخفيفة الناعمة كالصوف، والتي كانت تطارد بعضها بعضا ببطء في الفضاء، وتقدمت الآن لتبلغ عنان السماء النقي الصافي، مازجة نورها الخافت بنور النهار المنقضي. كان ضوء النار الساطع الذي يهتز في الهواء، يومض على ملامح البدو الغليظة الوسيمة التي يحجبها شعرهم الأسود

الطويل وتلافيف الدخان الأبيض الملتوية على امتداد الصحراء، وكانت أشكال الإبل الغامضة عن بعد، ترى وهي ترمي ظلالها على الأرض. ولم يكن يشوش سكون واطمئنان المنظر، سوى الأصوات الخافتة لطنطنة جرس الإبل أو نباح كلب الراعي، الذي يسمع من حين لآخر.

كم يحدث في هذا الجو صرف انتباه المرء باستمرار عن الأرض ليتأمل جمال السماء. في هذه السهول المهجورة التي تقدم للمسافر ذات المظهر الذي لا يتغير، والذي كانت طبيعة مساحته الشاسعة الممتدة يكسوها الشيء القليل من الجمال تجلب به النظر وتنال الإعجاب، كنا ننقاد إلى دراسة وتأمل "السماء من فوقنا" عن كثب، والخالق " الذي زينها وكساها ". لا نستطيع أن نعجب من أن شعوبا بسيطة وجاهلة في هذه البلدان تتجه إلى العبادة الوثنية "لأجرام السماء". ولكن نبي الله أيوب يقول: " إذا رأيت كوكب الشمس ساطعا والقمر لامعا، وزاغ قلبي سرا أو قبل فمي يدي (مثالا على إعجابي بها)، فإن ذلك يكون حتما إثما يعاقب عليه الرب؛ لأنني أكون قد تجاهلت الله الذي هو فوق ذلك كله."

رأيت وسط العزلة الموحشة للصحراء أحد البدو العرب يلامس سطح الأرض بجبهته تقديسا للكائن الأعلى - " ساجدا إلى الأرض " مثل الآباء في العصور الغابرة. كان يسجد فوق الصحراء المقفرة وكانت،

........" تغطيه السماء الزرقاء،

صافية الأديم، واضحة ونقية الجمال

حتى أنه لا يمكن سوى رؤية الله فيها "*.

كنا أنا وبيل نرى أحلاما غريبة ومرعبة خلال فواصل النوم. القهوة؟

* دمشق وكدمر (لندن،١٨٣٨) الجزء الثاني، ص ٢٤١-٢٤٣.

الأوجاع؟ أو ربما التوترات المتراكمة والقلق والاضطراب التي أصبحت تمثل حياتنا "الطبيعية". استيقظت عدة مرات ليلا، بسبب هذه الأحلام المزعجة لأحدق في السماء. كان المشهد يكاد يكون لغزا. ويوما بعد يوم، شعرت بجسمي يتصلب وأوجاعي تقل والهم والقلق يزولان. كنت كما لو أن جزءا من دماغي، مثل البشرة على أنفي، قد احترق ثم عوض بجزء جديد.

كان اليوم الثالث منذ مغادرة بريدة حارا وكثير الرياح، حيث تنفذ كل لفحة من الرياح الحارة من خلال ملابسنا لتجفف أجسامنا. وعند نهاية اليوم، كنت قد شربت مكيال مزادتين (بحجم ربع غالون) وأكلت أربعة من البرتقال الذي أعطي لنا في بريدة، واستهلكت خلسة، علبة تحتوي على لتر من ماء إيفيان الذي تزودنا به للطوارئ وأتيت على ما يناهز العشرة من فناجين القهوة والشاي. وعند الوصول إلى مكان المخيم في المساء، شربت لترا آخر من الماء المعلب حتى شعرت أن جسمي أصبح متخضخضا.

لم يشرب البدو طوال كل هذه الفترة شيئا. لم يكن ذلك مسألة شجاعة أو جرأة، إنما شيئا له علاقة بآلية الجسم وحمايته. وبما أنني أصبحت أشعر بحرارة أكثر خلال النهار، فإني خلعت المزيد من ملابسي، وأخيرا قضيت ما يقارب الساعة عند منتصف النهار في تشميس جسمي الأبقع، بينما كان البدو يغطون أجسامهم بإحكام بطيات عباءاتهم. وفي حين كنا أنا وبيل نناوب ساعة من السير بساعة من الركوب، كان البدو، مثل الرياضيين المحترفين، نادرا ما يجهدون أنفسهم بلا موجب، حيث كانو يركبون فقط. وبالطريقة المعهودة في حالة رحلة طويلة شاقة، فإنهم كانوا لا يقدرون على الإسراف في

استهلاك الماء الذي أحزناه. لقد كانت كتيبات البقاء قد نبهتنا إلى أن الرجل يحتاج يوميا في الصحراء، عدا خلال فصل البرد، إلى غالون من الماء على الأقل، لكي يبقى على قيد الحياة. وفي سفر كالذي كنا نقوم به متوقفين على الزاد من الماء الذي كنا نستطيع حمله معنا، فإن حسابات الاحتياجات والمخزون تؤذن بالشؤم. ذلك أنه لم يكن باستطاعتنا، بكل بساطة، أن نحمل ما يكفي من الماء لنوزع غالونا في اليوم على كل فرد. كان البدو قد تعلموا هذه الحقيقة عن أسلافهم منذ قرون، فعودوا أجسامهم على الكف عن تبديد الماء عن طريق ترشح العرق. فكانوا يبقون عليها مغطاة بألبستهم الفضفاضة الداكنة ذات الطبقات العديدة، وكانوا قد تدربوا منذ الطفولة على أن لا يشربوا إلا عندما لا يتبدد السائل عن طريق التعرق المسرف.

قطعنا مسافة خمسة وسبعين كيلومترا خلال ذلك اليوم المحرق.

وبينما كنا نواصل السير، ساعة معمية للبصر بعد أخرى، كنا كثيرا ما نخلد إلى نوع من الغيبوبة، وكنا نغفو تكرارا في نوم خفيف ولا تفيقنا إلا الرجة حين تعثر الدابة أو تحني عنقها الطويل لتنتف لفيفا من حشائش الصحراء. فيضرب الراكب الناقة بعصاه وهو يتميز من الغضب لانقطاع حلم اليقظة الذي كان فيه، ويقود الدابة الشاردة ليعيدها إلى القافلة، ثم يرتخي إلى رفيق محاولا أن يتجاذب معه أطراف الحديث. كان حاجز الغرابة قد زال بيننا منذ زمن بُعيد، فكان راشد، عندما يريد أن يخفف من قلقه، يخلد أحيانا إلى مجاحشة لطيفة مع بيل. فعندما يضبط بيل في لحظة من عدم الانتباه، وقد غفا في مقعده الذي أصبح الآن آمنا فوق ظهر الناقة، يسير راشد مقتربا منه في صمت وينخسه عند أضلاعه بواسطة عصا الجمل أو البندقية ثم ينفجر ضاحكا لرؤية بيل،

وهو ينتفض مستيقظا ويفقد توازنه للحظة. ثم يخرج زامل أو راشد من أعماق الحفر الذي يشبه الكهف في أعدال خرجتهم، برتقالة أو شيئا من التمر، فتعود الحياة إلى المجموعة. كان أي شخص يبادر بالكلام هو الذي يقرر مجرى الحديث الجديد. وكانت المجادلة تنشب في جميع الحالات. لم يكن الموضوع يلعب دورا أبدا، كما كانت الأطراف في المناقشة قابلة تماما للمبادلة ولا تمثل المحادثة في مجملها سوى ممارسة لتمضية الوقت. خلال ذلك اليوم بعينه، بادرت بالتحدث وقلت: "يبدو أن إبلنا تقطع مسافة حوالي سبعة كيلومترات في الساعة".

أجاب راشد: "أيا أبا جورج! أنت رجل حاد الذكاء، ذلك أنك كنت حقا قد سافرت جوا بواسطة الطائرات النفاثة وذكرت لنا أنك أبحرت كذلك بالسفن، ولكن الإبل جديدة عليك، ونحن بنو دواسير، أشهر مربين للإبل في العالم. لا، إننا لا نسير بسرعة سبعة كيلومترات في الساعة ولكننا دون شك نقطع ستة". قاطع سلطان كلامه بسرعة ليدعم تقديري ملمحا لراشد بأنني رجل متعلم وأستطيع قراءة الكتب، ولذلك لابد أنني أعرف أكثر من البقية. تواصلت المحادثة إلى الخلف وإلى الأمام حول مسألة التصديق، بينما حافظ زامل على المسالمة. وبما أنه يحذق المحادثة، فإنه بدا وكأنه ينتظر اللحظة المناسبة نفسيا للتدخل. وأخيرا، حان الوقت. فبعد أن المحبسا في صراع بدا وأنه فقد أهميته، التفت كل من راشد وسلطان إلى زامل لإقحام ملاحظة جديدة.

رد زامل برصانة كبيرة: "طبعا، إن أبا جورج أمريكي. ومن المعروف جيدا أن الإبل في أمريكا أضخم جسما من إبلنا ولها حدبتان مثل إبل آسيا الوسطى. وبما أن أرجلها تمتد بعيدا عن بعضها البعض، فإنها تستطيع أن تقطع سبعة كيلومترات في الساعة وذلك بتحريك أرجلها

بذات سرعة إبلنا التي تقطع ستة كيلومترات في الساعة فقط".

ذهل كل من سلطان وراشد من هذا العرض للمعرفة التي لا يفهمها إلا الخاصة وهم غير واثقين من كيفية المراوغة للخروج من هذا المأزق الذي وقعت فيه بجادلتهم. ثم التفت لي زامل مزهوا بوجهه الذي كانت تغطيه الكوفية، وأغمض عينا ببطء وعن قصد، بما لا يمكن وصفه إلا بأنه غمزة شريط سينمائي صامت.

ولكن الهدف من المحادثة لم يكن الفوز، بل تمضية الوقت. وبما أن زامل يعرف القواعد تماما مثل أي فرد آخر، فقد التفت الآن إلى الوراء لنجدة رفاقه المتلعثمين في وجومهم. قال إنه تذكر رواية حكاها له عمه حول رحلة على ظهور الإبل في العصور القديمة، فانفتحت أمامنا آفاق جديدة كاملة لإمكانيات تختلف حولها الآراء. لم تكن مسألة السرعة الأصلية في حد ذاتها ذات أهمية كبرى إطلاقا، إلا أنها سنحت بكل بساطة بفرصة، بنوع من نقطة اللقاء لأفكار جمدتها وغيبتها الشمس.

إن أكثر أنواع سير الإبل راحة - دون اعتبار السرعة - هي الخبب البطيء، حيث يعطي الجسم التأثير ذاته الذي تعطيه إياه الآلة المتذبذبة في قاعة لتخفيف الوزن أو ثقابة تتحرك حركة بطيئة؛ وهي ليست سهلة ولكنها على الأقل تجنب حركة التأرجح المملة إلى الأمام وإلى الوراء التي يحدثها سيرالناقة. كانت دوابنا متعبة بحيث لا تستطيع أن تعدو، بل إنه كان أيضا من الصعب أن نبقي على خبب سريع. وبدون اعتبار ما قمنا به، شعرت بعد ساعة فقط من السير أن الآلام قد عاودتني في مستوى أعلى كتفي الأيسر.

سرت إلى جانب زامل الذي كان يركب جملا ذكرا ضخما كنا نسميه الفيل، محاولا أن أخفف من ألمي عن طريق التسلية - وفي غالب

الأحيـان بحبـة دارفون -. يفضـل البدو ركوب الإنـاث من الإبل بتعلـة أنهـا أكثر مقاومـة. وفي الحقيقـة، فإن تفضيلهـم له تفسـير أكـثر مادية، ذلك أن الذكور مـن الجمـال تشـتهر بـالخبط الذي تصيـب بـه جسـد الراكب. ركبت الفيل لفترة قصـيرة ذلك الصباح وشـعرت بأن هيكلي العظمي كله أصيب بالتوعك أثناء عمليـة السير. كان زامل، كالعادة، حكيما منطويا على نفسه. لقد أصبحنا أنا وبيل نعتز به وجعلت أكايده مازحا بشأن واقعة ما حدثت في الصباح عند المخيم. أشرق وجهه كما كان يفعل دائمـا، وضحكنـا معا لبعض اللحظـات. ومع ذلك، تمكنت من ملاحظـة شـبح الألم الذي أصبح الآن مألوفا فقلـت: "أيا زامل، ماذا دهـاك حتى صار الألم والسـرور يمتزجان بهـذه الصورة على وجهك؟" فرد: "أيا أبا جورج. إنني بدوي، ولدت على ظهر ناقة. وبني دواسير، قبيلتي، هـم أشـهر الناس في تربيـة الإبل، ولكن الله مـا كان يريد للبشـر والإبل أن يلتقوا. وكمـا هـو الشـأن بالنسـبة إليك، فـإن ظهري يؤلمني بصـورة مفجعة". وهكذا، اقتحمـت يد أخرى صندوق الدواء، وخلال يوم أو ما يناهزه، وقعنا كلنا في شرك الدارفون.

ثبت كمـا توقعنـا في الريـاض أن الإبل كـانت واهنــة، إذ بدأت ناقـة أخـرى تعرج وتوقفت بكل بسـاطة عن السـير. كان رفاقنـا يعلمون أنه ليس بالإمكــان إرغامهـا علـى التقدم بـأي قـدر من الضـرب أو العقل. لذلك وجـب إنزال الحمولة من علـى ظهرها قبل أن تسـتطيع التحرك ما لا يزيد عن بضع خطوات إلى الأمام، وذلك يعني بطبيعة الحال، أنه كان علينا أن نعيد توزيـع حمولتها على البقيـة. كـان من الخطورة بمكان، أن نحـاول صب الماء مـن قربة ملأى إلى أخـرى فينتهي أحد الجمال بثلاث. وقد سبب هذا الأمر مشكلة توازن، لذلك أمضينا بعض الوقت في تأمين حمولة عادلة بقدر معقول.

تتمتع الإبل بحس مرهف لافت للنظر للإستقلالية الوقورة، فهي تستاء بسرعة وعادة ما تعتقد أنها تغالط، مما يجعل شخصيتها أمرا عجيبا. وقد أنتجت العلاقة الحميمة التي هي في الحقيقة اعتماد تام للإنسان على الجمل في بعض الأحيان، عالما من الأساطير ومجموعة من المعارف الخاصة حول الإبل عند العرب. إن البدو الذين يجدون متعة في اللغة ويعتزون ببراعتهم فيها يسندون تقديرات مرتفعة للجمل. وفي تصوره، للفوز في لعبة العرب ذاتهم، اتخذ ذلك المظهر الخاص بالترفع والاستكبار. وليست الإبل حيوانات خرقاء غير مريحة وكريهة الرائحة فقط، بل هي كذلك شرسة الطبع حمقاء. لقد سعينا إلى إعادة قول أوغدن ناش المأثور بأنه "لا يرد في أي ديانة ما يجبر الإنسان على حب حمامة"، غير أن الطبيعة الصعبة للجمل تصل حتى إلى صعوبة التناغم مع اسمه.

كانت ناقة بيل تسمى لنتش بوكس (صندوق الغذاء)، ويرجع ذلك إلى قدرتها العجيبة على ملاحظة أي طرف للكثيب توجد فيه نبتة صالحة للأكل. وكانت كل الإبل تبرم أفواهها فوق أعناقها الطويلة لتسحق قضمات من كل النباتات التي كنا نمر بها تقريبا. ومع ذلك، فإن بعض النباتات التي كانت تبدو أشد خضرة وأحسن طعما من الأخرى، في أعيننا التي تنقصها الخبرة، كانت دائما ما يقع الإعراض عنها. أما لنتش بوكس، فقد كانت تكاد لا تغفل فرصة لتنال قضمة. وكان من الواضح أنها سوف تبقى على قيد الحياة، وكانت فعلا الناقة الوحيدة التي نجحت في إنجاز الرحلة كاملة.

على الرغم من احترام بيل لناقته، فإن شعورا يعوزه الحب إلى حد بعيد كان يوجد بينه وبينها. وعند العودة إلى ما مضى والتأمل فيه، فإني

أعتقد أن علاقتهما التي انبنت على الاحترام المتبادل، كانت أكثر من الجيدة مقارنة بتلك التي كانت توجد بيني وبين ناقتي. كانت لنتش بوكس لا تزال تواصل الرحلة، بينما وجب تغيير ناقتي الأولى بعد أسبوع من السفر. وفي اليوم الأول عضت لنتش بوكس بيل، ولذلك ضربها ضربا شديدا بعنف وهوج محدثا فيها مزيجا من الرهبة والاحترام تجاهه، فعندما يقترب بيل، تنحز لنتش بوكس أداء شعائريا: في البداية تهر وتكاد ترغي وهي ترفع ذيلها وتبول واقفة وأرجلها ممدودة بتيبس، ولكن دون أن تقوم بمحاولة للفرار. وعندما يقترب بيل، تبرك وتستنيخ على الرمال. وكان ذلك من السخرية بمكان حيث أن بيل كان قد حذق الحركة الرياضية لركوب الناقة أثناء سيرها.

عاملت ناقتي برفق مفرط مقدما لها علفا إضافيا وملاطفا إياها بحنان ومتحدثا إليها بما يبعث فيها السكينة. ونتيجة لذلك، تمادت في إطلاق العنان لحماقتها الكبيرة بالشرود بعيدا عن الطريق ومحاولة الفرار عندما أقترب منها للركوب، والانتصاب واقفة قبل أن أثبت في مكاني فوق الرَّحْل. كان بيل الحاكم البريطاني الذي يضرب السكان الأصليين ليجبرهم على الخنوع، بينما كنت أنا المصلح المتحرر الذي يتقدم مباشرة نحو سقوط مروع عندما يثور السكان الأصليون في وجهي.

إن الشعور بالرفق والحنان تجاه الإبل أصعب منه تجاه الخيول. فالجمل دابة حرونة منفرة حتى في أحسن حالاته. ولا يمكن لك أن تصدق مدى كراهية رائحته إلا عندما تقف على التجربة. وحيث أنه يتعذر نَقْعُ صفحات هذا الكتاب في رائحة فم الجمل، فإنه ينبغي عليَّ أن أطلب منكم تصورها.

على المبتدئ أن يأخذ بعين الاعتبار الحقيقة المتمثلة في صبر الإبل على

شـرب الماء لعـدة أيـام متتاليـة، وبمـا أنها تواصـل التبول، فإن سـوائلها الجسـمانية تصبح مركزة أكـثر وذات مفعول أقوى. وبعد مـرور بضعة أيام، يـأخذ لعاب الجمـل لونا أخضر زاهيـا. ولاشـك أن تلك العصارة ذات مفعول شديد لتقوى على الغـذاء الذي يأكله الجمل. رأينا إبلنا في عـدة مناسـبات، تمضغ وتلوك راضيـة غذاء من أشـجار شـائكة. كانت الأشواك بحجم المسامير التي يبلـغ سعرها عشرة بنس وهي حادة كالإبر، ولكنــه كـان يبدو أن الإبـل لا تهتم حتى بمضغهــا حيث كـانت تقضم الأشـواك وتبتلعها كاملـة على ما يبدو، معتمـدة على عصاراتها الهاضمة لتحويلها إلى غذاء صالح. لقد لفت المنظر عينه انتباه تشارلز دوفتي:

" كانت الإبل ذات الأعناق الطويلـة تنتش أثناء سيرنا من هذه الأغصان الشائكة للأوراق حلـوة الطعم التي تشبه السـنط. والعجيب أن هذه الأشـواك الصلبة الحادة الطويلـة بحجم الإصبع لم تكـن لتشـك بلعمها الكبـير اللين! – أشـواك تسـتطيع أن تخترق بـاطن الأقدام الخشـنة وتصيب أقدام البدو الحافيـة بجروح بليغة. وقد عرفت رجالا لزموا الفراش طويلا بسبب تلك الحوادث. وعندما سألت بعض البدو حول هذا الموضوع، أجابوا: "إن العـالم مليء بالعجائب التي خلقها الله! وقد كُيِّفَ كل مخلوق مع طبيعـة حياته. وعلاوة عن ذلك، فإذا أمعن المرء النظر داخل فم أي جمل بعد ذبحـه، فإنـه سـوف يجد طبقـة جلديـة لينة ولكنهـا سميكـة سمك إصبعك، تتميز بصلابة شديدة حتى أنه لا يمكن للشوكة أن تخترقها بسهولة " *.

ذات ليلة، انتشـلتني من أحلامي رائحة تفوق في كراهتها جميع الروائح التي عرفتهـا في حياتي. كان الحلم الذي أفقت منه ينبئ بأن:" كل شيء هـادئ على الجبهــة الغربيـة "، بعد هجـوم اسـتعمل فيـه غـاز الخردل. خرجت من كيس نومي وأنا أسعل وأشعر بالغثيان، وإذا بي وجها لوجه أمـام أميرة الجميلـة الحنـون، التي كانت تجـتر في هدوء مقرقرة متجشـئة.

* دوفتي، الجزء الأول، ص ٤٢٥ - ٤٢٦.

انتصبت واقفا على قدمي وطردتها بعيدا مستعينا بعصاي، ثم عدت إلى النوم. وبعد فترة وجيزة، وكأن الشريط يعاد عرضه، أفقت مرة أخرى من حلم مماثل وللسبب عينه. وفي هذه المرة وعندما استويت جالسا، وجدتها تلتفت إلى الجهة الأخرى.

في الصباح التالي وبعد سير ساعة فقط، اتضح أن جميع الإبل كانت في حالات مختلفة من الانهيار باستثناء لنتش بوكس المهيبة وناقتي أميرة. كان يتم تذكيرنا باستمرار بالإنذار الذي وُجّه لنا في قصر الملك في الرياض، والمتمثل في أنه ليس فقط الرجال قد أصبحوا سريعي التأثر مع بداية استعمال السيارة، بل وكذلك الإبل. لقد بدأت ثلاثة منها تعرج وكان قد سبق لنا أن تخلصنا من اثنتين. لذلك اتجهنا إلى الغرب تقريبا نحو الجانب الشمالي لجبل الشمر. كان يقع إلى يسارنا في اتجاه الجنوب، أحد أشهر المعالم الأثرية للشعر العربي القديم: جبل سلمى والمدينة الصغيرة فايد التي يرد ذكرها في قصيدة لبيد، وقصر يشتهر بأنه كان يتردد عليه عدد من الشعراء القدامى. كان هذا أحد تلك الأيام العديدة التي سيجعلنا نندم على أننا لم نسافر في زمن كان الترحل فيه يسيرا، والأدلاء على ما يكفي من الصلة بالتقاليد الطويلة من المعارف الخاصة بالصحراء التي كنا نستطيع أن نعيشها بإحساس صميم من التاريخ. بالنسبة إلى " أدلائنا "، كانت هذه الأرض غريبة مثلما كانت بالنسبة إلينا، و لم أتمكن من إعادة استعمال البعض من حكايات المنطقة إلا بالبحث في أعماق ذاكرتي.

إن جبل الشمر هو الإسم الحديث لجبال طيء. وقد عرفت قبيلة طيء من خلال المآثر العربية المدرجة بصفة خاصة في مواد لغوية حول دراسة النحو وعلم الكلام، بأنها قبيلة العرب الشواذ، حيث يقال دائما إنهم

كانوا قد حرفوا قواعد النحو. وبعد أن قام النحويون التقليديون بوصف الطريقة التي ينبغي أن تتبع في كتابة فعل أو اسم، كانوا كثيرا ما يقولون "ولكن أهالي طيء قالوا إنها تكون على هذه الصورة أو تلك". ويتعامل متكلمو اللغة العربية مع النحو كما يفعل الأمريكيون مع ألغاز الكلمات المتقاطعة. فالنحو ليس موضوعا عويصا، إنما هو مجرد لعبة. حيث أن الأطفال كثيرا ما يحفظون، عن ظهر قلب أثناء سنوات الدراسة، كتب النحو التي نظم بعضها في قصائد شعرية. كما أن كل رجل متعلم، ما عدا أدلاءنا البدو - قد تعرض ربما إلى الاستعمال الشهير الذي يتنافى مع الفصاحة في اللغة العربية والمنسوب لأهالي طيء وهو: " أكلوني البراغيث " - وبتحريفهم لقواعد النحوالعربي، خلد قوم طيء ذكرهم بقول " أكلوني البراغيث ". وينحدر قوم طيء، وهم رجال أشداء يؤثرون الذات الفردية حتى في ما يخص النحو، من موطن مثالي: جبال غوطية تقع في طرف الصحراء الرملية المديدة. غير أن قبيلة طيء قد اندثرت، إذ تم امتصاصها من طرف الفتح الإسلامي مثلما حدث لقبائل عربية أخرى بالجزيرة العربية. واليوم، عمرت هذه الجبال التي تقع على حافة الصحراء بقبيلة الشمر، وهم شعب رومنسي نابض بالحيوية بطريقتهم الخاصة. كنا نسير نحو "عاصمتهم" حائل.

ربما كانت الاستقلالية هي القيمة التي يرعاها البدو أكثر من غيرها. كما كان مفهوم السلطة عندهم هو الفوضوية التي يتصرف الناس فيها صوابا حسب مفاهيمهم الخاصة دون الاعتراف بسلطة خارجية، ولا يخشون إلا عقابا واحدا: الطرد من طرف أبناء عشيرتهم.

يكاد كل ملاحظ للمجتمع القبلي العربي أن يعيد كلمات دجون بوركهارد الذي كتب وهو يفكر مليا في سنوات السفر العديدة التي

قضاها بالجزيرة العربية خلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر:

" إن العرب أمة حرة بدرجة تقترب فيها حرية الأفراد واستقلاليتهم من الفوضوية ... ولكل قبيلة عربي شيخها الكبير، كما يترأس كل مخيم (إذ إن القبيلة غالبا ما تعد الكثير من المخيمات) شيخ أو على الأقل رجل عربي يحظى بشيء من الاعتبار، ولكن الشيخ ليس له نفوذ حقيقي على أفراد قبيلته. وعلى الرغم من ذلك، فإنه يستطيع اعتمادا على خصاله الشخصية أن يؤثر تأثيرا بالغا. وقد تواجه أوامره بالازدراء، ولكن نصائحه تحظى بالاحترام إذا كانت عشيرته تعتبره رجلا يحذق التعامل مع الشؤون العامة والخاصة " *.

تتضمن مهمة اتخاذ القرار أنقى أشكال ديمقراطية المساهمة، حيث يكون القائد أكثر الأفراد احتراما بين نظرائه، ولكن حين يدفعه غروره نحو السلطة، فإنه سرعان ما يزدجر من طرف رفاقه. وفي حالة الخلافات الحادة، تنقسم المجموعات لتذهب كل في طريقها. وفي الحقيقة، يكاد تواتر نمو وانقسام المجموعات البشرية يكون فيزيولوجيا.

إن القرابة هي الرابطة الوحيدة التي توثق الصلة بين الناس، أما الروابط الأخرى، فتكاد تكون أمرا لا يتصور. وحتى أعمال الكرم تجاه أناس ليسوا من أقارب المرء، باستثناء ما يتطلبه إكرام الضيف في الصحراء، فهي تعتبر بدون مبرر، بل قد تستوجب اللوم. وعلى العكس من ذلك، فإنه ينتظر من البدوي أن يكون كريما تجاه قومه بدرجة تكاد تصل إلى الانتحارية.

يظل الناس بالضرورة وحيدين لفترات طويلة في الصحراء. وفي هذه الظروف، يكون من الواضح أنه يستحيل على الفرد أن يدافع عن نفسه بسهولة إذا نصب له كمين أو هاجمه عدد كبير من الرجال. وحتى عندما يسافر مع فريق من رفاقه، فإن احتمالات الكمين واردة دائما.

* بوركهارد، الجزء الأول، ص ١١٥.

مـا في مجتمعنا، فقد أوجدنا بالطبع إجـراءات وقاية وعقاب عهد بها إلى
سـلطة معنويـة مسـتقلة. لكن مثل تلـك السـلطة لا يوجد في المجتمع
لصحراوي التقليدي. ومن حين إلى آخر، ترفـع نزاعات بين مجموعات
ن النـاس أو أفراد للتحكيم، غير أن ذلك التحكيم، مثل محكمـة العدل
لدولية الحديثة في لاهاي، هو وظيفة استشارية لا تترتب عنها عقوبات.

ثـم إن دور الحكـم في المجتمع البـدوي لا يتمثـل إلى حد بعيـد في تنفيذ
المبادىء النظرية للعدل بقدر مـا يتمثل في الوصول إلى اتفاق سياسي بين
وجهتي نظر. والكلمـة العربيـة للعدل توضـح المعنى: إنهـا تعني كذلك
نسوية العدلين.

ولكن ماذا يستطيع الفرد أن يفعـل للدفاع عن نفسه ما دام لا يستطيع

شيخ عربي في مدينة حائل وهو يبدو مرتبكا بسبب تكاثر السيارات التي غزت بلاده.



لا الاعتماد على قوة ساعديه ولا على أي سلطة عليا؟ إن الجواب الذي نشأ في المجتمع العربي قديم قدم الأزل. فمنذ المستوطنات البشرية الأولى، حوالي خمسمائة جيل إلى الوراء، سعى الناس إلى تقييد أو منع عنف رفاقهم. وكان الثأر هو الحل الأكثر انتشارا. فقد تم تجميع وتصنيف القوانين أولا في بلاد ما بين النهرين، ثم وصلتنا من خلال العهد القديم وأعراف العقاب المفصلة لكل الحضارات. إن الثأر هو الواجب المحتوم الملقى على عاتق كل بدوي تجاه الظلم الذي يرتكب في شأن أقاربه، فينبغي عليه أن يجازي " العين بالعين " حيث أنه لا يمكن لعقوبة الثأر أن تكون ناجعة إلا عندما يتم تنفيذها فعليا.

وهكذا فإن كل قيمة في المجتمع - إسلاميا كان أو مشركا - عملت على تقوية الدرجة المطلوبة من اليقين. لم تكن هناك سبيل إلى التماس عذر أو تعليل أو ظرف مخفف أو حتى حادث غير مقصود. يجب علي وعلى إخوتي وأبناء عمومتي أن نثأر منك، أومن إخوتك أو من أبناء عمومتك للضرر الذي ألحقتموه بي. وعندما يتعذر الثأر، كما هو الشأن داخل مجموعة ضيقة من الأقارب، لا يمكن عقاب المذنب إلا عن طريق الطرد. وعندما تكون هناك رابطة قرابة - نظريا على الأقل - بين المجموعات المذنبة والضحية، يمكن الوصول إلى تسوية بواسطة غرامة تدفع نقدا أو عينا. ولكن في حالة العشائر غير المترابطة ببعضها والمنتمية إلى قبائل مختلفة، فإن الثأر يفرضه الشرف.

لم يستطع هذا النظام إحلال السلام في الجزيرة العربية - مثلما قد لا يستطيع إحلال السلام في العالم الحديث -، وذلك لأن الأعمال التي تعتبر في نظر الطرف المعتدى عليه بمثابة الثأر، تكون في نظر الطرف الآخر بمثابة العدوان. فإذا بدأت العداوات، فإنها عمليا لا تنتهي أبدا.

وبإعادة تهييج النفوس من جديد، تبقى العداوات طويلا بعد أن يكون كلٌّ قد نسي مصدرها. ومرة أخرى، علق مراقب نبيه للحياة العربية بقوله، إن الخوف الرهيب من الثأر ربما منع مزيدا من عدم الاستقرار.

يقول بوركهارد: " يذهب بي الظن إلى أن هذا العرف الناجع قد ساهم، بدرجة تفوق أي ظرف آخر، في منع القبائل ذات الميول إلى الحرب في الجزيرة العربية من إبادة بعضها البعض. حيث أن حروبها في الصحراء تكون بدونه دموية مثل حروب المماليك في مصر؛ وبما أن الأسباب الرئيسية للحرب موجودة طالما واصلت الأمة نمط حياتها البدوي، فإنه يصعب الشك في أن حالة حرب متواصلة ستجعل أقوى القبائل في وقت قريب لا تتعدى أن تكون مجرد اسم. غير أن " ثأر الدم" الرهيب يجعل أكثر الحروب تأصلا، تكاد تكون خالية من الدماء ..*"

لقد حافظ البدو في حياتهم فعلا على مجموعة من القوانين الصارمة والتزموا بمنع الحرب لمدة أربعة أشهر كل سنة. زيادة على ذلك، فإنهم احترموا أماكن مقدسة كان القتال محرما في حدودها. وفي ما عدا هذين الاستثناءين، فإن الحالة في الجزيرة العربية كانت حربا دائمة بين القبائل وخصومات متكررة بين العشائر داخل القبيلة. وفي الواقع، تبدو الخصومات بين المجموعات التي تعرف بعضها أشد مرارة، وكلما اشتدت الخصومات مع العالم الخارجي، ازداد إخلاص أفراد المجموعة إلى بعضهم. وقد ألمع أحد الشعراء الجاهليين القدامى إلى موضوع "مع عشيرتي في الخطأ و الصواب" عندما أنشد في شأن قبيلته، غازيه: "ما أنا إلا جزء من غازيه؟ أضل إن ضلت وأهتدي إن اهتدت ".

في أكثر القصائد العربية القديمة مرارة وفخرا، لامية الشنفرى الذي طردته قبيلته بسبب عنفه وعصيانه. يتخذ الشاعر الذئاب "عشيرة" له، حيث يجدهم أعلى مرتبة من الجنس البشري في الصدق والإخلاص.

---

* بوركهارد، الجزء الأول، ص ١٤٨ - ١٤٩.

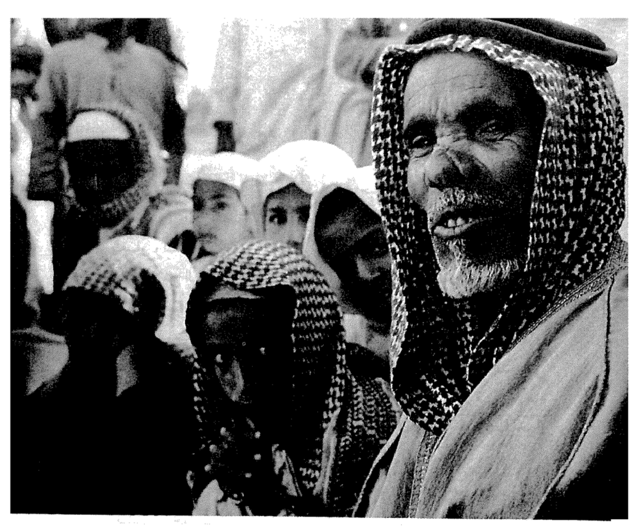
كانت العشيرة أصغر مجموعة تستطيع البقاء في الصحراء. وربما يكون أوضح درس في كتيبات البقاء على قيد الحياة الحديثة، إن الرجل المنفرد ليس له سوى حظوظ ضئيلة في الصحراء. فالبقاء مهمة جماعية، وما هو صحيح في ما يتعلق بالبقاء، هو أكثر صحة في عملية المحافظة على اقتصاد قابل للنمو: إن الصحراء تتطلب التعاون.

تتميز حتمية الولاء في ثقافة البدو بأنها أساسية وعميقة أكثر من جميع المتطلبات الاجتماعية الأخرى على الإطلاق، وذلك بسبب المتطلبات الاقتصادية ومهمة الدفاع عن النفس المريعة بين شعوب متعادية مولعة بالحرب. ومثل الشنفرى، فإن الرجل الذي يذهب في سبيله يكون محل إعجاب بسبب شجاعته، ولكن لاعب الفريق هو الذي يعتبر دون شك المثال الأعلى للمجتمع البدوي. ولم تجد هذه المثل العليا المتضاربة سبيلا إلى الحل أبدا، فكانت التوترات التي تثيرها الباعث الرئيسي للحياة في الصحراء.

إن القوى الفعالة التي حشدت لتؤثر في الفرد وتضمن قيامه بواجباته نحو قومه، كانت قد عوضت بالقوة النابذة لأنانيته، مما أوجد للفرد في النهاية خيار الانشقاق عن قومه ليلقي بنفسه تحت رحمة قوم آخرين، أو يعيش حياة الخارج عن القانون كما كان الشأن بالنسبة للشنفرى.

إن الشقاق وتأصل النزعة الفردية لميزة مفسدة للحياة العربية بدرجة جعلت الكثيرين ينظرون إليها على أنها أكثر ميزاتها انتشارا. وحتى عندما يقوم الشاعر المخلص، وهو النذير والداعية والمعلم والصحافي بتمجيد قومه، فهو يبرز خصائله هو كمقاتل وفارس وصياد ودليل عبر الصحاري الخطرة وغير المطروقة.

لقد كان ما لاحظه بوركهارد في عصره صحيحا عبر التاريخ العربي:



كان سكان ما كانت تعرف في يوم من الأيام بأنها أرض الإبل يحدقون فينا بفضول لأننا كنا غربيين وكذلك لأننا نمتطي الإبل.

" إن القبائل العربية في حالة حرب دائمة مع بعضها البعض. ونادرا ما يحدث أن تتمتع قبيلة بفترة من السلم العام مع جميع جيرانها. بيد أن الحرب بين قبيلتين قلما تدوم لفترة طويلة حيث أنه من السهل إحلال السلم ليتم نقضه ثانية بتعلة أوهى الذرائع. والحرب عند العرب هي حرب أنصار وقلما تنشب معارك عامة: فالأهداف الرئيسية للطرفين هي مباغتة العدو بهجوم مفاجئ ونهب المخيم. وهذا هو السبب الذي جعل حروبهم غير دموية، حيث أنه عادة ما يتم الهجوم على العدو بأعداد كبيرة، الأمر الذي يجعله يستسلم دون قتال أملا في رد الفعل تجاه مخيم ضعيف للطرف الآخر ".*

نظرنا إلى الغبار وهبوب الرياح المتمورة بانتباه كبير، إذ أننا بوغتنا على

• بوركهارد، الجزء الأول، ص ١٣٣.

حين غفلة لما فسحت سحب الغبار الحاجبة، المجال تدريجيا ولكن فجأة للمطر. لاحت أمامنا سحابة مطر قاتمة اللون بدت مثل جدار متين من الغبار والماء، تحرسها كما تحرس القصر الأثري، ثلاثة رياح دوامة منفصلة من الرمال التي علت فوق رؤوسنا. في تلك اللحظة، بدت فعلا كأنها جن الصحراء. كان سلطان مذعورا حقا. أما بلبل، وهو الذي كان قد استعد لمثل هذه اللحظات بجلبه لآلة تصوير تعمل تحت الماء، فكان يعتقد ويأمل أنها ستكون مانعة لنفوذ الغبار الملتوي الدوراني العنيف فيها، فكان يجري بسرعة من جانب إلى آخر، مرة إلى الأمام وأخرى إلى الوراء من قافلتنا الصغيرة، محاولا أن يصور شريطا حول اندفاع العاصفة فوقنا.

فجأة، وكأن إشارة بعيدة قد أعطيت، دوى الرعد حولنا من كل جانب. تجمدت وتسمرت في مكاني من الفرح لأنه قبل أن تأتي السحب الممطرة بقليل، كان بيت للشاعر لبيد يدور في ذهني. لم يكن هناك ما يثير الخيال - الخيال الحسي - للشعراء البدو أكثر من المطر. لقد سمح لبيد لأحاسيسه بنوع من الانغماس المفرط حول المطر في أحد أبياته:

من كل سارية وغاد مدجن   وعشية متجاوب إرزامها

جاء الرعد تماما مثلما ذكر الشاعر، مدويا في اتجاه ومحدثا صدى في آخر. لم تكن عاصفة منفردة بل مجموعة من الفرسان السماوية، كتلا كبيرة الحجم من السحب التي تنفتل بسرعة عبر السماء في طور التكوين.

وبعد بضع ساعات، أبصرنا مرتفعات جبل سلمى وقد حجبتها السحب. لقد انقضت ثلاث سنوات منذ أن نزلت آخر أمطار هامة

على هـذه المنطقة، الشـيء الذي جعل المحنـة شـديدة بالنسبة للإنسـان والحيـوان، حيث كـانت القرى قد ظمئـت والحيوانات قـد هلك القسـم الأكـبر منهـا والنـاس قد لجأوا إلى أطـراف مدن الواحـات لاسـتجداء والتماس العمل أو الغذاء. تضرعنـا إلى الله ليجعلها أمطارا غزيرة طويلة المدى. كنـا نسير وننظر إلى الأسـفل متطلعين عند أقدامنـا، فبدأنا نرى أزهارا صغيرة تتفتح بعد بضع ساعات فقط من بداية الأمطار، وكان من العسير أن نصدق حدوث هذا الشيء بهذه السـرعة. كما كانت الإبل في ابتهاج غـامر وهي تمضغ الأزهـار الغضة بصـوت طاحن. وقريبا، في ذلك الوضع الدينصوري الذي تتخـذه ليلا، ستبرك وتمـد أعناقها الطويلة الغريبـة، ثم تبدأ في اجترار الأشواك والنباتات الطفيلية الحلوة وتعيد مضغ مـا لم تذبه حوامض معداتها المرة، محدثة صوتا يشـبه التدفق المفاجئ لماء المرحاض في مسكن جدرانه غير سميكة.

في اليوم الثـالث عشر، وصلنـا إلى حائل، وهي المدينـة التي تكاد تكون عنـد أقصى نقطـة إلى الشـمال مـن السـهول المرتفعـة بـالجزيرة العربيـة الوسطى لنزور ابن عم الملك، الأمير عبد العزيز.

اقتربنا من وسـط المدينة مرورا بمكان السـوق وصولا إلى قصر يستطيع الملك أرثر أن يشعر فيه أنه في بيتـه. اجتزنا ممرات ضيقة ملتوية وصعدنا درجا شديد الانحدار ثم عبرنـا ساحة، فوصلنا إلى المجلس. هنالك، كان الأمير الطاعن في السـن يجلس مع أتباعه متقلدين كامل أسلحتهم. قلنا: "السـلام عليكـم"، فوقفت المجموعـة كلهـا بصلصلـة المنـاصل وطرطقـة البنـادق وردت السـلام. راح الأمير يصافحنـا في وهن، وعلى الرغم من أنه أدرك الخامسـة والثمانين من عمره وكان هزيلا، فإنـه كان مثالا حيا لمجـد وبسالة المـاضي. كان يمكن لابـن خلدون أن يختاره كممثل للجيل "الأول"، قبل أن تكون المدينة قد أوهنت قوة السـلالة الحاكمة. لما كان

شابا، أحرز الأمير أول انتصاراته بمرافقته ابن عمه، عبد العزيز ابن سعود الذي كان في ذلك الوقت لاجئا مفلسا، في غارة هوجاء دفع إليها اليأس، مكنته أولا من إحراز مكانة على الساحة العربية ثم من المملكة. تسلل الأمير ابن سعود وأربعة من الرجال الآخرين - لم يكونوا في ذلك الوقت أكثر من صبيان - داخل مدينة الرياض، في الشهر الأول من سنة ١٩٠١. وتحت ستار الظلام، دخلوا عنوة بيت الحاكم الذي كان يمثل سلالة ابن رشيد العربية من حائل، التي هي منافس سلالة آل سعود على الحكم. لم يكن الحاكم في بيته، لذلك حبست مجموعة آل سعود الشابة النساء وأرغمتهن على الصمت وراحت تنتظر رجوع الحاكم. وعند الفجر، هاجموا حرس الحاكم الخاص في الهواء الطلق بين مقر إقامته وحصن المدينة. وبعد الاستيلاء على الحصن بهجوم داهم، أعلنوا عودة آل سعود إلى الحكم. انضم إليهم سكان المدينة لإعانتهم، ولكن خلال المعركة القصيرة القاسية الدامية التي دارت على متراس الحصن، أصيب الأمير عبد العزيز في خصره وفخذه وترك للموت. غير أنه استطاع إيقاف نزيف الدم باستعمال غطاء رأسه، ونجح في البقاء على قيد الحياة إلى أن تمكن رفاقه من تأمين انتصارهم ورجعوا لإسعافه. وخلال عدة سنوات انقضت في المعارك التي هزت مملكة آل سعود، كان الأمير عبد العزيز الساعد الأيمن القوي لابن عمه، وقاد إحدى حملات فرسان الإبل الأخيرة إلى مسافة خمسمائة ميل بعيدا عن وادي الدواسير إلى داخل اليمن. كانت القوة قد غادرت جسمه، ولكن شرارة صنديد الماضي لا تزال في عينيه.

فحصني جيدا لعدة لحظات وهو يقف على مسافة مد اليد مني كأنه يعرض عني. وأخيرا قال ببساطة، لكن باهتمام ولطف واضحين، "لم يعد الناس يسافرون بهذه الطريقة".

توقفت وأجلت النظر في المجلس مفكرا في أنــه كـان عليَّ أن أعلل مهمتنـا مرة أخـرى، ولكني كنـت واثقـا الآن من قدرتنـا على البقـاء في الصحراء. كـانت أبعاد الغرفـة تبلغ حوالي خمسـين قدما علـى عشرين، وكـانت توجـد فيها أرائـك تركيـة الصنع علـى الطراز القديم - ويرجع مصدر كلمـة صوفـا باللغـة الإنجليزيـة إلى الكلمة العربيـة صفـة - حول الجدران وعوارض من جذوع النخل على السقف. نظر إليَّ أتباع الأمير بـدون تـأثر ولكـن باهتمـام واضـح، وكـان عددهم حـوالي مائـة رجل مسـلحين بسيوف مقابضها من ذهب، وبنادق، وكذلك بقطعة أو اثنتين من المدافع اليدويـة الرشاشـة، ولكنهم كانوا جميعـا يرتدون ملابس على النمط الصحراوي. همـس إليَّ أحد الرفـاق بأن صحـراء النفود الكبرى ستحجر علينا إذا لم نجتز هذا الامتحان. ستدمر رحلتنا وستبعث العربة اللعينة من الموت إلى الوجود.

ومرة أخرى، عرضت أسـباب الرحلة بعناية وصبر: اهتمامنا بالصحراء وعنايتنـا بالشـــاعر لبيد. حرصـت على إثـارة إعجـــاب الأمـير بمعرفتي بالأخبـار المأثورة لهذه المنطقة مـن العالم. قال الأمـير ببساطة وبدون أي أثر في نفســــه:" ألسـتم منهكـين؟ أنـا أصر علـى أن تذهبوا بالســيارة. سأعطيكم سيارة ".

عندما لاحظت أن حججي لم تـؤت إلا أثرا قليلا، قلت للأمـير بشيء من المبالغـة إن الملك كـان قد استبشـر بأننا أصبحنـا الآن نحذق ركوب الإبل وتعودنا على مهمتنا وسنستطيع، أخيرا بواسطة الإبل التي كنا نأمل أن يزودنـا بهـا وربمـا بدليل، قهـر صحراء النفـود الكـبرى. بدا الأمـير الطاعن في السـن للحظة وكأنـه قد فقد تسلسـل الأفكار، وأخذ يبحث حولـه فوق أريكتـه على قصاصـة ورق أو قلم. قفز مســاعد إلى جانبه

وهمس في أذنه، فهز الأمير رأسه والتفت إلي فجأة وهو منهك ومشوش الذهن ليقول: " غدا سنتخذ قرارا. الآن عليكم أن تستريحوا".

نهضنا منهكين ومكسوري الخاطر بسبب تحول مجرى الحديث الذي لا يخلو من تهديد وتسربنا إلى خارج مجلس الأمير، مرورا أولا بعشرات من أتباعه وأعداد كبيرة من أصحاب الحاجة الذين كان الفضول يعلو وجوههم جميعا ولكن بدون ابتسام، ونفذنا عبر ممر، ثم نزلنا من الدرجات الرثة المخددة إلى الخارج من خلال البوابة الرئيسية إلى الشمس المتأججة. كان التحول الذي حدث أكثر وقعا من الانتقال من الظلام إلى النور. لقد كان تحولا من ممرات الزمان لعالم القرون الوسطى إلى ساحة ركن سيارات غربية. كانت تحيط بنا من كل جانب سيارات من نوع كادلاك، فورد، لاندروفر، جيب، ومرسيدس بنز، وقد هدد الأمير بأن يعيدنا إلى هذا العالم. ولكن فترة من الراحة كانت مباشرة أمامنا. كان الأمير قد نصب لنا خياما عند أطراف المدينة وهناك، كان رفاقنا قد حطوا سروجنا وفرونا وبطانياتنا وأسلحتنا. لا شك أن مارلو سيوافق على أن المشهد يتجاوز مقدار الشجاعة.

لم تكن خيمة السفر الخفيفة التي نصبها لنا الأمير، إذا نظرنا إلى الموضوع بدقة، خيمة بدوية بما أنها لم تكن مصنوعة من الموهير ووبر الإبل، وإنما من قماش القنب. كانت أجزاء الخيمة قد شبكت إلى بعضها البعض بدقة بواسطة حبل وكان السقف مشدودا بعمودين. وكانت سجادات قبلية منسوجة زاهية الألوان مبسوطة على الأرض وقد رتبت عليها رحال إبلنا، مغطاة بجلود خروف لتكون مساند نتكئ عليها أثناء الجلوس.

يعد رَحْلُ الجمل جزءا أساسيا من الأثاث كما هو وسيلة في الوقت

نفسـه. فهو يمثل إذا كان علىالأرض في الخيمـة، سنادا كمـا هو الشأن بالنسـبة لجانب الأريكـة، وهو في الاجتمـاع الكبير، يكيف الغرفـة وفقا للظروف.

يجلس ضيف الشـرف والمضيف إلى جانبي الرَّحْـل ويتحادثان عبره مثل رجلين عنـد رفــة الحانــة، وينظـم الضيوف الآخـرون وأفراد المجموعــة أنفسـهم في حلقـة على هيئة قرص السـاعة، متخذين أوضـاعهم تتناسب مع الرحل. وأما عند الـترحل، فلا يسند الرَّحْلُ الراكبَ فقط، بل تحمل قرابيسـه العاليـة بندقيتـه وكيس اليوم. كما تتـدلى الدعامات من الرحل لقربتين أو أكثر صنعت من جلد الماعز وللجيبين الضخمين لعدلي خرجه لوضع طعامـه وبطانياتـه، ولمثـل تلك المعدات التي يحملهـا معـه. ويمكن وضـع جلد خـروف أو اثنين فـوق هذا لتلطيـف الرحل الصلـد الخشــن للراكـب. كمـا توضع تحت الرحل بطانيـة لتوثر حدبـة الجمل، تستعمل في المساء كبساط يفرش على أرض الخيمة.

يكـاد فن صنع الرحال في الجزيرة العربية يكون قد اندثر. وقد ذكرت أن الحكومـة ظلت تبحث أسـبوعا لتجد ستة رحـال في وسـط الجزيرة العربيـة. ولم نـر ولم نسـمع طـوال رحلتنا إلا عـن صانع رحـال واحد. كان هناك رجل في مدينـة سكاكة لا يزال يقطع من كتل الخشب، على الطريقة التقليدية بواسطة فـأس يدوية، اللوح الرئيسي للرحل الذي يشبه المسحاة.

تبدو حدبـة الجمـل وكأنها تمثـل عائقا لا يمكن تخطيـه بالنسـبة لصانع الرحال. وخلال رحلة طويلة، تهزل الحدبة تدريجيا ليصبح الرحل الذي كان يلائم الجمـل تماما في البداية، أقل ثبوتـا في مكانه. وأهم من ذلك، فإن الحدبة "تهاجر" أثنـاء سير المطيـة صعودا ونزولا على كثبان الرمال،

وينزع الرحل إلى الانـزلاق إلى الأمام أو إلى الـوراء حتى يشـعر الراكب أنه حتما سيزل عـن موضعه إلى الطرف الخلفي أو ينتتر منقلبا فوق رأس المطيـة إذا قامت الدابـة بخطوة واحـدة أخرى. يتم شـد الرحل بواسـطة حبلين، غـير أنهما – حتى عند الشـد بصورة محكمة تفرك أو تحرق بطن المطية – عديمنا الجدوى بصورة غريبة في المحافظـة على الرحل في مكانه. وقد كان علينا أن نتوقف عـدة مرات في اليوم لتعديل الرحال، و لم يكن هذا ممكنـا إطلاقـا بدون فـك الحزمـة المعقدة بأكملهـا، والتي تتكون من البسـاطات والأكياس والبنـادق وقرب الماء والشـرابات المختلفة والأوقية من الجلد التي تضفي على المطية تلك الهيئة الزاهية والأبهة العسكرية.

كان الأمير الطاعن في السن قد أصر على أن نعود إلى القصّر في المساء لتنـاول طعـام العشـاء. كـان القصر بحجم وشـكل ملعـب كرة القدم تقريبا، يقـارب ارتفاعه بناية ذات خمسة طوابق. ومن الداخل والخارج، كـان يمثل مشـهدا يليق بهوليوود، ليس فيـه نقص ولا عيب. كـانت له أبواب خشـبية ضخمـة وممرات ضيقـة طويلـة مظلمـة وسـاحات مباغتة وشـرفات عالية. قـد يذهـب الظن بالمرء إلى أن عمـر القصر يبلغ قرونا، ولكن في الحقيقـة، لم يكن شيد إلا منذ أربعين سـنة. وقبل أربعين سنة، لم يكـن تدفق النفط قد غطـى بعد هذه الحضـارة القديمـة بغشـاء جديد. وفي الحقيقة، يستطيع تشارلز دوفتي أن يكتب رواية عصرية حول القصر في حائل عندما يصف ما شاهده منذ قرن:

" سألت عن العهد الذي شيد أثناءه القصر الذي كان له مظهر فخم رغم أنه بني من الطين. يقارب سمك الجـدار فيه ثمانيـة أقدام عند مسـتوى سطح الأرض وأكثر من أربعين قدما ارتفاعـا، ويبدو أنه يستحوذ على مسـاحة كبيرة. كما قست مبنى القصر عبر الساحة العامة فبلغ مائة وعشر خطوات، وكان له برجان. يغلق مدخل القصر، الذي يقع تحت البرج الأوسط في المساء بواسطة باب قوي من خشب ثقيل



خل مجلس الأمير في حائل، كانت هناك ثلة من الأتباع عديمي الكلام الفارغ الذين وجهوا لنا التحية بتحديقات متصلدة وصمت تصلدا.

به بويب صغير لا يسمح بالدخول إلا انحناء وذلك قبل الظلام. يرجع الجدار وقاعدة البناية الضخمة التي شيدت من الطين إلى العصور القديمة، وقد وضعها أحد الشيوخ السابقين في حائل (كان دون شك رجلا ذا تفكير) قبل عبد الله ... وضع طين مبنى البيت في حائل في طبقات سميكة، بداخلها ... كتل مسطحة من الآجر كانت قد جففت لفترة طويلة في الهواء وتحت الشمس، موضوعة على طريقة اتكائية، وكانت ثقيلة جدا وذات مقاومة واحتمال كبيرين"*.

لم يكن المظهر قد تغير فيه الكثير، غير أنه تم تجديد كل شيء منذ عهد دوفتي. وعندما تتداعى هذه البناية، سوف لن تكون هناك أخرى. لقد رأينا بشكل واضح وضوح الصورة، الجزيرة العربية معلقة بين حقبتين من الزمن على الطرف الرقيق لجيل واحد.

* دوفتي، الجزء الثاني، ص ١٩.

استقبلنا الأمير الذي أعاق الجرح القديم حركته، وهو يمشي بخطى قصيرة متكئا بحذر شديد على عصاه، في غرفة جلوس أخرى ذات جو أكثر مودة وألفة. دعانا إلى الجلوس، وبطبيعة الحال وصلت القهوة في الحين. وبعد أن ألح عليَّ أن أشرب أولا، علامة على حسن الضيافة والتبجيل، أخذ رشفة واحدة من فنجان وأعاده إلى حرسه الخاص، النوبي ذي الجسم الضخم الذي رمى بما تبقى من القهوة فوق البساط. في العادة، ينبغي على الأمير أن يشرب معنا، ولكن سنه وصحته الواهنة جعلت الكمية التي يستطيع شربها لا تتجاوز رشفة صغيرة. وبعد لحظات قليلة، نهض وقادنا ببطء إلى غرفة واسعة ملاصقة، مساحتها خمسون قدما مربعة تقريبا، توجد في إحدى زواياها مائدة كانت توصف في عصر هانري VIII بأنها " مائدة صرارة ". كانت المائدة نفسها تنتصب عالية بعيدا عن الأرض بأسلوب غريب يعود إلى الإمبراطورية العثمانية، إلا أنه أدخل عليها الكثير من التجديد عبر مصفاة البلقان. وكانت المائدة محاطة بكراسي قاسية بقدر متساو، ذات ظهور عالية تبدو وكأنها نسخت عن أصول صممت لغايات أكثر شؤما في زنزانة إحدى محاكم التفتيش. كنت في داخلي متشوقا إلى الرمال الناعمة وإلى جو عدم الكلفة حول نار المخيم.

غير أن كرم مضيفنا كان خاليا من التصلب. كان الأمير قد غادرنا وكنا نعتقد أنه ذهب إلى فراشه، ولكنه في حقيقة الأمر، كان ينتظرنا في الغرفة المجاورة. كان المضيفون الذين ينوبون عنه يتكونون من جماعة الموظفين من أهل البيت ومن حرسه الخاص الذين كانوا يشكلون العائلة الأكثر ألفة بالنسبة إليه، رغم أنهم ربما كانوا من العبيد. لقد وضع العرب حدا فاصلا مختلفا عن الغرب في خصوص المعاملة الاجتماعية، وكان هؤلاء الرجال أكثر استئناسا وألفة مما هو معتاد عند الخدم،

كـأنهم في بيوتهم. كانوا يتحركون حول المائدة سعيا لإرضائنا وينتقون بـاعتزاز المضيفـين، قطعـة متميزة مـن اللحم من هنـا وبرتقالـة مـن هناك ليقدموها إلى ضيوفهم. كـانت المائدة ذاتها مغطاة تماما بألوان الأطعمة المختلفـة، وكأنهـا فعلا طبق طعـام ضخم مملوء ومسـنم بحوالي خمسـين رطلا مـن الأرز وخروفين شويا بكاملهما وقرابة العشرين دجاجة. كما وضعـت إلى جانب كـل منا كـأس تحتوي مقدار ربع جـالون من حليب الإبل ونصف دزينة مـن الأرغفة المستديرة من خبز الفطـير. وخلافا لما حـدث في بريدة، حيـث تناولنـا الطعـام في أوان من الفضـة والذهب والبلور، تناولنا هنـا طعام العشـاء على الطريقـة البدويـة، بأيدينا اليمنى، لنمسح أوعيتنا بقطع من الخبز.

كـان الرجل النحيف الذي كـان يتوق إلى الخـروج عن مظهري الذي كـان قصـيرا سمينا ونـاعم الملمس إلى حد مـا في بداية الرحلـة، قد أصبح الآن واقعا ملموسـا وأصبح يحن إلى رفيقه الراحـل. كنا جياعا بعد عدة أيام من الإرهـاق والسير، لذلك، أكلنـا أنا وبلبل مثل الذئـاب التي سال اللعـاب من أفواههـا. وأعتقد أن رفاقنـا الذين لم يكونوا بدورهـم مثالا للاكتفـاء والامتنـاع قد جحظـت أعينهم لـما رأوا منـا من نهـم. أنـا شخصيا، لا أحب أكل الدجـاج، ولكن ما مرت بضع دقائق إلا وكنت قد استهلكت دجاجة كاملة مشوية شهية وكبدة خروف وعدة قطع من اللحـم والأرز والخبز وشربت كأسـين كبيرين من حليـب الإبل. كان راشـد وهويمل وسـلطان وزامل شـديدي الكلفـة وكنـت تحسـب أنهم تنـاولوا الطعام خطـأ قبل الوصول إلى القصر. لايستطيع أحد أن يكون أكـثر منهم احتشـاما أو حتى أنفـة عنـد الطعـام لـما كـان رجـال الأمير يـدورون حولنا وهـم يقطعون اللحم لكل منـا ويشـيرون إلى مـا تميز من أطيـب الطعام. لم ننتبه أنـا وبلبل أثناء التهامنـا للأكل بنهم إلى أن راشد

وزامل وسلطان كانوا قد توقفوا عن الأكل وبدأوا يتململون للنهوض عن المائدة قبل أن يصم شرهنا المتهور اسم قبيلتهم بالعار إلى الأبد.

لم نكن نأكل بل كنا نلتهم بدون حياء. وأخيرا، نهضنا وقد أثقلنا الطعام لنلتحق بالأمير في مجلسه ونتمنى له ليلة سعيدة. كان مسرورا لأننا استمتعنا بما كان سماه: "طعاما بسيطا". لم نتحدث على سبيل التآنس، بل تناولنا قهوة واحدة أخرى ثم ودعناه متمنين له ليلة سعيدة. لقد جئنا وأكلنا ثم واصلنا طريقنا. إن المضيف مسرور لإتمام المهمة المتعلقة بالضيف على أحسن وجه.

ربما تكون الالتزامات الخاصة بكرم الضيافة هي أكثر الالتزامات التي يشعر بها المرء بعمق في التقاليد البدوية على الإطلاق، حيث أن أبسط وأفقر البدو يجبر الضيف على قبول آخر لقمة من طعامه حتى في زمن المجاعة.

وبعد ذلك كله، فإن الطعام رزق من الله وما الإنسان إلا نوع من المؤتمن عليه، وليس مالكا له بأتم معنى الكلمة. وكما يرد في القرآن الكريم: " فلينظر الإنسان إلى طعامه، أنا صببنا الماء صبا، ثم شققنا الأرض شقا، فأنبتنا فيها حبا، وعنبا وقضبا، وزيتونا ونخلا، وحدائق غلبا، وفاكهة وأبا، متاعا لكم ولأنعامكم" صدق الله العظيم.

كتب ويلفريد ثيسجر حول رحلته في الربع الخالي قبل خمس وعشرين سنة:

" فكرت مليا في كرم الصحراء هذا وقارنته بضيافتنا وتذكرت خياما أخرى نمت فيها. كانت خياما صغيرة صادفتها في صحراء سوريا وقضيت الليل فيها. يومها استقبلني رجال عجاف يرتدون خرقا بالية وأطفال تبدو على وجوههم مظاهر الجوع بالسلام والترحيب بعبارات الصحراء الرنانة. ثم وضعوا أمامي طبقا مملوءا

بالطعام، به أرز مكوم حول خروف ذبحوه بهذه المناسبة، ثم صب عليه مضيفي سمنا سـائلا ذهبي اللون إلى أن سـال على الرمـل. وعندمـا اعـترضت قـائلا: " كفى! كفى! " أجـاب بأن حلولي بينهم يلاقي ترحيبهم بي مائة مرة. كنت دائما أتضايق بسبب ضيـافتهم السـخية لأنني كنت أعلم أنهم سيجوعون عدة أيـام نتيجة ذلك. وعلـى الرغم من ذلـك، فعندمـا غـادرتهم كـادوا يقنعونني بـأنني أكرمتهم لمكوثي معهم".*

إلا أنه كـان ينبغي على الشيخ أن يتجاوز هذا بكثـير من الإسراف في التموين. فثروته لا تتوقف في نهاية الأمر على الأشياء بل على الناس.

ملأنا قرب الماء التي كنا نحملها من برميل يتسع لأربعة وأربعين جالونا بقرب حائل. كانت القرب تبدو محكمة الإغلاق، ولكننا اكتشفنا لاحقا أنهـا لم تكـن كذلك. إن الطريـق العربيـة إلى الدمـار السياسـي معبدة بـالبخل. والشـيخ بمثابـة النهر لقومـه، يفيض باسـتمرار ليغمـر ضفاف الحكمـة والتعقل ويسـقي حيـاتهم الظمـأى. وكمـا كتـب العقيد ديكسون، الذي عاش طوال حياته في الكويت:

" للمحافظة على نفوذه خلال أوقات السـلم الهادئ، ينبغي على الشيخ أن يبرهن على أنـه " أب لقومه " بكـل ما تحمل الكلمـة من معنى. حيث يجـب عليه أن يلم بالمشـاكل العائليـة لكل رجـل وأن يتخذ قرارات ملائمـة وعادلـة عندمـا ترفع لـه القضايا لفضّهـا. وقبل كل شـيء، عليـه أن لا يكون بخيـلا وأن يترك بابـه مفتوحا أمـام كل من يقصده. ليس هنـاك كلمة تحمل معنى أكثر حقـارة، أو من شأنها أن تترك أثرا مرا في فـم البدو، أكثر من صفة البخيل. فإذا علقت صفة بخيل بزعيم ما، فإن نفـوذه يكون قد أوشـك على نهايتـه. وهكذا، يجـب أن تكون القهوة دائمـة الحضور في خيمة الشـيخ الناجح وأن ترن المدقة في المهـراس من الصباح إلى المساء. وحتى هذا لا يكفـي، حيث أن السـواد الأعظـم من أبناء قبيلتـه الجيـاع لا يذوقون طعم اللحم إلا نادرا بين طرفي السـنة، باستثناء ما يقدمـه لهم شيخهم من ولائم بين

---

* ليسجر، ص ١٥٢.

الفينة والأخرى أو ما يذبح من إبل، مما يمكن الجميع من الأكل ملء بطونهم "*.

وبعد العشاء، أُخذنا إلى منزل مساعد وسكرتير الأمير، الشيخ صالح البليهي الذي كان، مثل العديد من المسؤولين الذين التقيناهم، من قبيلة الدواسير. يقع منزل الشيخ صالح في الضاحية الغربية لحائل، المكان القريب من الموقع الذي نصبنا فيه مخيمنا. امتطينا إحدى سيارات الأمير إلى البوابة الخارجية التي تجمعت حولها سيارات الأمير وأتباعه. في المجتمع العربي التقليدي، يملك كل بدوي رب لأسرة، نزولا حتى إلى أشد البدو فقرا، مجلسا خاصا به، حتى ولو كان أتباعه وحاشيته من أبنائه فحسب، إذ لا يستطيع أي رجل أن يبقى وحيدا فعلا. وبالطبع، فكلما كان الرجل أرفع منزلة وأكثر ثراء، كان عدد آل البيت أكبر. أما في الإطار العصري فتتجلى مكانة المرء تبعا لعدد السيارات والعربات الراكنة أمام بيته.

كان منزل الشيخ صالح، في اعتقادي، خليطا من النمط القديم والنمط الجديد لحائل.

كان المنزل محاطا بسور من طين ارتفاعه خمس عشرة قدما، يدخل إليه عبر زوج ضخم من البوابات التي صنعت من صفائح الحديد. وكانت عتبة الباب العليا تحمل أضواء نيونية تغمر الممشى المغبر والباحة المخصصة لوقوف السيارات بنور هادئ ضارب إلى الزرقة. كان المشهد يذكرنا بصورة غريبة بنزل يقع على طريق إحدى مدن تكساس، ولذلك بدا لنا أنه تعوزه الأناقة وأنه في غير محله. خطرت لنا فكرة أخرى جعلتنا ندرك تلك الحقيقة التي تتمثل في أن الجمال والقبح لا يكمنان في نظر المرء، بل أيضا في ذاكرة الناظر. لقد كانت أضواء النيون، بالنسبة لرفاقنا البدو، أعجوبة تجعل من الليل نهارا وتوحي

---

* العقيد هـ. ر. ب. ديكسون، عرب الصحراء (لندن، ١٩٤٩) ص ٥٣.

بأهمية وسلطة المقيم، وظاهرة تحسن إلى حد بعيد ما كان بناية قديمة من آجر الطين.

في الداخل، يؤدي رواق إلى المجلس. كان ارتفاع الأسقف يبلغ عشرين قدما وكانت الجدران مزخرفة بآيات قرآنية، كتبت بحروف كبيرة مزوقة كانت الجدران عارية إلا منها. جلسنا على أرض الغرفة نشرب القهوة ونتحدث عن الصحراء. وبعدما أتينا على أكثر المواضيع المعتادة الخاصة بالرحلة قال الشيخ صالح: " تعلمون أن الأنجليزي سانت دجون فيلبي تنبأ بأنه سوف لن تكون هناك إبل في الجزيرة العربية بعد ثلاثين سنة. لقد سخرنا منه آنذاك وظننا أنه مجنون. كانت مئات الإبل تباع كل يوم في ساحة السوق في حائل. ولكن اليوم، نرى أنه كان على حق".

واصل الحديث قائلا إنه انقضى الآن أسبوع منذ استلام رسالة من الرياض، في محاولة جمع ستة من الإبل الأخرى لمدنا بها. وإلى هذا الوقت لم يعثر إلا على ست دواب مناسبة. تدخل شقيق الشيخ صالح الذي كان يستمع إلى المحادثة عند هذه النقطة قائلا: "سوف يكون السفر على ظهور الإبل في صحراء النفود الكبرى الآن أصعب مما كان قديما، حيث أن الطرقات القديمة - المسالك التي كانت الحركة عليها كثيفة بدرجة أنها أصبحت مثل الأسفلت - قد زالت، والآبار القديمة والصهاريج لم تعد تتلقى الصيانة. ومن الجنون أن تحاولوا السفر بالطريقة التي وضعتم. خذوا سيارة! اذهبوا هنا وهناك عبر النفود. ذلك ما نفعله جميعا". واصل حديثه قائلا إن العرب لا يشاركون الغرب في حب الصحراء. "هناك شيء لا نفهمه نحن الذين ولدنا هنا أبدا، يجعلكم أنتم الغربيون تحبون الصحراء. الصحراء بالنسبة لنا مكان

نذهب إليه لأننا مجبرون على ذلك. إن المرعى جيد بالنسبة للحيوانات بعد الأمطار، ولكن الجو في الصحراء سيء وحار وشاق بالنسبة للإنسان والدابة. لا. ليس هناك أي شيء رومنسي أو جميل في الصحراء. إني أملك حديقة، يجري فيها الماء بوفرة من البئر، وأملك التيار الكهربائي الذي يمكنني من الاستماع إلى الراديو واستعمال مكيف الهواء. أستطيع أن أجلس في راحة وأشرب الكوكاكولا. إنكم مجانين لتذهبوا إلى الصحراء".

ومع ذلك، فإن واحدا فقط من بين جميع رحالة القرن التاسع عشر أدرك وشعر بوجهة النظر العربية هذه حول الصحراء، حيث أن ما قاله يمكن أن يكون قد كتبه الشيخ صالح لأن مشاعرهما كانت متقاربة جدا. كتب تشارلز أديسون، الذي سافر عبر الصحراء السورية الكبرى سنة ١٨٣٥:

"بعدما ينقضي طابع الجدة الأول لهذا الأمر، يبدو نمط الحياة هذا خاليا من أسباب الراحة ورتيبا ومضجرا. تتمثل فتنته الوحيدة في حريته المطلقة واستقلاليته في جزء من العالم يكون جميع الآخرين فيه مقيدين. تبدو الخيام فاقدة للنظام وموحشة، وسطح الأرض تكسوه طبقة سميكة من الغبار، والرياح تهب من كل جانب، والقرب التي صنعت من الجلد والأكياس التي صنعت من وبر الماعز والدلاء الجلدية والنفايات الأخرى مكدسة حول الأعمدة الوسطى للخيمة، تزعج وتضايق أهل الدار"*.

لم أناقش الشيخ صالح لأنني كنت فعلا أتفق معه جزئيا، حيث أن الصحراء شاقة وملذات الحياة المستقرة أكثر إلى درجة لا تجوز معها المقارنة. كان تسول ما يكفي من الماء الدافئ للاستحمام به عند الصباح التالي يسعدني إلى حد كبير. إن المدن مسلية بأسواقها كثيرة

* أديسون، الجزء الثاني، ص ٢١١ – ٢١٢.

الحركة، والعربة لها فعلا مزايا أكثر من الإبل. ثم إن فوائد التطور واضحة حقا، في حين أن ثمنه غامض وغير ملموس. وبالنسبة لرفاقنا، فإن مسألة الثمن لا تبدو قائمة. كنا نخشى أنه في الوقت الذي يصبح فيه هاما، يكون النمط القديم للصحراء قد اندثر. وعند ذلك الوقت فقط، يصبح الثمن واضحا. ربما ينظر إليه على أنه مبرر باعتبار الفوائد المحققة - وأعتقد أن الأمر سوف يكون كذلك فعلا - ولكن الثمن سيكون حقيقيا على الرغم من ذلك.

مهما كان الاستنتاج في هذه المسألة، فإننا كنا متلهفين لمواصلة الرحلة. شعرنا بأن ماضينا القصير على ظهور الإبل لم يكن سوى مقدمة للرحلة الحقيقة في العراء وسط رمال الصحراء.

تقع صحراء النفود الكبرى أمامنا، بحر رملي يمتد على مساحة خمسين ألف ميل مربع. لم نعثر في حائل على رحل على قيد الحياة سبق له أن عبر الطريق الصحراوية القديمة على ظهور الإبل. لا يزال البحر في مكانه ولكن البحارة قد ارتحلوا جميعا، وحتى قصصهم لم تعد تروى. كنا على يقين من أن مجموعة من الآبار لا تزال موجودة على الطريق التي كنا سنسلكها - آبار الشقيق المعروفة تاريخيا - غير أنه لم يكن في وسعنا إلا أن نتمنى أن التوكيدات - وبعبارات أدق، التخمينات الورعة - التي قدمت لنا، والتي تفيد بأن الآبار لا تزال تؤدي وظيفتها، كانت فعلا صحيحة. زيادة على ذلك، فإن التنبؤ بالوقت الذي سنستغرقه للوصول إليها يكاد يكون مستحيلا، حيث أن كل شيء يتوقف على ظروف لا يوقف لها على حال: الرياح والأمطار والرمال. لم تكن الأمطار قد نزلت البتة منذ أشهر، ولم تنزل أمطار غزيرة طوال ثلاث سنوات. من المحقق أن الرمال سوف تكون متخلخلة وعميقة، والسير

أشـق بكثير مما سبق أن عانينـا. كمـا أن الإبل قـد أثبتت هشاشـتها، وبدورنـا أثبتنا الطبيعـة الشـاذة لرحلتنـا. لم نكن نستطيع أن نعول على أحد للحصول على مؤن جديدة وأعـني بذلك الماء قبل كل شـيء. بناء على هـذا، تم تخصيص يـوم الأحد للتخلـص نهائيـا مـن أي شـيء غـير ضروري حتى نحصل على مزيد من المساحة للماء.

كان من المدهـش، بعد اسـتعداداتنا السـابقة، أن نرى قلة الأشـياء التي كـانت فعلا من الضروريات. أخذنـا أولا جميع بوصـلاتـنا وخرائطنا، ثم تبعت ذلـك جميع علب الماء الـتي كنا قد حملناهـا كمخزون طوارئ، ثم بندقيـة لكل منـا وكميـة محدودة من الذخـيرة، وبطبيعة الحـال نواظير مزدوجـة وآلات تصوير وأشرطة. وفي لفتة نادرة تنم عن نبل الأخلاق، لم يتزود بيل إلا بحوالي ثلاثين شريط تصوير.

لم يشاركنا هويمل في جدية اهتمامنا بالأمر كما كنا نشعر به أنا وبيل. وعندما سـألته عن قرب الماء المصنوعة من جلـد الماعز، أجاب أنه سوف يكون هنـاك ماء وافر في النفود، وأنه بدوي وأنـه عليَّ أن لا أشغل بالي. طلبت رؤيـة القرب الجديدة، فأشـار إلى مجموعة مـن الجلود التي اسـودَّ لونهـا والتي كانت مطروحـة على الأرض. كان طعـم الماء - الذي كنا نعرفه جيدا - من هذه القرب يكاد يجعل المرء يشعر بالغثيان، وأعتقد أن هذا هـو السـبب الـذي جعل البـدو يشـربون القهـوة بحب الهـال وحب القرنفل والشـاي بالقرفة، ولايمكن إلا للتوابـل القوية وذكيـة الرائحة أن تتغلب على الطعم المريع للماء. ولكن القرب كانت تحتوي على الحياة.

سألت "كم لنا من قربة الآن؟".

أجـاب هويمل: "آه، لدينـا الكثـير، لا تشـغل بالك يـا أبـا جورج. أنا سوف أرعاك".



لأنا قرب الماء التي كنا نحملها من برميل يتسع لأربعة وأربعين جالونا بقرب حائل، كانت القرب تبدو محكمة الإغلاق، ولكننا اكتشفنا فا أنها لم تكن كذلك.

ثم طلبت منه وأنا أشعر بالنفور والاشمئزاز كعادتي عندما أتحدث إليه، أن يتأكد من حملنا لقربتين قويتين على كل جمل ويتم غسل كل قربة أحسن غسيل والتثبت منها بعناية بخصوص الرشح قبل أن ننطلق.

ضحك هويمل وهو يكاد يكون ساخرا، ووافقني وصدقته ببلاهة.

الفصل الخامس

5

عبر صحراء النفود الكبرى

غمر النشاط المخيم في صباح يوم الإثنين قبل الفجر. كان كل شيء يبدو مرتبا، غير أنه عندما بدأت الشمس تتوهج حرارة فوق التلال الغربية، بدأت التصدعات تظهر على مدرعتنا. إذ بدت الإبل عجافا واهنة، قزمتها أحمالها الضخمة، ولم تنقطع الحبال والأربطة إلا في آخر لحظة. كما فقدت قطع نفيسة من المعدات أو حزمت في أماكن غير مناسبة، وبدأ مزاج التحمس ووتيرة الاستعدادات تفتر وتضعف بشكل ملموس.

لم تبق سوى مهمتين أخيرتين. تتمثل الأولى في قطع أوتاد الخيام الخشبية لاستعمالها في حالة احتياجنا لبناء حاجز ضد اتجاه الرياح أثناء عبور النفود. وقد قام أحد رجال الأمير بقطعها بخشونة وعدم انتظام

من حطب الوقود مستعملا في ذلك فأسا. كانت الأوتاد سيئة مقارنة بالمبرامات الفولاذية المتقنة التي نستعملها كحاملات للخيمة والتي جلبتها من أمريكا، ولكنها كانت أقل وزنا وأكثر منفعة.

كانت مسألة معالجة أخفاف الإبل أكثر جدية. حيث كان العديد منها قد أصيب بجروح عميقة من جراء الصخور غير الصقيلة التي كنا نسير عليها على امتداد الستة مائة ميل التي قطعناها منذ مدينة الرياض. كان أحد الجمال قد أصيب بثقب في أسفل خفه قد تكون تسببت فيه رصاصة بندقية لحجمه الكبير. في الحقيقة، عندما جس زامل بإصبعه العظمي الطويل عميقا داخل الخف، أخرج ثلاثة أحجار بحجم الكجة. كان الخف قد أصيب إصابة سيئة ولا يزال طريا، ولا شك أن الثقب سوف يمتلئ بسرعة بكسارة الحجارة. كما أنه كان ينبغي ترك الجمل في سبيله، غير أنه كان ينقصنا واحد من قبل و لم يكن لدينا الخيار إلا أن نتدبر أمرنا بذلك. أخذ زامل خنجره وأحدث أربعة ثلم في لبد الخف اللين. كان علينا جميعا أن نوثق الجمل الذي أصبح الآن محتدما غضبا يحتضر، إلى أسفل لمنعه من القفز بعيدا أو الهجوم على زامل بأسنانه الضخمة. قطع زامل بتؤدة، دون أن تزعجه مقاومة الجمل العنيفة والجلبة التي أحدثها رغاؤه نصف المختنق، نوعا من العصابة المساعدة من الجلد المدبوغ الناعم لقِرَب جلد الماعز. ثم وضع رفادة في الوسط تبلغ حوالي أربع بوصات مربعة لتغطي الثقب. و سوّى زامل، في كل زاوية، قصاصة طويلة ضيقة أقرب إلى اللصاق في الضمادة ثم أدخلها في كل ثلم مثل رباط الحذاء. وبعد أن ثبت الأربعة في مكانها بإحكام، ربطها وقطع الجلد الزائد. وبعد أن قيم عمله اليدوي، نادانا بأعلى صوته طالبا منا أن نقفز بعيدا عن الجمل. وبرغاء صاخب، اندفع الجمل واقفا على رجليه ونفض نفسه بعنف وبال وأحدث صوتا ثاقبا اهتز له جسمه كله.

ثم أرخى عنقـه الطويل النحيف باسـتكانة كأنـه مرهـق وراض ليشـتم الأرض بحثا عن شـيء يأكله. لقد انتهـت العملية وتم القيام بأحسـن ما كنا نستطيع أن نفعل.

خـلال هذا المشـهد من الفوضى والبـطء وصل الرجل الذي كـان أمير حـائل قد عيَّنـه ليكون دليلنا عـبر الرمـال. كثيرا مـا تؤخذ التفاهات في مثل تلك اللحظات على أنهـا طالع حظ. لم ترعنـا طبيعة ناقتـه القبيحة وسيماؤها القاسـية وحتى الحادة فحسـب، بل وأيضا اسمـه ذاته:"كامل" الذي شـد انتبـاه رفاقنـا على أنـه همجي وغريب وغـير عربي وليس لـه معنى.

وعلـى الرغم من أن " كـامل " كـان مـن الشـمر، فـإن اسمـه لم يكن معروفا في العربيـة. إن الأسماء عند عـرب المدن تخلو من المعنى تماما مثل الأسمـاء في الغرب. ويكاد يكون لكل رجل من عرب المدن اسـم مشتق مـن إطـار ديني: محمـد، إبراهيم، يوسـف، عبدا لله، وهكـذا دواليك. ولكن هذه الأسمـاء نـادرا مـا تسـتعمل عنـد البدو، حيـث يختـار البدو أسمـاءهم اليوم، كمـا فيما مضـى من الزمن، بطريقـة نزويـة. وأي نزوة انتجت اسم كامل؟ ذلك ما لن نعرفه أبدا.

كانت الإبـل الجديدة تبدو مجموعة هائجـة ومهملة وغـير مدجنة، وبما أنه كانت تنقصنـا ناقة، فإننا لم نتمكن من حمـل أي خيمة وأخذنا كمية من الماء تقل بكثـير عما كنا أنا وبيل نعتقد أنـه حذر واحتياط. أما فيما يتعلق بظهورنـا الموجعـة، فـإن أربعـا من الإبـل الخمس الجديدة كـانت ذكورا مؤذية للعظام.

آل الأمر إلى المهمة الجدية المتمثلة في التخطيط لرحلتنا. ذكر كامل أن الأمطـار لم تنزل في الصحـراء، ولذلك كـانت أحسـن حظوظنـا محاولـة

المرور بسرعة لفترة حوالي خمس ليال من الواحة الصغيرة بجبة إلى آبار الشقيق، حيث أننا لن نجد ماء حتى نبلغ تلك الآبار، وقال إنه ليس هناك طريق وأضاف بشيء من المراوغة والغرور أننا لن نلاقي صعوبة في الوصول إلى الآبار.

بداية من الشقيق، سيكون السير صعبا وشاقا لمدة ثلاثة أيام حتى بلوغ الجوف. "يجب أن نسير بسرعة أو إن الماء سينفذ وتنفق الإبل. كما يجب أن لا نخطئ الآبار وإلا فإننا سوف نموت".

كان كل ما نعرفه عن صحراء النفود الكبرى مأخوذا في أغلبه من روايات الرحالة وكانت أغلب هذه الروايات تحتوي على أكثر من حقيقة. يقدم التقرير الذي جمعه ونشره قسم المخابرات البحرية البريطانية وصفا بسيطا ولكنه دقيق، حيث يصف صحراء النفود الكبرى بأنها تمتد على مساحة ثلاثين ألف ميل مربع من الرمال التي تذروها الرياح والتي تتكدس عالية فوق السهل البسيط الواسع الذي يحيط بها على ارتفاع حوالي ٢٣٠٠ قدم فوق مستوى البحر، وتكون ما يشبه إلى حد ما السمك الهلامي الضخم، له لامستان طويلتان تمتدان نحو الجنوب الشرقي انطلاقا من الجسد. وفي النهاية تربط هاتان اللامستان الطويلتان النفود بالربع الخالي في الجنوب الشرقي. كما ترتفع كثبان الرمال في النفود فوق سطح أرض الصحراء ليبلغ البعض منها ستمائة قدم من الارتفاع.

أوشكنا على وقت الغداء قبل أن ننهي القيام بجميع المهام ونستطيع أخيرا مغادرة مخيمنا لعبور مدينة حائل - الشيء الذي كان مسليا لحشد كبير من الصبية الصغار الذين كانوا يركبون دراجات إنجليزية الصنع وأخرى نارية يابانية الصنع. ورغم أن فضولهم كان بوضوح وديا، فإنه

جفـل الإبل الجديدة الهائجة، فكـانت تنفر وتحيد فجأة لما كنـا نسعى إلى حمايتها هـي ومعداتنا النفيسـة مـن " شـجعان " المدينـة. لما بلغنـا خارج المدينـة، سـرنا فوق مرتفع صغـير بشـعور من الارتياح عليـه مسـحة من التشاؤم ووجدنا أنفسنا من جديد في الصحراء.

كـانت المنـاظر التي تحيـط بنـا تكـاد لا تصدق، حيـث كـانت القمم الصخريـة الضخمة ترتفع فـوق الرمال إلى شمالنـا وغربنا مشـابهة صورة زيتية على ستارة خلفية لمسرح أوبرا إيطالي في القرن الثامن عشر. كان الأصيل معتدل الـبرودة سـاكنا. شـعرنا جميعـا بطاقـة جديدة لانتعاشـنا بعظمـة المناظر الطبيعيـة وكذلك، في اعتقـادي، براحـة واسـترخاء الأيام القليلـة الماضيـة. فكرت في رحلـة السـيدة آن بلانت قبل قرن من الزمن على امتداد مسـافة كبيرة من الطريق ذاتهـا انطلاقا من حائل، وابتهجت عندمـا رأيت أننا قطعنا المسـافة نفسـها خلال فترة أصيل واحد، وكانت هي قد قطعتها صحبة زوجها في ثلاثة أيام. ولكن خلافا لعائلة بلانت، لم يكن لدينـا دليل مناسب ليحدد لنـا الأشياء التي بينـت لهما. وبالنسبة إلينـا جميعا وحتـى بالنسـبة لكامل، كـانت هذه الأرض خاليـة مجردة من التاريخ والبشر بفعل المد السريع للحداثة.

توقفنـا بعـد حوالي ثلاثين كيلومـترا من حـائل لننصـب خيامنـا. كان الظلام قد أسدل سـتاره عندما وجدنا مكانا تستطيع الإبل أن ترعى فيه. ولشـد ما انزعجنـا عندما ثبت أنـه كان أحد الأمـاكن القليلة على مدى الرحلـة، الذي لم تكن فيـه وفـرة من الجذور والأغصـان الجافـة لأجمات الصحراء حتى نستعملها وقودا. ألقينا بأنفسـنا في الأجمة بعد الأجمة، لا نكاد نـرى من خلال بقايـا الغسـق الباهتة، لنجـد أن كل نبتـة مطواعة، خضراء لينـة عنـد الملمس، شـديدة المقاومــة لكل محاولـة لكسـرها أو

اقتلاعها. في رباطة جأش، رفع كل منا الجزء السفلي لثوبه جاعلا منه كيسا وانتشرنا في كل اتجاه لجمع فضلات الإبل. نجحت نجاحا جيدا في بحثي عن الفضلات ورجعت بعرض من الأغصان الجديدة للنار التي كان راشد وزامل قد تدبرا الأمر لإشعالها بواسطة فضلات جمليهما. ثم وصل بلبل وعليه ملامح سانتا كلوس (قديس الأطفال وموزع الهدايا عليهم عشية عيد الميلاد) مسخما رمادي اللون وهو يحمل حقيبة ملآنة بالمطايب أمامه عوضا عن حملها على ظهره وألقى على الأرض، وهو مبتهج بإنجازه، بما كان دون شك تراكما من الفضلات على امتداد شهر لقطيع كامل من الإبل. مد سلطان إليه ذراعا قوية الأعصاب تشبه الحية والتقط كتلة من الفضلات وأخذها إلى أنفه، ثم استشمها قليلا وسحقها بين أصابعه باشمئزاز وقال:" غنم ".

إن فضلات الغنم لا تشتعل جيدا مثل فضلات الإبل، والبدو يزدرونها. جلس بيل مكتئبا في خلوة آمنة ليكتب في دفتر يومياته.

بعد فترة قصيرة، أصبحت فضلات الإبل القديمة تشبه الفحم الملتهب. خلط هويمل طحينا مع قليل من الماء أخذه من قرب جلد الماعز وسواه بضربات خفيفة جاعلا منه كويرات سطحها لتصبح أرغفة، وبعدما رفش مكانا وسط الفضلات الملتهبة، دفن العجين وغطاه بالرماد، ثم جعل مرة ثانية الفضلات الملتهبة فوق الرماد. انتظرنا بصبر، وبعد عشر دقائق أو ما يقاربها، أخرج هويمل من النار، بحركة رئيس طهاة ماهر يكشف عن اللون الرئيسي من ألوان الطعام، رغيفا من خبز الفطير. أقر بأننا كنا جياعا وشعرنا بالارتياح لحصولنا على شيء من النار، ولكنني لم أكن قد شممت أو ذقت شيئا ألذ في حياتي. كان كله قشرة يابسة، مناسبا للمضغ، قاسيا في أعلى باطن الفم وساخنا جدا، وحيث أنه كان

طيبا جدا، فقد علق بذاكرتنا مثل النكتة. وبعد بضعة أيام، عندما رأى بيل جملا يرمي فضلاته على الأرض، حرك رأسه يمينا وشمالا وتنهد ثم قال:" تبا، لشد ما أرغب في الحصول على رغيف آخر من ذلك الخبز". لقد تكونت لدينا على الأقل نظرة حول الفضلات مغايرة لتلك التي كانت لدى المستشرقين الألمان المشهورين.

لم يكن البدو يشاطروننا الرأي حول نكهة الخبز الساخن المعد حديثا، حيث كانوا يفتتون كل رغيف جاعلين منه قطعا صغيرة يتركونها تتبرد ثم يصنعون منها نوعا من العجينة مع التمر والبصل. إنها تفتقد بذلك النكهة التي كانت قد استهوتنا بذلك القدر. ولما جعلنا نعبر عن جزعنا لتهديم عمله الفني، انطلق هويمل بلطف في العمل لإعداد نوع مختلف من الأرغفة. راح هذه المرة يسوى القرصة جاعلا منها شريحة رقيقة بحجم الفطيرة الهشة الرقيقة ويطهيها أولا في مقلاة لها مقبض طويل ثم يقذف بها مباشرة فوق الجمرات الملتهبة. ومهما يكن من أمر، فإن هذه القرصة المشوية كانت أشهى. أحضر راشد فورا إبريقا من الشاي يتصاعد بخاره بعدما نكهه بالقرفة التي كادت أن تطمس رائحة الوبر الحادة لجلد الماعز.

خلال اليوم التالي، تواصل المنظر الطبيعي بطابعه المسرحي: سلسلة من الكثبان فوق أخرى ثم أخرى كأنها رسمت بيد فنان تنقصه الخبرة، فقد كل معنى للواقع بيأسه من القدرة على إظهار منظورية المشهد.

جعلنا مطايانا تخب وتمشي، ونحن نتجاذب أطراف الحديث ونلتقط الصور، متجهين نحو الغرب تقريبا إلى قرية قانا التي تقع حوالي خمسة أميال داخل النفود، وبعد مدة وجيزة أصبح السير شديد المشقة. لقد عوضت الرمال المتراكمة الأرض المنبسطة المفروشة بالحصباء. وكأننا

خطونـا فـوق جسـم منبسـط من صخر بركـاني قـائم بـين طبقتين من مقذوفـات البراكين، اصطدمنـا بمـا يسـميه البدو" المنطقـة الرملية " وهي رمـال ناعمـة متحركـة. كانت الرمـال تتسـرب بين أصـابع أقدامنا و لم تكن أقدامنا تغـوص فقط، بل أيضا تـنزلق بينما نحن نمشـي مجهدين وراء الإبل. لا أعتقد أننا كنا سنقطع مسافة طويلة مشيا على الأقدام، وحتى المطايـا، فإنهـا بـدأت تشـعر بالإرهـاق حيث نزل معـدل سيرنا إلى مـا يقـارب ميلا ونصفـا في السـاعة. توقفنـا في قانـا لملء قرب المـاء وهناك أصابنـا "سهم القدر" مثلما يقول الشاعر العربي، وذلك ليس مرة واحدة فقط بل مرتين. أولا، وهو الأمر الـذي يكتسي جديـة كبـيرة، اكتشفنا أن تسـعة مـن قناني البلاسـتيك التي تحمل مـاء الطـوارئ كانت فارغـة تقريبـا، حيـث كـان الاحتكـاك المتواصل في أعـدال الخرجـة والازدحـام الشـديد عند الحزم وإعادة الحزم قد أضعف قدرتهـا على المقاومة. يبدو أن "وهن البلاستيك" هو خطر إضافي على المجتمع التكنولوجي. لم تكن هناك سـوق أو متجر في قانـا ولا غذاء ولا قـرب مـاء. كنا قـد تركنا حافظات الماء الأربع وبعض العلب والثلاث قناني من البلاستيك المتبقية، والتي كـانت قدرتهـا على المقاومـة قد ضعفت بـدون شـك، كاحتياطي نهائي. وبما أن كل واحد منا كان يستهلك زوجا أو أكثر من حافظات الماء خـلال اليوم من السفر الذي يتكون مـن حوالي ١٢ ساعة، فإن كل شـيء كان يتوقف على سلامة قرب الماء. هل كانت سليمة؟ كم عدد الأيـام التي سـتؤمنها لنـا؟ كم تبقـى أمامنـا من يـوم في هذه الصحراء العميقـة اللدنـة قبل أن نصل إلى الآبار؟ هـل سـنتمكن من العثور عليها؟ هل ستكون مـلأى بالماء أم مسدودة بالرمال؟ كانت هذه الأسئلة تنتابنا باستمرار خلال الأيام التالية.

ضرب سهم القدر الثاني بصورة مؤلمة، بصورة مضحكة إلى حد ما لو

نظرنا إلى طبيعة الحادثة بعد وقوعها، ضرب في أكثر الأماكن حساسية من جسم الإنسان العصري، كثير الجلوس: الظهر. ذلك أنه عندما كنا بصدد الاستعداد لمغادرة قانا، قفزت فوق مطيتي بثقة بالنفس ناتجة عن عدة أيام من التحكم في الأمور بدون إعارة اهتمام لما كنت أفعل. وتماما في الوقت الذي وثبت فيه فوق المطية، التفت لأتحدث إلى شخص كان إلى جانبي، وفجأة، اندفعت راحلتي ونهضت.

كنت مثقلا بالمعدات الأمر الذي جعلني أفقد توازني وأنزلق فوق الرَّحْل قائما بحركة نصف دائرية في الهواء وأقع على جانبي الأيمن وظهري. انقطع نفسي تماما من شدة الصدمة، فبقيت طريح الأرض أتنفس ثم ألتقط نفسي وأنا عاجز عن الكلام. شعرت أن ظهري قد انكسر. ولما رآني بيل انقبض فجأة من الألم، غَطّى عينيَّ بلباس رأسه وأرخى ياقتي وحزامي. بحركة مؤلمة وبطء، انتصبت بجسمي الذي لم ينكسر وتمكنت من ركوب مطيتي بعد وقت وجيز. غير أنني اكتشفت في الأيام التالية أنني فقدت المستحضر المضاد للفحة، الشمس أثناء سقوطي، الشيء الذي زاد من ألمي خاصة وأن أنفي الأنجلوسكسوني الأبيض غير المناسب أصبح عرضة إلى الاحتراق حتى الانشواء إلى درجة تجعل تمييزه أمرا صعبا.

في تلك الليلة البائسة، حاولت أن أتجاهل غضبي من حماقتي والألم الذي كنت أشعر به في ظهري، وأنا على يقين أن قطعا من العظام المكسورة كانت تشق طريقها نحو رئتي، وتمنيت في ذات الوقت أن يكون في حوزتي أحد صناديق الدكتور إيفانس لأدوات الإسعاف في حوادث الطريق، وذلك بسؤال " كامل " حول الصحراء التي تمتد أمامنا. أجاب على كل سؤال، غير أن ردوده كانت تتسم بنوع من

الغموض الإسفنجي الذي وجدته مثيرا إثارة متزايدة. وفي آخر الأمر تحديته مباشرة قائلا: " كامل، يبدو أنك لم تسافر عبر هذه الرمال من ذي قبل". فأجاب: " لقد سافرت عبر الصحراء عدة مرات يا أبا جورج".

"هذه الصحراء؟".

"نعم يا أبا جورج، لأن هذه الصحراء مترامية الأطراف، واسعة وشاسعة. نعم، لقد سافرت عبر هذه الصحراء".

"ولكن هل سبق لك أن جئت إلى هذا المكان؟".

"إلى هذه الصحراء؟".

أجبت بما سمح به ألمي وغضبي والشفقة على الذات من الصرامة: "لا تمزح معي، هل سلكت الطريق من حائل إلى الآبار من قبل؟"

أتى جوابه برزانة الكلمة الواحدة الموقعة في النفس الرهبة: " لا ".

أي زمرة جريئة هذه! دليل مبتدئ، أربعة جمّالين ابتعد كل منهم عن الرَّحْل لمدة عشر سنوات أو أكثر، إبل متعبة ومنهوكة القوى ومعدات مكسورة ضعفت قدرتها على الاحتمال. نظرت محدقا بحزن إلى بيل عبر نار المخيم. لقد اتضح جنون عملنا الجريء. قمنا بتقييم حظوظنا بدقة ورصانة، غير أنه كان علينا في آخر الأمر أن نعترف أننا كنا شديدي الغرور لنسلّم بالهزيمة. أرخيت جسمي بحذر شديد داخل كيس نومي، وفي تلك الليلة فقط من ليالي الرحلة بأكملها، كانت السماء تخلو من الجمال إذ كانت باردة وسمجة ليس غير. "لم يكن هناك ألم عدا ألم الظهر وكان الدارفون عزاءه الوحيد".

عند الفجر، سحبت جسمي من كيس نومي بلطف. كنت متيبسا

ومتألما ولكنني اندهشت وسررت لأنني كنت أستطيع المشي والركوب. وبعد الأعمال المعتادة المألوفة المتمثلة في وضع الرحال على الإبل والحزم وتقويض الخيام، فحصنا خرائطنا وتعرفنا بواسطة البوصلة على موضعنا بالنسبة إلى المعالم التي كانت حولنا. أخيرا، كانت هذه هي الصحراء الحقيقية. كان على الإبل أن تشق طريقها بصعوبة صعودا ونزولا على كثبان الرمال الضخمة، حيث كانت المسافة التي تفصل قمة كل كثيب عن سطح الأرض الذي يقع إلى الأمام تقدر في غالب الأحيان بمائة وخمسين قدما، وكانت أشد انحدارا من المنحدرات التي يتزحلق عليها محترفو رياضة التزلج على قمم آسبن.

أثناء تقدمنا العسير الشاق، أربكتنا رؤية ما يبدو أنه بحر لا ينتهي من كثبان الرمال. كما لم يكن باستطاعتنا السير في خط مستقيم، بل كان علينا أن نحاول التعرف على المسالك من خلال شبكة الممرات الكثيرة المعقدة. إلى اليمين ... أم إلى اليسار؟ هل سيكون كلاهما معبرا غير نافذ؟ كان كل سبيل يمتد على مسافة بعيدة حولنا، وكانت مطايانا تنقل أخفافها بهدوء ولكن بحذر على امتداد المنحدرات الحادة. تناقص مشينا على موطئ الأقدام شيئا فشيئا خشية أن نتسبب في انحدار هيل من الرمال. ولشد ما كانت دهشتنا عندما رأينا ذئبا رماديا وسط هذا الإقفار. في حقيقة الأمر، رأيناه بصورة خاطفة حتى أننا نستطيع أن نقول بأمانة أكثر إننا رأينا شبحا للذئب. وعلى غرار الحيوانات الأخرى التي تعيش في الجزيرة العربية، فإنه كان يعلم بالتأكيد "أن الإنسان كان مصدر أذاه..." كما قال لبيد، لذلك غاب عن الأنظار قبل أن نتمكن من رؤيته بصورة واضحة. وهكذا بلغ مجموع ما شاهدناه من حيوانات خلال الرحلة ذئبا وثعلبا وحية ودزينة من طيور السماني وأرنبة برية تقارب حجم السنجاب، ولا تظهر منها سوى الأرجل.

بعد رؤية الذئب بقليل، كتبت في دفتر يومياتي: "كانت الشمس قد غربت وأصبح كل ما يحيط بنا في وئام. الجو جميل وهادئ. لا يسمع سوى ضجيج صوت القهوة التي تسحق والثرثرة اللطيفة لأصوات الرجال. اللون في الغرب برتقالي خافت والسماء فوقنا زرقاء فاتحة يذبل لونها في الشرق ليصبح رماديا. تغطي الصحراء أزهار صغيرة بيضاء وباقات من الأعشاب التي تحبها الإبل كثيرا. لكل الأدغال أغصان خضراء متميزة. يخيم الهدوء والبهجة على المكان باستثناء آلام الظهر والأنف والانشغال بموضوع الماء!".

في اليوم التالي، بدا الرجال كأنهم فقدوا نشاطهم. كانت الرمال العميقة مثل سبخة تستنزف حيويتنا ومزاجنا النفسي. وبينما كنا نترجل تارة ونركب تارة أخرى، وجدت أنني غالبا ما أكون في المقدمة صحبة بيل. وعلى الرغم من أنه كان من المفروض أن يقودنا، فإن " كامل " كان يكاد يوجد دائما في ذيل القافلة، الأمر الذي جعلنا نذهب إلى الظن أنه كان يخشى الوقوع في الأخطاء التي ارتكبناها باستمرار. بدأت الجهة الخلفية لجبل أكثر ارتفاعا تظهر فوق قمم الكثبان بصورة تكاد تنذر بالشر. كانت الخرائط تشير إلى أن الجبل يقع بيننا وبين المدينة الصغيرة جبه، مستكنا مثل جزيرة، بعيدا عن الشاطئ بقليل في بحر شاسع من الرمال. لذلك علمنا أنه كان علينا أن نتوجه يمينا أو يسارا. رفض كامل أن يورط نفسه و لم تكن لي ولبيل أي فكرة عن الطريق التي كان علينا أن نسلكها. وفي آخر الأمر وجه هويمل بثقة في النفس مطيته نحو اليمين، شمال غربي جبل غوته. فكان من شأن ذلك القرار العظيم أن تسبب لنا في ثلاث ساعات إضافية من السير الشاق في ذلك اليوم.

بعد ذلك خرت إحدى المطايا الجديدة من الإعياء على جانب الطريق.

كانت السرعة التي حدث بها ذلك أمرا غريبا: تتوقف الإبل عن الحركة - بكل بساطة - مثل السيارة، ولا توجد فترة طويلة من تدني الأحوال. تأتي النهاية تماما كأنك أدرت مفتاحا لقطع الكهرباء. وقبل أن تتمكن المطية من الوقوف، يجب إنزال الحمولة من على ظهرها وإعادة توزيعها.

بعد ذلك انكسرت علبة ماء، وهذا في حد ذاته أمر سيئ بما فيه الكفاية، إذ إنه يكشف أن المعدن، مثل البلاستيك، لم يعد يقدر على الاحتمال، ولذلك ينبغي أن نكون على استعداد لمجابهة مقدار أكبر من الكسر خلال الأيام القادمة. كانت العناية بأي شيء أمرا صعبا أثناء هذه الرحلة الشاقة، إذ كنا نجلس على الأشياء أو ندوس عليها أو كانت تقع منا، ولم يكن أي شيء منيعا أمام مشية الإبل العنيفة. اندهشت عندما اكتشفت أن جهاز التسديد الحديدي لبندقيتي الجديدة، التي كنت أحفظها داخل وقاء بندقية مبطن، كان قد فك تقريبا من البندقية. ليس الأقوياء هم الذين يستطيعون البقاء في الصحراء وإنما أولئك الذين يستطيعون التكيف.

حوالي منتصف النهار، وعلى بعد ما يقارب الثلاثين كيلومترا خارج جبه، وصلنا إلى بعض الخيام السوداء التي يملكها بدو بني حرب. عندما أبصرونا نقترب، أسرعوا إلى خارج الخيام ليطلبوا منا أن نشرب القهوة معهم. لم نكن بحاجة إلى أي محاولة لإقناعنا في ذلك اليوم شديد الحرارة والرطوبة وفاتر الهمة. لقد بلغ منا الظمأ مبلغا شديدا. نزلنا وعقلنا الإبل وحجبنا بنادقنا عن النظر ثم دخلنا بسرعة، شاكرين، تحت الظل البارد لإحدى الخيام. ولشد ما كان استغرابنا حينما فتح هويمل الصندوق الحديدي الذي كان صاحبه يستخدمه كبيت للمؤن وخزانة للنفائس ولحفظ الآنية الصينية، وأخرج أباريق وأوعية ثم بدأ يعد القهوة. كان

مضيفنا متسامحا إلى أبعد حد. أتذكر أنني كنت أفكر في أنه لو زارني غريب وبدأ يطهي طعاما، لكنت اندهشت واحتدم غضبي. غير أنه بينما كان هويمل يتصرف وكأنه "سيد المنزل"، انهمك المضيف، الذي كان يبدو عليه عدم الاهتمام، في جلب دلو من جلد به حليب إبل دافئ رغوي، وتمر وصينية من شحم ثلجي البياض يؤكل مع التمر. ومثل الجراد، أتينا على كل شيء وقعت عليه أنظارنا. شعرت بالإحراج والذنب إذ أننا كنا بالتأكيد قد استهلكنا طعام العائلة لمدة أسبوع. لم يأكل المضيف شيئا وإنما كان يصب القهوة بسماحة نفس ويمدنا بفيض قيم من المعلومات حول النفود. لم تكن الطريق المؤدية إلى الشقيق أو الآبار معلّمة. لقد ذكر أنه خلال العهد الذي عاش فيه والده وحده، كان الناس يسلكون تلك الطريق بكثرة مما جعل المسافر الذي يتمتع بخبرة يجدها دائما. نظرت إلى كامل نظرة سريعة بنيّة الأذى. إلا أنه لا يوجد اليوم أي شيء يستطيع أن يراه الدليل. ثم قال الرجل بشيء من التفاؤل أكثر من الحذر، إنه سوف لن يستعصي الأمر إذا حافظنا خلال سيرنا على البركانين التوأم إلى اليمين. وفي ما عدا ذلك، لا توجد علامات أخرى.

سألت "هل إن الآبار سليمة؟"

أجاب بما يقابل عند أهالي تكساس: "يقولون إنها كذلك"، غير أنه أشار إلى أن الأمطار لم تنزل في الصحراء لعدة سنوات وأنه لم يزر الآبار لأكثر من عقد من الزمن.

ثم سألته كيف يمكن له العيش بدون ماء الآبار؟

فرد قائلا: "اليوم، لم نعد نرعى إبلنا في الصحراء مثلما كنا نفعل قديما. إننا نستعمل أطراف الصحراء فقط ونشرب الحليب الذي تنتجه إبلنا بعد

أن ترعى من كلإ فصل الربيع. إننـا نحافظ دائما على مسافة سير يوم أو يومين على أقصى تقدير من نقطـة تزود بالمـاء، أين تزودنـا العربات التي تملكهـا قبيلتنا بـبراميل ماء ذات مائـة جـالون". وأضاف وهو يضحك، بشـيء من السخرية مـن نفسه: "لم نعد بـدوا حقيقيين. إننا نعيش على ذكرياتنا وتتوقف حياتنا على العربة".

وبعد أن شـكرنا مضيفنـا، ألقينا بأنفسـنا وسـط الكثبان. حرك زامل رأسـه يمنـة ويسرة بينمـا كنا نتـأمل، منذ قمة أحد الكثبـان الضخمة، في المدى الذي كـان يتراءى أمامنـا والذي كـان يبدو كسلسـلة متعاقبـة لا متناهيـة من الأهلـة والجرف من الرمال، ثـم غمغم قائلا: "صعب، وا لله صعب".

تسـللنا في طريقنـا من خـلال كثبـان كثيفـة منحنيـة شـديدة الانحدار. يتشـكل كل من هـذه الكثبان التي تتخذ هيئـة قمر في الربع الأول، بفعل قرون مـن الرياح الـتي كومت شـيئا فشـيئا رمـالا حول مـا قد يكون في الأصل قاعدة صخرة أو أجمـة. ويعرف هذا النـوع من الكثبان - الذي طالما حير رحالة القرن الماضي - باسم برشان. تتقدم كثبان البرشان إلى الأمام قليلا قليلا مثـل الكتل الجليدية ولكنهـا تحتفظ بأشـكالها الأساسية طوال قرون.

كنا نسـتطيع رؤية الـبراكين أمامنـا خلال معظم فـترة الصباح. أقول معظم فـترة الصبـاح لأن السـير صعـودا ونزولا من الكثبـان كـان أشبه بوجودنـا في بحـر متقلب. لمـا كنـا نغـوص في المنخفضـات الطويلـة التي تخلفها الأمواج، كـان الأفق يتقدم نحونا إلى مـا يقارب الخمسـين أومائة ياردة، وحتى عندما كنا نتسلق إلى قمة العديد من الكثبان، كانت كثبان أخرى، في ما يبدو أكثر ارتفاعا بكثـير، تصطف أمامنا بصفة لا متناهية.

كـان هـذا هو الشـيء الذي جعـل السفر في الصحـراء أمرا محيرا بهذه الصفة، حتى عندمـا يكون المرء قريبا نسبيا من علامة تهدي المسافر كما كـان الشـأن بالنسـبة لنـا خلال ذلـك الصباح. يحتـاج المرء إلى بوصلـة خلال العواصف الرمليـة والليالي الغائمـة، وبالطبع، لم يكن هناك أي أثر كمـا لم تكـن هنـاك أي إشـارة في ذلك الوقـت لمرور حيوانـات أخرى أمامنا.

حوالي منتصف النهـار، كدنـا ندرك الجبل ونحن نسـير في اتجاه شـرقه تقريبا ووجدنـا أنفسـنا عند حافـة حـادة أخرى من الرمـال. لقد انتهى الإصبع الطويل للنفود الـذي كنا نسـافر عبره. نزلنـا إلى منخفض حمم بركانية ملحي صوانـي متآكل أدى شيئا فشـيئا إلى أرض منبسطة. كان السهل مجدبا أجرد خلافـا للرمال المورقة نسـبيا. عند سفح الجبل، كان يوجد حوض شـيد في وقت مضـى لتجميع ميـاه الأمطار الـتي تنزل من حين لآخر، غير أنـه كان يبدو فارغا قد دمرتـه الشمس المتوهجة وأذواه الملـح. وعلى بعد مسافة، كانت "جبه" تسـتكن في لحف سلسلة صغيرة من الجبال، مثل حبة بازلا خضراء في قفاز اللاقف في لعبة البايسبول.

بينما كنا نتقدم ببطء عبر السهل تحت شمس الأصيل الساطعة، تفتحت البازلا الخضراء لتكشـف عن واحات صغـيرة وحدائق نخيل وبنايات بنية اللون. ربمـا يعود الأمر إلى الوقت مـن النهار، غـير أن "جبه" خلفت في نفسـي انطباعـا بأنها مدينـة مهجورة، ذلك النوع مـن القرى التي يجدها الإنسان في منطقة شامباين بفرنسا.

مضينـا مباشرة نحـو وسط المدينـة قبل أن نبصر أي كـائن بشري. ثم تمـت قيادتنا نحو سـاحة مسيجة حيث تمكنـا من إنزال الحمولـة من على ظهور مطايانا، وقادتنا مجموعة من الشبان إلى مقهى القرية.



في جبه، استضافنا الأعيان المحليون في غرفة ملآنة بالدخان وكانت القهوة التي قدموها لنا أكثر بكثير من الحديث الذي آنسونا به.

كان أكثر الشبان الذين التقيناهم مجاهرة بالقول، شاب فلسطيني من بلدة الخليل. كان هو الممرض أو الطبيب في القرية وكان يتكلم قليلا من اللغة الإنجليزية. كان أول ما قال لنا تقريبا: "هل ترغبون في زيارة المنزل الذي قضت فيه السيدة آن بلانت الليل؟"

كانت قرية "جبه" من وجهة نظر السيدة آن بلانت:

" إحدى المدن الغريبة في العالم، وفي نظري إحدى أجملها. ويفسر اسمها "جبا" أو بالأحرى "جبة"، الذي يعني بئرا، موقعها إذ إنها تقع في حفرة أو بئر في النفود ... إنها مساحة شاسعة جرداء في محيط من الرمال، من أربعمائة إلى خمسمائة قدم تحت معدل مستواه ويبلغ عرضها حوالي ثلاثة أميال.

شيدت المدينة ذاتها (أو القرية، إذ لا تعد سوى ثمانين بيتا) عند طرف السبخة، ٢٨٦٠ قدما فوق مستوى البحر ولها النوعية نفسها من النخيل التي رأيناها في "

جوف " ولكن على نطاق صغير جدا. تبلغ الآبار التي تستعمل لري هذا النخيل خمسا وسبعين قدما عمقا وتشغلها الإبل شأنها في ذلك شأن كل الآبار في الجزيرة العربية. كما أن القرية رائعة الجمال بحدائقها وجدرانها ذات الشرفات.

هذا ما كان من أمر الوجه الخارجي لجبه. أما الداخل، فهو أقل جاذبية، حيث تبدو المنازل متواضعة ... وسكانها في الواقع فقراء جدا وليس لهم أي اتصال بالعالم الخارجي، باستثناء المسافرين قليلي العدد بين حائل وجوف الذين يتوقفون لقضاء ليلة بينهم. عند مرورنا عبر جبه، كان الشيخ قد توفي قبل فترة وجيزة وكان شاب في الثانية أو الثالثة والعشرين من العمر يرعى شؤون مكتبه، ولم يكن هذا الشاب يتمتع بأي سلطة على أقرانه الشبان الذين هم مجموعة كثيرة الضوضاء ممن ليسوا خلا ولا زيتا" *.

تمت مرافقتنا مرورا بعدة آبار عميقة وعبر ممرات ضيقة ملتوية للقرية حتى وصلنا إلى مدخل مظلم. هنالك، وجدنا أنفسنا داخل غرفة تشبه الكهف، تبلغ ثلاثين قدما طولا وخمس عشرة قدما عرضا ولها سقف ارتفاعه عشرون قدما. كانت عدة أنواع من السجاد مفروشة على الأرض، وفي إحدى الزوايا يوجد موقد مفتوح تتوهج فيه النار وقد وضعت عليها أباريق القهوة لتغلي. أخذ أبرز رجال القرية يتجمعون، واحدا بعد واحد، مثنى وثلاثا، وكلما دخل أحدهم، وقفنا بضجر وتصافحنا بوقار.

بدأ الليل يسدل ظلامه. أتذكر أنني كنت أفكر في أن واجب احترام الضيافة لم يسمح لنا ببناء وقاء ضد اتجاه الرياح أو بسط أكياس نومنا. كنت أود الإفلات، ويرجع ذلك إلى انزعاج بيل الذي كان بوضوح قد وصل إلى أقصى قدرته على التحمل، بعدما انتهى من شرب عشرين فنجانا من القهوة على أقل تقدير. في تلك اللحظة، طلب من صبي صغير

* السيدة آن بلانت، زيارة إلى نجد (لندن، ١٨٨١) الجزء الأول، ص ١٨٨، ١٨٩.

أن يحضر مصباحا. ولشد ما كان فزعي عندما رجع بمصباح يعمل بالضغط: عندما يتم ملء الفانوس الذي يعمل بالضغط بالوقود المناسب ويكون صالحا للاستعمال، فإنه يعطي ضوءا أبيضَ متألقا ناصعا. وعندما يكون المصباح وسخا والضغط غير دقيق أو الوقود غير مناسب، فإنه يكون بديلا مناسبا لكوكتيل مولوتوف.

وكزت بيل بمرفقي استرعاء لانتباهه وأوحيت له بأن الوقت حان لكي ننسحب بسرعة. ولما هممنا بالوقوف، ملأ شخص ما المصباح بالوقود، وبدأ يضخه بنشاط لزيادة ضغط الوقود وأشعله مثيرا بذلك رعبي. ارتفع عمود من النار مثل اليكة المتوهجة إلى السقف، مضيئا كل زاوية مظلمة بالغرفة مثل مصباح كليغل في استديوهات التلفزيون. لحسن الحظ، كان المصباح على الأرض عند اشعاله أو إنه كان سيقع وينفجر فورا. كان الشخص الذي أشعل المصباح يقف تماما أمام المخرج الوحيد. أحسست بموجة من الحرارة تتحرك بسرعة عبر الغرفة المتندية وشديدة البرودة، فمرت بمخيلتي رؤيا خاطفة لنهاية مضطرمة لرحلتنا ليس على يد مصير مأساوي محتوم، بل نتيجة لحماقة مخزية.

تجمدنا في أماكننا ننظر إلى الرجال وهم يتجمعون حول المصباح على المسافة التي تسمح بها جرأتهم، محاولين أحيانا فحص المضخة من خلال هبات اللهيب ليحركوا رؤوسهم يمينا ويسارا في آخر الأمر ويقولوا: "للأسف، لا فائدة من ذلك". وأخيرا، أطلقوا الضغط وأخذ وعاء الغازات المضغوطة الملتهبة يخمد شيئا فشيئا. وقبل أن يفكر أي أحد في المحاولة مرة أخرى، توجهنا نحو الباب بسرعة متعمدة. يبدو أن بيل قد ذهب لزيارة منزل السيدة آن بلانت – غير أنه ثبت أن هذا لم يكن سوى حجة للالتحاق بنقاش سياسي مع شبان القرية – أما أنا، فرجعت

لبناء وقاء ضد اتجاه الرياح في ساحة مأوى الخيل مستعملا في ذلك رداءاتنا.

كانت ساحة مأوى الخيل مغطاة بطبقة خفيفة من الغبار والسماد والرمال وكانت مسدودة من جهة الامتداد المفتوح بسياج سلكي يقل وجوده في الجزيرة العربية. وقد ألح زعيم القرية على أن نكون داخل السياج وذلك "للحماية". غير أن السياج لم يوفر لنا أي حماية ضد الرياح، بل حبسنا بكل بساطة داخل منطقة حيث كانت حيوانات لا تحصى قد هيأت قاعدة لتوالد الخنافيس والفئران والديدان ورفاق ليل آخرين. كان نسيم خفيف قد بدأ يهب، وكان واضحا أننا سنستيقظ بأنوف ملأى بالغبار على الأقل. ربطت بطانية إلى السياج ونصبت خيمة متواضعة مستعملا عباءاتنا التي أحكمت شدها من الجانب الآخر إلى قربوس الرحل، ثم زحفت داخلها وغبت في نوم خفيف مضطربا نوعا ما بسبب ما لحقني من غبار وخنافس وغيرها. أيقظني بعد فترة وجيزة بلبل الذي كان تعبا متضايقا وغير مهذب، والذي رجع من محاضرة طويلة مضجرة ومتسمة بالتكرار حول سياسات الشرق الأوسط. تذمرنا وحككنا وتأملنا معا وفرادى حتى تباشير الفجر في الصحراء التي كانت تنتظرنا.

لمسنا عند الفجر جدية جديدة عند رفاقنا حيث كان كل منهم يتنقل من مكان إلى آخر. تفقدنا أخفاف الإبل مرة أخرى وقمنا ببعض إصلاحات آخر لحظة للعدة. كانت قِربُ الماء ملأى إلى حد الانفجار وكانت تبدو مثل أجسام قصيرة مكتلة مقطوعة الرؤوس لخنازير برية قتلت حديثا، تتمرغ في الوحل عند البئر.

حملنا الإبل، الواحدة تلو الأخرى، على أن تبرك وأرجلها الأربعة

مقيدة حـول الركبـة لكي لا تتمكن مـن الوقوف. فـأخذت تعلن عن يأسها وكرهها بصوت عال، متوقعـة بعض الأعمال الشريرة الجديدة في صراعها الطويل ضد الجنـس البشري وهي تغرغـر متوعدة وتكشف عن أفواه ملآنة بأسنان تبلغ حجم الإبهام. كان المشي بينها يبعث في النفس سـعادة مثل السعادة التي شـعرت بها أثناء الكـابوس الذي رأيت فيه أنني أصطدم مع أحد الشواهين الشرسة. وبدون مبالاة، أخرج زامل وراشد مكيـال عدة أوعيـة من الطحين وسـكبا عليها أكوابـا من الماء ثم واصلا تربيت الطحين جاعلين منه أرغفـة، وأخيرا، عندما اختلط الطحين والماء تمامـا، قطعا كويرات من العجين، الواحدة منهـا بحجم كرة التنس. قال بيل، الذي كـان يصور المشـهد فوتوغرافيـا وهو مشـوش الذهن إلى حد مـا، بصوت عال: "بـا لله عليك، الآن وقـد أصبحنا كلنـا على اسـتعداد للانطلاق، هل سـيبدأون في إعداد الخبز؟". رد زامل ضاحكا وهو يبدو كرئيـس طهـاة، بيديـه ووجهـه وثوبـه التي بيضهـا كلهـا الطحين: "لا، سوف نقـدم هذا للإبل لإعطائها قوة إضافية وسـوف نجعلها تشرب ماء أكثر". ثم ألقى زامل وراشد بنفسيهما وسط الأعناق المتمايلة والرؤوس والأسـنان وفي يديهما كويرات من العجين، وراحـا يقرفصان إلى جانب كل مطيـة ويمسـك أحدهمـا برأسـها ويفتح فاهـا بصعوبـة، بينما يدخل الآخر قضمـة ضخمـة من العجـين - وكثيرا مـا يفتح فمـه هو بدون أن يعي ذلك مثلما تفعل الأم مع ولدها. كان ذلك يشبه إدخال قطعة نقدية في ماكينة بياعة: كـانت الكويرات تبدو وكأنها تسافر إلى ما لا نهاية له ولا تؤثر إلا قليلا على عمـل جهاز الرغاء. كـانت الكويرة تسقط دون أن تتحول وجهتها وسط ممر مملوء باللسان واللعاب ورغاء الحنق. كان الرغاء يفوق الوصف.

في النهايـة، حوالي السـاعة التاسـعة صباحا، أعلن هويمل أن كـل شيء

كان مرتبا. سألته عن جميع المعدات ولكنه انتقص سؤالي بكل بساطة مرة أخرى. كان كل شيء على أحسن ما يرام وسوف تكون الرحلة سهلة وقصيرة، حيث أننا كنا محملين بجميع أنواع المعدات، والشيء الوحيد الذي نستطيع القيام به هو أن نتخلص من بعض الماء. وعلى كل حال، سوف نصل إلى الطرف الآخر من النفود دون أن نمس ماءنا تقريبا، بما أننا كنا متأكدين أننا سنجد على طول الطريق بدوا يلحون في تزويدنا بالحليب.

كانت إجابتي على هذا، "ربما - إن شاء الله! ولكن ماذا سنفعل إذا أعوزنا الماء؟".

عند مرورنا بالعظام المبيضة لجمل لم يفلح في عبور الصحراء.

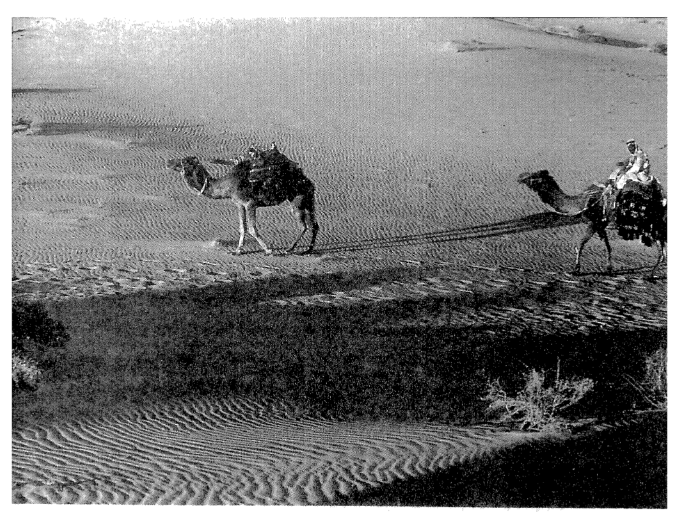


أجاب هويمل ساخرا بأنه جلب قرب الماء الإضافية التي طلبتها وأنه إذا أعوزنا الماء، فإنه سيستغني عن شربه طوال الرحلة كلها. ثم قال في تلك الملاحظة التي تختم الحديث عند الرجال الورعين إن "الله كريم" في كل الحالات. وبحركة تنم على أنه يرى أن هذه أسئلة مبتدئ، تحول إلى الحديث في أمور أكثر جدية.

تبين أن الحديث الذي يتسم بجدية أكثر يتمثل في ضلالنا عن الطريق حيث أن الطريق الصحيحة انطلاقا من جبه كانت قد قطعتها السلسلة القصيرة من الجبال المنخفضة التي كانت تطوق القرية من جهة الشمال. تصد هذه الجبال الرياح السائدة القادمة عبر صحراء النفود الكبرى، وذلك يفسر ربما وجود القرية، ولكن بالنسبة إلينا، كانت هذه الجبال حاجزا مباشرا. بدا لي المرور إلى جانبها مهمة سهلة، غير أن هويمل وكامل قررا أنهما لا يزالان في حاجة إلى دليل إضافي، وتمكنا من إقناع فتى بدوي وسيم حافي القدمين بالإنضمام إلينا. على بعد كيلومترين، وقعنا في ورطة من كثبان الرمال. وبعد ساعتين من المحاولات الفاشلة لاكتشاف ممر عبرها، كان علينا أن نعود من حيث أتينا تقريبا، ونقطع المسافة التي سبق أن قطعناها حتى نجد "مسلكا ".

ربما كان الصبي البدوي قد تحول عن اتجاهه بالتقائه بنا، إذ كان ذلك بالنسبة إليه "صدمة حضارية" مثلما تصورها كتيبات البقاء عندما تصف التقاءنا "بالسكان الأصليين". في حقيقة الأمر، وعلى الرغم من أن الصبي لم يكن قد اطلع على كتيبات البقاء، فإنه اتبع نصائحها على وجه التمام.

كان "يبتسم كثيرا ويستعمل حركات اليد ويحاول أن يسلي". وكان يومئ لي كلما اقتربنا من بعضنا ويتمتم ما أفترض أنه كان في اعتقاده



سلطان يعيد مطيتي إلى المخيم في وقت متأخر بعد الظهر، بعدما تقدمت لالتقاط بعض الصور.

أصواتا مهدئة. وفي النهاية، ضجرت من لعبه لدور "المواطن الأصلي"، فقلت: "ألا تستطيع أن تتكلم أيها الصبي؟ أين صوتك؟". ومنذ ذلك الوقت، بدأ يتكلم بصورة طبيعية، غير أنه بدا أنه لا يزال يفكر في أن وجودي هناك كان أمرا شاذا - أو كان شاذا أن أستطيع الكلام - ولذلك واصل محاولاته أن يسليني.

"هل ترى آثار الأقدام تلك؟"، قال ذلك وهو يشير إلى بعض آثار الأقدام الحديثة بعض الشيء، "إنها آثارصديقي". كانت الطريقة التي قال بها ذلك توحي بأنها دعابة. فهمت من تلك الملاحظة أنه كان يعلم أن الغربيين ينتظرون أن تكون لدى البدو معرفة بآثار الأقدام مكتسبة عن طريق الخبرة، وينتظرون منهم أن يتصرفوا بهذه الطريقة.

سـألته: "من هـو؟". تردد ثم قـال: "محمد". كان ذلـك جوابا سـهلا، وهـو ما يقـابل دجـو أو دجون، فواصلت الضغـط عليـه بسـؤالي: "ابن من؟". أوقفه ذلك، ثم انفجر ضاحكا، وبعد لحظات قال وهو يضاعف ضحكـه: "فلان بن فلان". ضحكنـا جميعا لذلك، إذ أنـه لعب لعبته مع غريب و لم ينجح في الدعابـة. كـان من شـأن هذا الموقف أن يبعث في الرحلة حيوية ويخلق حسب المعايير البدوية، حديثا ممتعا.

واصل الصبي الطريق معنـا لعدة سـاعات حتى بلغنـا كثيبـا يشبـه تماما الكثبان الأخرى التي كنا رأيناهـا. هنالك توقف وودعنا، ثم غاب وراء الهضبة.

بعـد بضع ساعات من التقدم بجهد شـديد صعودا على قمم من الرمال ونزولا إلى المنخفضـات، وبعد الانحـراف عن السـبيل السـوي حول سلاسـل تلال دورانية، توقفـت مطية الدليل. جـاء هويمل، الذي رفض أن نـأخذ معنا مطيتين احتيـاطيتين، بفكرة رائعـة: أن نرجع المطية المنبوذة مع الدليل.

ظاهريا، يبدو أن هذا الفعل يخلو تمامـا من الشعور بالمسؤولية حيث أن كامل هو الوحيد الذي سبق لـه أن عبر جزءا من هذه الصحراء، غير أنه في الحقيقـة، لم يقـدم لنـا أي مسـاعدة تذكر. فقـد كـان على غرار من تربى في نظـام بـيروقراطي، يتخذ احتياطـات كبيرة عندمـا تكون الطريق محل شـك، فلا يسـير أبدا في ترتيـب قبل الخـامس مـن رأس القافلـة. وعندما تتبين لنـا الطريق، يسـرع إلى القيـادة، مترنمـا برباطـة جأش وهو يدلنا بغرور على سبيلنا.

وكمـا سـجلت في كتيب يومياتي: "ليس لنـا دليل الآن، وقد حصلت بيـني وبين هويمل مجادلـة أخـرى حول الإبل والمـاء. تحمل جميـع مطايانا

أثقالا إضافية، حيث أننا أخذنـا أكثر كمية الماء من الدليل الذي غادرنا. مع شيء من الحظ، سيصل كامل إلى جبـة عند الغروب أو على الأقل عند الضحى".

كانت المشكلة الحقيقية تتمثل في قِرَب الماء. ومما أثار فزعنا أننا كنا ننظر إلى تأثيرات الكسر المستمر الذي تتسبب فيه أخفاف الإبل، حيث كانت القطرة الكبيرة والنفيسة بعد القطرة ترسم الأثر الذي تخلفه كل مطية فوق الرمال. مع غروب الشمس، أصبنا حقا بالذعر. ففي كل مرة كنت أعبر فيها عن انشغالي، كان هويمل يكرر الجملة التي كان يرددها والتي تتمثل في أن القِرَب كانت ملآنة بما يفوق طاقتها، وأنها سوف تمنع التسرب بذاتها، وأننا نحمل كمية كبيرة من الماء وأنه عليَّ أن أترك الماء تحت مسؤوليته وأن "الله كريم".

ومما زاد الطين بلة أنه كان واضحا أننا كنا لا نحقق إلا تقدما طفيفا في سيرنا. كان على إبرة الاتجاه في بوصلتنا أن تشير إلى ٣٣ درجة بصفة متواصلة. غير أن التواصل كان بطبيعة الحال كلمة مستحيلة لطريقنا في النفود، حيث كنا غالبا نلاقي كثبانا تشبه المتاهة، مرتفعة إلى عدة مئات من الأقدام فوق سطح الصحراء، تعوق تقدمنا الأمر الذي جعلنا ننحرف بعد كل كيلومترين رجوعا إلى ٣٣ درجة، ولا شك أننا انحرفنا ثلاث أو حتى أربع مرات من جانب إلى آخر.

تألمت ألما شديدا عند إدراكي لأحد عيوبي الذي يتمثل في أنني كنت مخططا عنيدا. فقلت في نفسي، كم كان يحسن بي أن أكون مرحا وغير منشغل البال حتى حول التوقعات المحدثة روعا ورهبة في النفس بخصوص الموت في الصحراء، عوضا عن الوقوع بين البراثن الشريرة للنظر في العواقب. إذا كان الجبان يموت آلاف المرات ولا يموت الرجل

الشجاع سوى مرة واحدة، فإن المخطط يتألم أكثر من ذلك كله في محاولته تجنب المتعة الأثيمة والألم المستحق للمستهتر بالمعاصي والملذات. كنت تائها بين هذه الأفكار وكدت أنسى مجادلتي الأخيرة مع هويمل، عندما فوجئت بتربيت على كتفي، فالتفت جانبا ليقع نظري على وجه راشد المبتسم. لقد جاء كعادته للمصالحة.

بعدما انتهى راشد من إبلاغ الرسالة العادية التي تتمثل في أن هويمل كان يقوم بما في وسعه وأن الظروف كانت صعبة وأن الصحراء كانت سهلة العبور وأننا لا نفهم، هززت رأسي بحزن يمينا ويسارا وقلت: "لا يا راشد، لقد ظننت أنني أستطيع أن أكون بدويا معكم في هذه الرحلة، ولكنني لا أستطيع ذلك".

أجاب: "بلى يا أبا جورج. إنك بدوي. أنت لا تشرب الماء، ولا تنام على الأرض وتسير مع أحسننا وتجيد الرماية أكثر من أي منا وتحفظ الشعر". ولتتويج هذه المجاملة أضاف: "وأنت أبو البوصلة!".

رددت: "لا يا راشد. الله يعلم ما هو صائب وما هو خطأ. إني أقدر الأشياء اللطيفة التي ذكرتها. إني أخطط وأعد وأفكر وأنشغل بينما أنتم تشترون إبلا واهنة وقربا ترشح وتأكلون كل البرتقال خلال اليوم الأول. لا، ليتني كنت بدويا، غير أنني لا أستطيع ذلك".

"بلى يا أبا جورج، تستطيع ذلك ولكن لا عليك، إنك رجل طيب على كل حال ... فقط، لا تهتم".

أعتقد أن كبلنغ كان على حق.

واصلنا السير إلى الأمام، إذ إن الرمال كانت عميقة ولم نكن نستطيع المشي. لقد حاولنا عدة مرات ولكننا كنا نتعثر ونجبر على بذل أقصى

الجهد للالتحاق. وعندما انتصف الأصيل، بدأ النهار يظلم وبدأت الرياح تعصف. تقبضنا تحت فروواتنا وحمدنا الله على أن الرياح كانت باردة نسبيا. كانت الرمال تذرى من قمم الكثبان مثل رذاذ البحر. في منتصف فصل الصيف، يستطيع هذا أن يكون مثل مصهر هباب. هناك الكثير من الكلام عند الرحالة الأوائل، الذين كان رعبهم أكبر ووجودهم في العراء أكثر، حول ما كان يسمى بالرياح السامة. في حقيقة الأمر، كانت تلك الرياح بكل بساطة، مفرطة الحرارة. إن دفعة من الرياح تحميها أرض الصحراء المتوهجة تسبب أكثر من تيبس الشفتين واحمرار العينين، حيث تجفف كل الجسم مدمرة قدرته على التبرد ذاتيا. وعندما تستمر على امتداد فترة قصيرة، فإنها تسبب العناء، أما على فترة طويلة، فهي تجلب الموت للناس والإبل.

تتميز صحراء النفود الكبرى بالقدرة على التغير حسب حالة الطقس، وقد حذرنا ويليام بالجريف من أشد مظاهرها إثارة للرهبة.

" لقد سمعنا الكثير حولها [رمال النفود] عن طريق البدو وسكان المدن، لذلك تكونت لدينا فكرة حول شيء عسير ورهيب جدا. غير أنه تبين أن الحقيقة، وخاصة خلال أيام القيظ هذه، أتعس مما ورد عن طريق السماع أو التصور.

كنا الآن بصدد عبور محيط هائل من الرمال السريحة الضاربة إلى الحمرة واللامتناهية بالنسبة إلى العين المجردة، تتكدس في سلاسل من التلال الضخمة التي تمتد في تواز مع بعضها البعض من الشمال إلى الجنوب، تموج بعد تموج، يرتفع كل منها إلى مائتي أو ثلاثمائة قدم في المعدل، لها جوانب منحدرة وقمم مستديرة محددة في كل اتجاه بفعل الرياح الهوجاء الصحراوية التي لا تثبت على حال. وعند الدخول إلى أعماقها، يجد المسافر نفسه كما لو كان سجينا وسط حورة رمل خانقة ومطوقا من كل جانب بجدران متوهجة، وفي أحيان أخرى بينما يكون بصدد صعود منحدر بمشقة، يطل على ما يتراءى له أنه بحر شاسع من النيران،

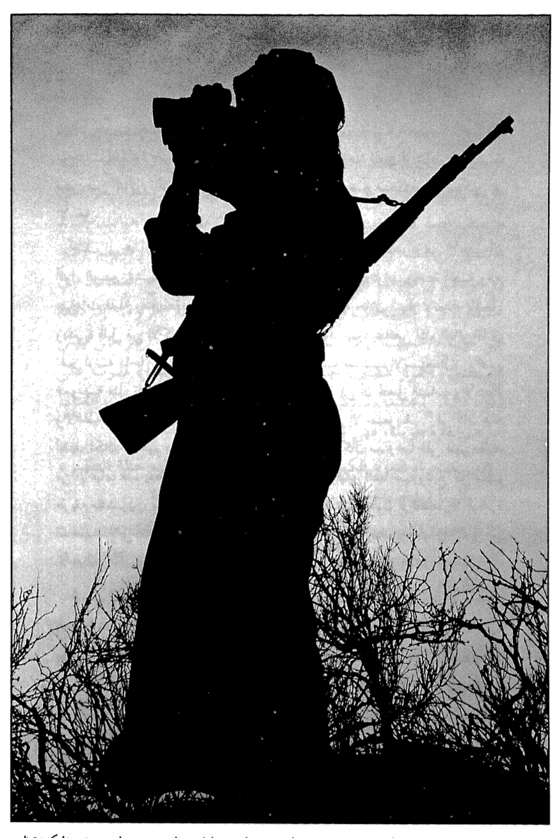
يتزايد حجمه تحت تأثير رياح موسمية شديدة ويتغضن بفعل هبة مضادة جاعلة منه موجات صغيرة حمراء حارة. لا يوجد ملجأ ولا راحة للعين أو الأطراف وسط فيض من النور والحرارة ينسكبان من أعلى على وهج مستجيب ينعكس في الأسفل... .

أضف إلى هذا إرهاق أيام الصيف الطويلة من الكدح - أعتقد أنه من الأحدر أن أقول السير بمشقة - عبر أرض حلل محرقة، على متن دواب واهنة ذاهلة ومع ساعات قليلة ومتقطعة من النوم ليلا وبدون استراحة خلال النهار لانعدام الملجأ، وبشيء قليل من الأكل وأقل من ذلك من الشرب؛ بينما يتناقص الماء الفاتر الذي تغير لونه داخل الجلود من جراء التبخر أكثر منه بسبب الاستعمال؛ وشمس عمودية مثل تلك الشمس التي تسطع متوهجة إلى أن تجعل الثياب والأمتعة والأغطية تبعث رائحة الاحتراق ولا تسمح باللمس إلا بصعوبة. " لو كان هذا أبديا، لكان الجحيم بعينه ". قلت ذلك لرفيقي الذي كان مسترخيا على ظهر مطيته من الإعياء، فلم يعط جوابا. وسرعان ما نفذ مرح البدو الصاخب وتابع كل منهم طريقه منتشرين، واحد إلى الأمام وآخر إلى الوراء، في سكون لم تقطعه إلا الزمجرة الغاضبة للإبل عندما تضرب لتزيد من سرعتها، مثلما كان يحدث في كثير من الأحيان " *

لحسن الحظ كان عبورنا في شهر مارس حيث كان الجو باردا نسبيا. ومثلما عشنا ذلك قبل الوصول إلى حائل، فإن العاصفة الرملية تنقلب بطريقة لا نشعر بها إلى عاصفة ممطرة. وعلى الرغم من أن الأمطار لم تهطل بما فيه الكفاية لتؤثر في أرض الصحراء، فقد كان لها تأثير على معنويات راشد الذي كان أكثرنا تقلبا في المزاج. في النهاية، عندما توقفنا حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر حتى تستطيع الإبل أن ترعى، توجه نحوي مبتسما وقال: " أترى يا أبا جورج، لقد وهبنا الله المطر ". أجبت مستحضرا دعابة قديمة بيننا: " نعم، والبرتقال أيضا ". تبعت

---

* بالجريف، الجزء الأول، ص ٩١-٩٢.



هويمل، المسؤول الصباحي عن المراقبة، يتثبت من خلال إشراقة النهار، الطريق المناسبة عبر المنخفضات المتكهفة التي تنتشر في النفود.

ذلك قهقهة صاخبة ثم قال بأعلى صوته: " أنت أيضا سوف تصبح بدويا ".

غير أن الدعابات لن ترفع معنوياتنا إلى حد بعيد ونحن نشاهد قرب الماء تنكمش ببطء. كان المخيم في تلك الليلة كئيبا لأن سلسلة الجبال القريبة من جبة كانت قد غابت عن أنظارنا تقريبا، وكنا نجهل ما كان ينتظرنا إلى الأمام. وحتى خرائطنا كانت غامضة عدا الأساطير المشؤومة، "مناطق شاسعة من كثبان الرمال" و "معطيات غير مكتملة حول تضاريس الأرض ". أتذكر أن الأمسية كانت قد أخذت طابعا يتماشى مع قول مأثور قديم فيه شيء من الأسى، يدور على لسان بيل ويقول: " يمكن للمكفوفين أن يقودوا مكفوفين غير أنه لا يمكن لقاصري العقول أن يقودوا قاصري عقول".

كان الليل باردا ولكننا بخلنا حتى بالقهوة والشاي اللذين يتم إعدادهما بالماء النفيس، ثم إن النجوم كانت تبدو مغشاة بسحب منذرة بالشر.

في الصباح التالي، كنا متلهفين إلى فحص قِرَب الماء والحيوانات وأصررنا على الانطلاق باكرا مخططين إلى يوم طويل ونشيط. غير أن سوء الحظ بدا وكأنه يتابع كل خطوة من خطانا.

على الرغم من محاولات الطمأنة التي قام بها هويمل في اليوم السابق، واصلت قِرَبُ الماء الرشح وبدأ القلق بخصوصها ينتاب البدو أيضا. كما تواصلت الرمال عميقة بدون انقطاع حيث لم نجد موطئا ثابتا للقدمين، بل كانت الرمال تكون حواجز أمامنا بصورة دائمة. ثم بدأت الرياح تعصف، وشيئا فشيئا تطورت لتصبح رياحا رملية هائلة غامرة تواصلت معنا بقوة عنيفة كامل اليوم. أغمضت عينيَّ قليلا، فنقلت ذهنيا إلى

وسط المحيط الأطلسي. كانت الكثبان ترتفع مثل أمواج ضخمة عارمة وأصبحت الرياح باردة قارسة. كانت الرمال تتطاير من قمم الكثبان لتلسعنا مثل الرذاذ، واندمجت السماء مع الصحراء بحيث فقدنا الإحساس بالاتجاه. كان يبدو لنا أن هناك كمية من الرمال فوقنا بالقدر الذي كانت عليه تحتنا. انتشر نور الشمس ليصبح ضبابا رقيقا أربد ضاربا إلى الصفرة. وعلى الرغم من أن كفياتنا كانت ملفوفة بإحكام حول أنوفنا وعلى أفواهنا وكانت رداءاتنا المكسوة بالفرو مشدودة بإحكام حول أكتافنا وكانت رؤوسنا منحنية، فقد كنا أهدافا سهلة المنال لكل هبة ريح. أما راشد الذي لم يكن لديه رداء، فقد التف ببطانية بينما جعل زامل من تحويف عدل خرجه ما يشبه، في شكله الخارجي، معطف الشتاء للجيش البريطاني.

إن الرياح الممزقة التي لا تلين ولا تهدأ والهبات الرملية على الأعين وعلى الوجه وصعوبة التنفس تنهك الرجال والدواب تدريجيا. والشيء الذي تسبب لي في أقصى قدر من الإزعاج، هو إحساسي بأننا خرجنا عن طريقنا وجعلنا نطوف في حلقة واسعة ولذلك احتفظت ببوصلتي أمامي. ولشد ما كانت مفاجأتي وإعجابي بهويمل، على الرغم من كرهي له في كل ما يتعلق به، إذ كان عليَّ أن أقدر الطريقة التي قادنا بها بمثابرة وعزم وكأنه يعتمد خريطة بوصلية لرسم طريقنا.

كنا نعلم أن العاصفة الرملية قد تتواصل على امتداد أيام، حيث سبق لها أن تواصلت في صحراء النفود الكبرى على امتداد أسبوعين، وفي العراق والكويت رأيتها تعوق الحركة في المدن. وفي فصل الصيف على الخصوص، كانت عواصف رملية قد أصابت بمجموعات كاملة من الناس، فضلُّوا الطريق أو لقوا حتفهم. غير أنه كان علينا أن نواصل

السير بالقدر الممكن. لقد ثبت أن " الممكن " لم تكن مسافة طويلة. ففي النهاية، كان علينا أن نتوقف ونوجه وجوه المطايا بعيدا عن الرياح. تلفلف البدو بإحكام بعدما تكبكبوا حول الحيوانات، غير أنه سرعان ما غطتهم الرمال من شدة العاصفة مثل كلاب التحميل أثناء عاصفة ثلجية في القطب الشمالي.

لم أكن حقا أستطيع أن أتخذ هذا المسلك المتبصر في عواقب الأمور شأني في ذلك شأن بيل، فكان علينا أن نشاهد الشناعة المطلقة لهذا المشهد. وعلى الرغم من الخوف الذي كان يلازم بيل من أثر جرش الرمال لعدساته النفيسة، فإنه لم يقدر على عدم تصوير المشهد العاصف الذي كنا خططنا له، وانشغلنا باحتمال أن تفوتنا عاصفة رملية أكثر من انشغالنا بأن تصيبنا. لقد أشار العقيد ديكسون في رواياته إلى المحنة والروعة على حد السواء.

" تمثل العواصف الرملية واحدة من أكثر المظاهر البغيضة المميزة للحياة في الصحراء ... بيد أن البدوي ينجو منها ومن الرياح المحرقة بصورة تدعو إلى الإعجاب، ويحافظ دائما على المرح والإذعان لأن ذلك كما يقول: "أليست تأتي، مثل أشياء أخرى من عند الله، لماذا إذن التذمر؟".

على الرغم من بشاعتها، كانت عاصفة رملية تتسم بروعة فريدة من نوعها وبهاء لا يمكن وصفه على وشك الاندلاع فوق الكويت: تشاهد أولا سحابة صغيرة " لا تفوق حجم اليد ". ثم تكبر شيئا فشيئا حتى تمتد من جانب الأفق إلى الجانب الآخر وتدور في السماء بحركة ملتوية في كتل ضخمة. أحيانا، ترى ومضات من البرق وسط الكتلة الكبيرة المقتربة، غير أنك نادرا ما تسمع رعدا. وفي بعض الأحيان، تكون العاصفة الرملية حاشية لأخرى تكبرها حجما بكثير، كانت قد اندلعت في الصحراء بعيدا إلى الشمال الغربي. ثم يزحف الغبار نازلا فوقك ونادرا ما يكون تنعشه الرياح، فتجد نفسك أنت والمنطقة المجاورة مطوقا بظلام ضارب

إلى الصفرة قبل أن تدرك أن العاصفة الرملية فوق رأسك.

أحيانا يضل الناس طريقهم في الصحراء المرتفعة مثل النفود أو دهانه، وإذا كانت العاصفة مصحوبة برياح عالية ورمال محملة، فإن الموت هو قدر البدوي إذا صادف أن كان يسير بعيدا عن الآبار، إلا إذا كانت العاصفة قصيرة الأمد. ومع ذلك، فإنه يتمتع بخبرة في تلك الحالات من الأخطار. إذ أنه يوقف مطيته في وقت مناسب عندما تكون العاصفة شديدة، ويجعلها تبرك بذيلها نصف متجه نحو الرياح، ويزحف هو تحت ملجأ جانب المطية، بعدما يلف العباءة بإحكام فوق رأسه. ويمكن له أن يتمدد في ذلك الوضع طوال ساعات عديدة ولا يستطيع سوى أن يتذرع إلى الله كي يحدث تغييرا. ولم يحدث لي في الصحراء سوى مرتين أن تعرضت إلى عاصفة رملية شديدة حقا، وعندها أدركت أنني فقدت تماما كل إحساس بالاتجاه. لم تكن العواصف شديدة إلى درجة ترغمني فيها على التوقف، ثم إنني كنت متشبثا بثبات بمهمة محاولة الوصول إلى المخيم. وفي كلتا الحالتين، أدركت بعد بضع ساعات أنني قد ضللت الطريق وتوقفت. وعندما اتضحت الرؤية، اكتشفت أنني كنت أطوف تماما في الاتجاه المعاكس للبيت، على الرغم من أنني كنت أعرف البلاد جيدا وظننت أنني كنت قد أبصرت معالم مألوفة لدي عندما كنت أسير إلى الأمام " *

في النهاية، بعد ساعات مما كان يبدو خبطا قاسيا، أظلمت السماء وأخذ وابل من الأمطار الغزيرة ينهمر علينا. لم يكن هذا يشبه أي شيء عشناه من قبل، حيث لم تكن الحبات المعتادة من الرمل المبلل بل كانت تصببا شديدا أو غسيلا حقيقيا. خلال بعض اللحظات، نفذ الماء عبر ملابسنا إلى الجلد وشعرنا ببرد تصطك له الأسنان، ولكن في الوقت ذاته كنا شاكرين لما حملته الأمطار من تبشير بالفرج.

توقفنا للصلاة خلال فرجة للمطر حوالي الرابعة بعد الظهر. التقط بيل بعض الصور للرمال التي جعلت فيها قطرات المطر ثقوبا عديدة. ثم

* ديكسون، ص ٢٥٨-٢٥٩.

أخذ المطر ينزل ثانية و لم ينقطع إلا عندما توقفنا لننصب الخيام. عند الغروب، اخترقت الشمس بصورة مثيرة عرمة السحاب السوداء في إشعاع كثيف ضخم كأنما هو مشهد في مسرح ديزناي لسمفونية بيتهوفن الرعوية. غير أن العاصفة لم تنته، حيث كانت السحب تحوم مكتلة حول الأفق، والرعد يقصف ويدوي مثل مدفعية بعيدة منذرة بليلة هوجاء بالرياح العاصفة والرمال والأمطار.

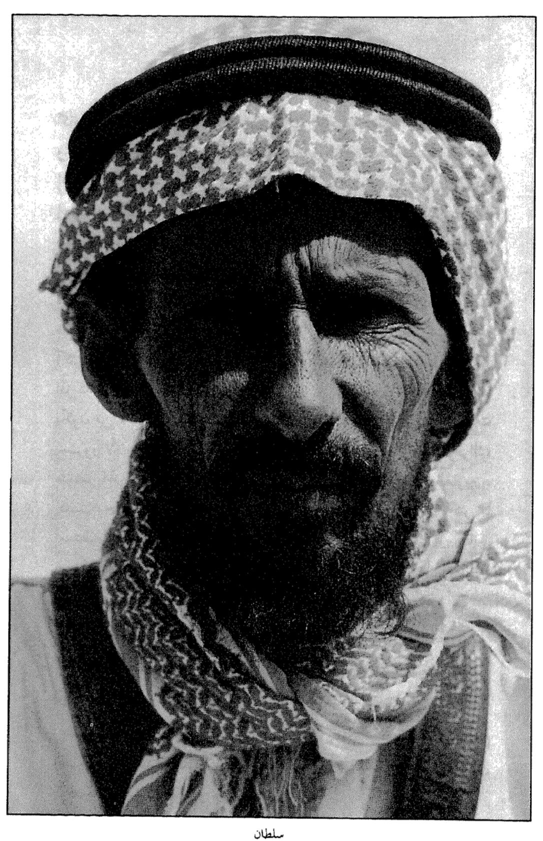
تجمعنا حول نار المخيم ونحن نشعر في الوقت نفسه بالراحة والاهتزاز من جراء المقاومة طوال النهار. ثم حاول أحدنا استرداد مزاج الأمسيات السابقة بإثارة الحيلة المألوفة للحديث التي تتمثل في المسافة التي كنا قد قطعناها. كان الاتفاق الجماعي، الذي قد يكون مطابقا أو غير مطابق للحقيقة، يتمثل في أربعين كيلومترا. غير أن تقديري الخاص كان أقل من ذلك بكثير، إذ إنني أشك في أن المطايا تمكنت من السير لأكثر من ثلاثة أو أربعة كيلومترات في الساعة، كما أنه كان علينا أن نحذف قدرا كبيرا من المسافة التي قطعناها بسبب الخبط المتعرج الذي أجبرنا على السير فيه.

غير أن المسألة التي زادت العاصفة من حدتها هنا، فرضت نفسها على انتباهنا. هل كنا سننجح؟ هل كان لنا ما يكفي من الماء؟ وعلى كل حال، كيف كنا نستطيع أن نأمل في العثور على مجموعة وحيدة من الآبار وسط ثلاثين ألف ميل مربع من الصحراء، وقد أعمت الرمال عيوننا وانعدمت مساعدة الأدلاء لنا وأجبرنا على السير في خط متعرج عبر الأمواج الصلبة من الكثبان؟

قبعنا في الرمال في حالة صحو وتفكير. لقد جعلت منا المدينة مجموعة وسط غرباء، غير أن الصحراء زادت في شعورنا بالشخصية الفردية.



بعد أمطار غزيرة، تزهر الصحراء فعلا كما تشهد بذلك زهرة اللؤلؤ الغضة هذه.



سلطان

كانت الأشياء المشتركة تلك الليلة، نار المخيم، التمر، الخبز، والقهوة وكذلك مخططاتنا وأفكارنا شخصية للغاية. وفي تفكيري الحالم، تبدد إحساسي بالرفقة والتغلغل في الصداقة الحميمة للزملاء، حيث كان كل إحساس، كل ألم وكل خوف شخصيا تماما. بعدما تمددت يقظا، متأملا، نصف حالم ونصف متذكر لمدة ساعة تقريبا، انسللت خارج كيس نومي ومضيت لأتحسس قِربَ الماء السوداء الموضوعة في حفرة قليلة العمق إلى جانب الرحال. كدت أتعثر في إحدى القرب تحت ضوء النجوم الخفيف المنعكس على الرمال، وشعرت بخزة ذعر مروعة أكثر من التي شعرت بها عندما كدت أصطدم بالصقر، ذلك أنه من المؤكد أن الصقر كان سيمزق رجلي إربا، غير أن القربة المثقوبة ربما يكون من شأنها أن تتسبب في موتنا. استرجعت أنفاسي وشعرت بسرور لأن قرب الماء كانت سليمة، ثم وقفت لفترة طويلة دون حراك، متمتعا بالحركة الهادئة للنسيم والرمال على رأسي ووجهي العاريين. كنت وحيدا، وشعرت بتمام أكثر وكمال أكثر وأنني في أمان أكثر مما أستطيع أن أتذكر. وفي تلك اللحظة بالضبط، تسلل سلطان إلى جانبي بسكون مثل الشبح وقال: "أبا جورج، هل أنت مريض؟ هل أعد لك الشاي؟"

"لا ياسلطان، شكرا لك. إني بخير، أنا بصدد التفكير لا غير"؟

"سوف أعد الشاي. لا ينبغي أن تكون وحيدا. إن الصحراء تتغلغل إلى أعماق قلب الإنسان. سوف أعد الشاي".

حاولت أن أمنعه، غير أنه غاب في الكثبان بسكون مثلما كان قد قدم بسكون، وبعد لحظات أبصرت الضوء الدافئ للنار وهي تعود إلى الوجود، منتعشة بالهواء ومغذاة بنبات القطيفة.

لقد تصرف سلطان غريزيا بدون أن يكون فيلسوفا، حيث أنه لم يأت للنقاش ولا لتبادل الأسرار أو الأفكار ولكن ببساطة ليعد الشاي.

جلست معه في سكون حول النار. تبسم سلطان بلطف، بل بخجل، تاركا إياي إلى أفكاري، ولكنه مكث معي مقدما مواساة أخوة الطريق. تلاشى الليل شيئا فشيئا مغبشا تاركا مكانه للفجر، فاستيقظ المخيم من حولنا.

بدأنا نتحرك مرة أخرى. مضينا ببطء ووجدنا في كل مكان حولنا الجزاء الذي تقدمه الصحراء لعابر السبيل بمرور الزمن. كانت البقايا القليلة الظاهرة قد حفرت بوضوح في القفار التي ذرتها الرياح. مررنا بالآثار الحديثة لغزالتين وسنور بري. هل كان السنور البري يطارد الغزالتين؟ أم إن أثره كان عرضيا مثل مرورنا؟. تفحص زامل الآثار عن قرب ووجد، بعدما تقفى أثرها قليلا، فضلات لا تزال طرية للغزالتين. أخرج راشد بندقيته ووعد بأنه سوف يلتحق بنا بعد بضع ساعات. قررت للمرة الوحيدة أن أصر على القرارات التي كنا قد اتفقنا عليها فقلت، لا، يجب علينا أن لا نصيد أي غزالة. نظر راشد إلى التلال الرملية البعيدة بأجماتها اللاطئة بالأرض التي تؤدي لها آثار الغزالتين، ثم التفت إلى الوراء متضايقا، فقلت: "لا يوجد سوى عدد ضئيل يا راشد. يجب أن يسمح للغزلان بأن تتكاثر ويتضاعف عددها لكي يتمكن أبناؤك من رؤيتها". رد قائلا: "ولكن يا أبا جورج، هناك اثنتان وسأصيد واحدة فقط، وبمشيئة الله سأصيد الذكر وليس الأنثى. وزيادة على ذلك، فإذا لم أصدها أنا، فإن شخصا آخر سيفعل ذلك". تدخل زامل بروح فلسفية وقد فهم ما كنت أريد أن أقول، فأضاف: لقد انقضت أربع ساعات منذ أن مرتا وسوف لن تجدهما. فلنواصل

سيرنا". سار راشد مقطبا جبينه نحو رأس القافلة. والتفت إلى زامل لأشكره غير أنه قاطعني ببسمة وهز حاجبيه بدون كلام.

تعج الصحراء اليوم بالمتناقضات: شمس متوهجة على الساعة العاشرة صباحا، رياح باردة ورمال هائجة على الساعة الواحدة بعد الظهر، أمطار مجمدة من الساعة الرابعة إلى الساعة الخامسة ظهرا وأخيرا، غروب متألق منعش للروح. وتكثر الأزهار والأعشاب والبراعم الخضراء الخالية من الأشواك حتى عندما لا يوجد إلا مقدار ضئيل من النداوة في الصحراء. وفي هذا الفصل من السنة، لا يمكن لنا أن نعيش أو أن نتحرك فوق السهول البسيطة الواسعة بدون مساعدة، ولكن هنا في الصحراء، الأرض المثالية للندرة، توجد وفرة من الكلأ للحيوانات.

أعتقد أن رمال الصحراء، التي سرعان ما تبدد حرارة النهار المحرقة لتصل قريبا من درجة التجمد عند الفجر، تجمع النداوة للنباتات. ومن الغريب أنه بينما تكون النباتات في السهول البسيطة الواسعة مثقلة بالأشواك مثلما هو الحال بالنسبة للصبار في صحاري أريزونا، فإن نباتات صحراء النفود الكبرى لطيفة قصمة جميلة وقاصرة عن حماية نفسها. وفي أراضي السهول البسيطة الواسعة، يعرض الإنسان نفسه لخطر كبير عندما يلمس أجمة أو شجرة، حيث تتناوب نباتات القراص اللادغة مع أشواك حادة كالإبر، حجمها غير مألوف بصورة غريبة. ولكن في النفود، تزين النباتات الناعمة التي تحميها المسافة البعيدة وعدم توافر الماء من الماعز والغنم، نفسها بالأزهار. في هذا المكان، ومثلما رأينا ذلك بعد الأمطار الأخيرة قرب حائل، تتفتح الأزهار أمام أعيننا. وللإحساس بالقيم الجمالية لهذه الأزهار إحساسا كاملا، على الإنسان أن ينزل من على ظهر مطيته ويجثو على الرمال. عند ذلك تبدو

الصحراء كأنها حديقة إنجليزية، حيث تبلغ أزهار اللؤلؤ حجم ثمن بوصة عرضا، وتصل شقائق النعمان البالغة حد الكمال شكلا ولونا إلى حوالي جزء من مائة لمثيلاتها في الجبال كثيرة الأمطار في الشمال. كانت النبتة البهيجة الخضراء تبدو من على ظهر الناقة مثل منظر جوي لحديقة شجر البقس في فرجينيا. وكنا نحن ومطايانا ننعم، بطرق مختلفة، بلذة تبعث النشوة في الأحاسيس.

بعد راحة الأصيل، تضاعفت شدة العاصفة عند انتشار الظلام، فكان الرعد والبرق والمطر يثور من حولنا، وكانت أربع عواصف تتخذ سبيلها فوقنا. لحسن الحظ، كنا قد تحملنا عناء نصب خيمة خفيفة يستعملها متسلقو الجبال، ولذلك كنا أنا وبيل غير مبللين، بينما كان رفاقنا قد بلغ المطر منهم الجلود خاصة وأنهم رفضوا استعمال العباءات التي أهديناهم إياها، منكرين إمكانية تواصل الأمطار. لم يكن أي واحد منهم يملك شيئا مثل معطف واق من المطر وكان سلطان قد رمى وقاء المطر الذي أعطيته إياه.

لم ينل أحد منا قسطا وافرا من النوم في تلك الليلة، حيث كنا قد أزعجنا الرعد والبرق اللذان كنا نتأملهما بجدية بعدما انتزعنا الأعمدة التي تقف عليها خيمتنا الصغيرة ذات المساحة الكافية لرجلين. كان كل انفجار للبرق يبدو مباشرة فوق رؤوسنا، وأحسسنا بأننا نمثل هدفا بارزا كل البروز مقارنة ببقية الصحراء. أما رفاقنا، فحتى وإن لم يكن خطر الاحتراق يحدق بهم، فلا بد أنهم كانوا قد غمروا بالماء عند الفجر. عندما هدأت العاصفة في آخر الأمر، حوالي ساعة قبل الفجر، استغرقنا في نوم عميق لا نكاد نستيقظ منه. وعندما استيقظنا، شغلتنا مهمة تجفيف الملابس والبطانيات والفروات، والمهمة الأكبر بكثير والتي تتمثل

في مناقشة أحداث الليلة حتى الساعة الثامنة النصف. ولما انطلقنا، بدأت الأمطار تهطل مرة أخرى. كانت كمية الأمطار التي نزلت من حولنا تبلغ، على الأقل، بوصة أكثر من الكمية التي نزلت خلال السنوات الثلاثة الأخيرة. وأثناء سيرنا طوال الصباح، بدأت أزهار بيضاء صغيرة جدا تطل في كل مكان.

جعلت الأمطار سطح الأرض مناسبا للمشي، فترجلنا بوافر من الراحة لظهورنا الموجعة وسرنا لمدة ما يقارب الساعتين، ثم واصلنا طريقنا خببا خلال أغلب فترات النهار استجابة لإصرار هويمل. شاهدنا طوال فترة الأصيل جبلي "العليم" يقتربان، وهما الجبلان اللذان يكونان العلامة الرئيسية لهداية المسافر وسط النفود. وفي آخر الأمر وصلنا إليهما عند اقتراب الغروب. كنا على مسافة مائة كيلومتر خارج جبه وربما مائة وخمسة وثلاثين، في خط مستقيم من "جوف".

وهكذا كان معدل سيرنا خلال ثلاثة أيام شاقة يزيد عن الثلاثين كيلومترا يوميا بقليل، ومن المؤكد أن اليوم الأخير قد حاز أكثر من نصف المسافة التي قطعناها. لقد أحدثت الأمطار الفرق وذلك بتمكيننا من مواطئ أقدام راسخة. كانت مسافة خمسة عشر إلى خمسة وعشرين كيلومترا في اليوم ستجعل من النفود مقبرة مؤكدة إلينا.

خيمنا ليلة السابع والعشرين من مارس على مسافة قريبة من سفح البركانين التوأم. وحين يقف المرء على حافة أحد ذينك البركانين] اللذين يعني اسمهما في اللغة العربية العلامتين التوأم [، فإنه لا يستطيع أن يرى علامة أخرى لهداية المسافر مسافة خمسين أو ستين ميلا. استحضرت أن أحد أسلافنا المزعومين، الإيطالي جوارماني قد أحسن إلى لورانس وقاطعي المسافات الطويلة الآخرين بادعائه رؤية ثلاثة

براكين وليس اثنين خلال عبوره للنفود.

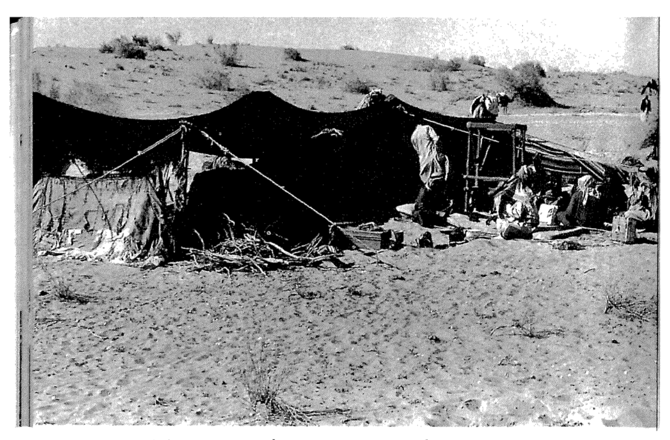
كانت معرفة موضعنا بالتدقيق على خرائطي أمرا مريحا، إذ إن البركانين كانا عمليا الصفة الطبيعية الوحيدة المؤكدة على امتداد مئات من الأميال المربعة المحيطة بنا. لم تعط محاولتنا مع آلة السدس نتائج باعثة على كثير من الافتخار و لم يطمئن قلبي إلا عندما أدركت أنه، مهما كانت مشاكلنا، فإننا كنا نسير في الاتجاه الصحيح. شعرنا بذلك الابتهاج الذي يغمر الملاح الذي ينجز أول إرساء له بنجاح وسط العواصف والعقبات. كانت هذه النقطة ذات أهمية بالغة بالنسبة إلينا إذ كان علينا أن نتوخى الدقة لكي نجد الآبار. ومع شيء من الحظ، ربما نكتشف مزيدا من الآثار بالقرب منها، غير أنه سيكون من الصعب تأويلها. لم تكن لدينا فكرة عن مظهر الآبار ولا عن عددها ولكن اعتمادا على تجربتي في الشمال في الصحراء السورية التي عبرتها عدة مرات على متن السيارة، كنت على يقين من أننا سوف لن نتمكن من رؤيتها على مسافة أكثر من مائتي أو ثلاثمائة ياردة. وإذا فشلنا في اكتشاف الآبار، فإن حظوظنا في الوصول إلى الجانب الآخر من الصحراء تكون ضئيلة مع القدر الذي كنا نفقده من الماء.

كنا سعداء على الأقل لمعرفة موقعنا، فدعونا أنفسنا إلى وجبة طعام مسرفة في الماء، تتكون من الأرز والزبيب وبقايا لحم الضأن المجففة. وخلال الصباح التالي، على مسافة مائة وعشرين كيلومترا تقريبا داخل صحراء تخلو تماما من الماء، وجدنا بركة صغيرة جدا خلفتها الأمطار، مليئة بأفراخ الضفادع. انتعش إحساسنا بصورة تدعو إلى الغرابة لاكتشافنا أن الضفادع يمكن لها أن تبقى حية في الصحراء.

غير أنه كانت هناك مظاهر مثبطة للعزيمة أيضا. لقد بدأت ناقتي تعرج



بعدما توقفنا لاسترجاع قوانا مع عائلة الرولة هذه، حاولنا تسديد الدين بنصائح طبية تعوزها الخبرة وبدهان ملطف.



خيمة الرولة. لقد ارتاع رفاقنا لأن النسوة كن سافرات الوجوه ولأنهن قد التحقن بنا حول الموقد.

بخفها الأمامي الأيسر وبدأت أنا أعرج برجلي اليسرى. تمنيت أن المها كان أخف من المي، ومضيت أضلع مسافة بضعة أميال ثم ركبت مطيتي لبقية اليوم. كان جنبي الأيمن لا يزال يؤلمني من جراء سقوطي المخزي، كما واصل كتفي الأيسر أوجاعه المعتادة التي كان يسببها ركوب الناقة.

إنه لمن المسلّي أن يسجل المرء في مذكراته الخاصة كيف أن توافه الأمور تقفز إلىالأمام، أما الأمور الجليلة الأبدية فهي غالبا ما تحتجب عن الذاكرة. لقد كتبت في يومياتي: "أفهم الآن كتابات المسافر بصورة أحسن من ناحية واحدة على الأقل: الدفء والرفقة والغضب والمشاجرات لمجموعات المسافرين الصغيرة. كدت فعلا أقتل هويمل بالأمس وراشد اليوم، وذلك بسبب أمور تافهة حتى أنه لا يمكن ذكرها. غير أن كل شيء كان يبدو في لحظة حدوثه بالغ الأهمية في العالم الصغير لمجموعتنا وسط الصحراء مترامية الأطراف. وبعد كل هذا، فإن جميع الأمور في الحياة تكتسي أهمية في مقياسها النسبي، حيث

تكون المشاكل الصغيرة التي تحدث في مجموعات صغيرة خطرة تماما مثل المشاكل ذات الأهمية البالغة في مجموعات كبيرة". غير أنني سجلت في السطر التالي من يومياتي، أنني انجذبت مرة أخرى إلى رقة الشعور: تواصل الطبيعة في الغمور بسحرها تنوعا ورقة. في هذه الآونة بالضبط، فالشمس بصدد الغروب والأزهار، أرجوانية، حمراء وردية، ودرجات متنوعة من الألوان الزرقاء والرمادية تجعل الإنسان ينبهر من روعتها".

قضينا ساعة من الزمن خلال ذلك اليوم مع بعض بدو الرولة الذين ابتعدوا مع إبلهم بما يزيد عن الخمسمائة ميل عن الصحراء الواقعة قرب حلب. شربنا معهم حليبا وقهوة وتمكن بيل من أخذ صورة للهودج. كانوا أناسا طيبين لطفاء. كان المستكشف التشيكي ألويس موزيل قد قضى عدة سنوات وهو يسافر مع الرولة ليتعلم عاداتهم ويعد خرائط للصحراء الداخلية.

لقد افتتن موزيل بالرولة حتى أنه وصل إلى الاعتقاد بأنهم البدو الحقيقيون الوحيدون وهو إدعاء من شأنه أن يجرح بصفة خاصة رفاقنا. وعندما علموا بأنني كنت "أب الأدوية" أسرع كلٌّ منهم، رجالا ونساء وأطفالا ليعرضوا جرحا قديما أو وشما لوثته الجراثيم أو مفصلا مكسورا قد التأم أو كاد. وبما أن أغلب الجروح كانت قد أصابت أصحابها منذ أشهر إذا لم يكن منذ سنوات، فإنه كان من الواضح أنني لا أستطيع مساعدتهم جسميا، غير أنه كان بإمكاني الرفع من معنوياتهم إلى حد ما. أعتقد أن الأطباء قد تعودوا على هذا، غير أنني لم أكن مستعدا للانتقال المفاجئ لوجه مبتسم، سعيد وبالتأكيد معافى إلى قناع من الألم والبؤس أثناء عرض وشرح جرح أصابه منذ عدة سنوات. أتمنى أنني لم أكن قد تسببت في موت كثير منهم بواسطة حبوبي.

كتبت ذلك المساء في مذكراتي: "سرنا اليوم ببطء، حيث أن الإبل كانت مرهقة وكذلك الشأن بالنسبة إلينا نحن، وأخشى أننا عدنا إلى أحسن بقليل من معدل سيرنا خلال اليومين الأولين. يعتقد بيل أن آلات التصوير قد انسدت بصورة تجعلها غير قابلة للإصلاح. مع اقتراب الغروب، أشارت البوصلة إلى ٢٩ درجة في اتجاه بعض الجبال. وكما هو الشأن بالنسبة لكل قراءة، أثبت هذا أنه خطأ فادح خاصة وأن كل السلسلة، حسب خرائطنا، تعرف باسم واحد وكان من الصعب معرفة ما كنا نشاهد. وفي أكثر القراءات تشاؤما -واقعية؟ -، فإننا مازلنا على مسافة بعيدة من الشقيق وفي أكثرها تفاؤلا، يمكن أن نصل إليها في اليوم التالي عند منتصف الأصيل. ربما حان الوقت للتفاؤل! وعلى الأقل، فإن ذلك ما يؤكد به علينا هويمل، حيث أعلن بافتخار أننا كنا على بعد ساعتين من السير من مدينة الشقيق. لا أفهم كيف وصل إلى هذه المعلومة المدهشة، غير أنها كانت راسخة في ذهنه حتى أنني وجدت صعوبة في منعه من استعمال آخر كمية من الماء بتبذير مروع - تغلية الأرز - لوجبة العشاء. كنا مكتفين بالخبز والتمر، غير أن هويمل أصر على الأرز.

آويت إلى فراشي في تلك الليلة يملؤني هاجس غريب، وكذلك كان الشأن بالنسبة لبيل، حاولنا أن ننسبه إلى الجهل أو الجبن أو إلى أي شيء غير الواقعية.

بحلول اليوم التاسع والعشرين من مارس، كنا قد تغيرنا نحن والمنظر الطبيعي على حد السواء، حيث تركت الكثبان مكانها جزئيا إلى سطح أكثر صلابة ولكنه متعب، يكاد يضاعف من حدة شعاع الشمس. لم تجد الأعين في كل الاتجاهات سوى الألم. تعبنا جسميا ونفسيا من

توتر الأيام العديدة الأخيرة وكانت المطايا منهكة، قد بدأ البعض منها يعرج. لم يكن أحد يعلم ما كان ينتظرنا أو ما كان علينا أن نبحث عنه. واصل هويمل في تأكيده على أن المدينة تقع أمامنا على بعد ساعتين من السير فقط، فصدقناه رغم أنفنا. انقضت الساعتان ولا شيء أمامنا سوى الصحراء كما يصفها الشاعر العربي: "مثل ظهر الترس" وكل شيء حولنا يخلو تماما من العلامات. وعاد هويمل يكرر التأكيد على موقفه ورحنا نواصل السير.

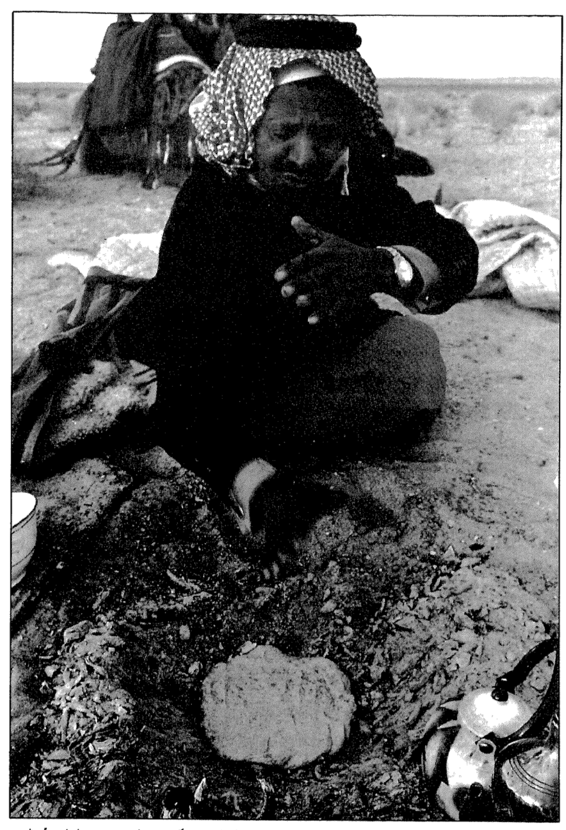
أصبحت الساعتان أربع ساعات والأربع ثماني ساعات. كانت كل عين تجهد نفسها لتأويل آثار البشر والدواب والبحث عن علامات يمكن أن تقودنا إلى الآبار. وفي وقت متأخر من بعد الظهر، عندما كانت الشمس تنحدر فوق السهل الأبيض القلوي، خشيت أن نكون قد تجاوزنا الآبار فاسترقت، متوترا أكثر فأكثر، نظرات خاطفة إلى الوراء إلى قرب الماء المثقوبة التي أصبحت الآن خاوية رخوة تحت رحال الإبل. لم تبق قطرة واحدة من الماء ولا ينبغي علينا أن نخفق في الوصول إلى الآبار خاصة وأن المطايا لم تشرب منذ "جبه". ثم إن التعرف إلى اتجاهنا بالبوصلة لم يساعدنا في شيء، حيث لم نستطع التركيز على أي شيء من حولنا. وحتى الشمال المغنطيسي لم يكن مؤكدا لأن خرائطنا كانت قديمة ولا تقع عليها الإشارة إلى الانحراف المغنطيسي. كما تعرضت آلة السدس إلى مثل تلك المعاملة الخشنة التي جعلت دقتها محل شك حتى إذا كنا نحسن استعمالها أو كانت خرائطنا أكثر دقة.

انتشرنا على شكل مروحة لتغطية أوسع مساحة، بينما أحالت شمس الأصيل سطح الأرض الواضح إلى لظى مؤلم يذهب البصر. كانت المطايا تعرج وكنا ننظر شزرا مرة بعين وأخرى بالثانية. ولما تفتح العين

التي كانت في "راحة "، تصطدم بومضة ساطعة من النور تجعلني أنكمش فجأة. عندها، كنت أحاول أن أخمن مدى قدرة إبلنا على الحياة إذ كان واضحا أنها في آخر أيامها. لقد تقلصت حدباتها وعرجت اثنتان منها على الأقل وكانت كلها تسير ببطء وبدون رغبة. كيف سيكون "السير" على امتداد المائة كيلومتر أو ما يناهزها التي كانت تفصلنا عن مورد ماء آخر؟ هل كان من المستحسن أن نقفل راجعين لنجوب الصحراء مسرعين بحثا عن الآبار؟

كان من شأن هذه الأسئلة الملحة والتي تعوزها الإجابات أن تنوّم كل واحد منا مغنطيسيا ونحن نتقدم مضطربين، غير أنه لم يكن يتراءى لنا أي بديل. وإذا كنا قد تجاوزنا الآبار، فإنه لم يكن بوسعنا أن نعرف إذا كانت على بعد ست ساعات إلىالوراء أو إلى اليمين أو إلى الشمال أو على أي مسافة في أي اتجاه كان. كان أي بحث عنها في الصحراء يبدو عملا يائسا، ليس فقط بدون أمل بل وكذلك آخر شيء نقوم به. وإذا فشلنا في العثور على الآبار، فإنه ليس لدينا أي خيار سوى مواصلة سيرنا نحو "جوف" بأمل الوصول إلى مخيم بدوي أو المشي على الأقدام لما تتعثر مطايانا وتنفق ليكون ذلك المحاولة الأخيرة. في الماضي، ربما كان من الممكن أن نلاقي بدوا أو مسافرين آخرين بما أن آبار الشقيق كانت محور الآثار التي تربط حائل في الجنوب والمدينة ومكة في الغرب بشمال الجزيرة العربية وبغداد ودمشق.

غير أن مسالك العربات كانت تمر خارج صحراء النفود الكبرى، وشيئا فشيئا، بدأت حتى أكثر الآثار صلابة تمتلئ بالرمال لتصبح غير واضحة. عندما مر تشالز هوبر من هناك سنة ١٨٧٨ وجد "طريقا واحدة لا تزيد عن حجم وقع أخفاف المطية، أي من ٢٥ إلى ٣٠



يعد هويمل الخبز بتغطية الرغيف المسطح بالجمرات. كان طعم الخبز لذيذا سواء أكانت الجمرات من الحطب أو الروث.

ستنتمترا ". ثم اكتشف أن الأثر يختفي تحت ذرات الرمال حتى بتأثير رياح خفيفة. وكتب في وقت لاحق: " كنت قد رأيت وقع أخفاف إبلنا تمحي. وكانت الرمال تصبح ملساء مثل صفيح من الماء بفعل رياح ضعيفة نسبيا، وعلى مسافة مترين خلفنا".*

لا أدري كم انقضى من الوقت بعدما مرت هذه الأفكار بذهني، لما سمعت صيحة خافتة تأتي من الطرف البعيد لصفنا: " الآبار، الآبار ".

سقط عبء ثقيل من على ظهورنا المؤلمة وأذهاننا المرهقة فهتفنا لبعضنا تعبيرا عن البهجة والفرح وضربنا مطايانا بالسياط جاعلين إياها تخب في اتجاه الشرق. أتذكر أنني كنت جد شاكرا لما ابتعدت وجوهنا وأعيننا المتألمة وأنوفنا المتقرحة عن أشعة الشمس المنحدرة ... وبعد ذلك، أدركت كم كانت تلك الفكرة سخيفة وساذجة قياسا بحجم الوفرة الجديدة من الماء. مرت صور تشبه الأفلام لواحة من النخيل بها أحواض باردة رائقة أمام عيني اللتين أذبلتهما الشمس.

غير أنه لم تكن هنالك أحواض ولا مدينة، ولا ورقة ولا غصين، لا شيء البتة. لم تكن هناك سوى ثلاث حفر تغور في الأرض مظلمة ومتباعدة. وعندما وصلت مطيتي العرجاء إلى الآبار، كان رفاقي يتحركون حولها دائريا في غير نظام. لقد أخذ فتور النفس المتبلد مكان بهجة الاكتشاف. وبينما كنت أسير في اتجاههم، كانت الإبل تقف متذمرة بصوت حاد شديد كما اعتادت، وكان البدو يحاولون بدون جدية حثها على "شرب" بعض الزبد السميك الأخضر الذي يقع نديا في حفرة من الوحل.

نزلت بجهدا من على ظهر دابتي المرهقة، ربما أثارتني قليلا شمس الأصيل وأيام الحيرة، والتفت إلى هويمل وسألت: "لماذا لم تسحبوا

---

* في الجزيرة العربية الوسطى" نشرية جمعية الجغرافيا (باريس، ١٨٨٤) ص ٣٤٠، ترجمتي (الخاصة).

الماء؟".

كان رده متملصا مثلما كانت نظرته توحي بالشعور بالذنب، إذ قال مشيرا إلى الوحل الأخضر: "أيا أبا جورج، توجد وفرة من الماء هنا وزيادة على ذلك، فإن البئر عميقة جدا. من المؤكد أن العمق يقدر بما يقارب مائتي قدم نزولا حتى بلوغ الماء".

قلت بتهكم حيث كنت أعتقد ببساطة أنه كان كسولا: "سوف أسحب الماء بدون مساعدتك". وقف الآخرون في سكون حولنا و لم يتحرك أحد نحو الآبار المظلمة. جعلنا نتحرك دائريا حول المكان ونحن نصيح الواحد في وجه الآخر أكثر من التحدث إليه، كان كلامنا كله وعيدا وتملصا وتهكما. وفي آخر الأمر برزت الحقيقة المرة المتمثلة في ما هو أسوأ مما يمكن أن تتنبأ به ثورة غضبي، وهو أن هويمل لم يجلب معه حبلا ولا دلوا.

وجمت من شدة الغضب. لتتويج ما يقارب الشهر من التخطيط غير المحكم والعناد واتخاذ المواقف، كان هويمل قد قادنا على امتداد ستة أيام داخل ثلاثين ألف ميل مربع من رمال الصحراء الخالية من الماء إلى بئر تفصل بيننا وبين الموت عطشا، و لم يجلب معه الوسيلة الوحيدة من المعدات التي كانت حياتنا تتوقف عليها توقفا تاما: الحبل.

تنهد هويمل وهو يحتدم غيظا تجاهي، كان مذعورا وغير قادر على أن يفعل شيئا، ثم مد ذراعيه وقال: "ا لله كريم".

وفجأة، انفجر الغضب والقلق التافه الذي تراكم طوال عدة أيام. ومن هذه المسافة التي تزخر بالماء، كدت أصبح الآن منبسطا، ذلك أن طابع مجابهتنا الحادة أصبح دينيا.

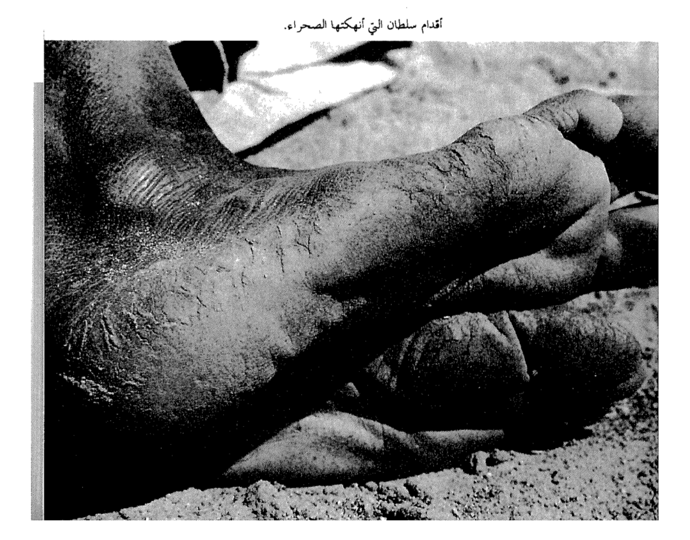
في تلك الحالة من الثورة والرعب والغضب، أحدنا يشعر بالإحراج

والآخر بالخيانة، كنـا نعلم يقينا أننا على مقربـة من الموت. وبما أننا كنا مدججين بالسلاح، كاد أحدنـا أن يعمد نحو الآخر، ولا شك أن أحدنا كان سيلقى حتفه. وقفنـا محملقين، لاهثين من شـدة الحنق، محاولين ما في وسعنا للتحكم في أنفسنا.

أعتقد أن الشـيء الذي أحمد غضـبي في آخر الأمر يتمثل في علمـي أنه كان لي – أو تمنيت أنه كـان لي – في قاع عدلي الخرج، ١٥٠ قدما من حبـل مظلة الهبوط المصنوع من النيلون، ودلـو احتياطي من قماش القنب الذي يستعمله الجيش البريطاني.

بطبيعـة الحال، لم تكن لدينـا وسيلة لمعرفـة عمق البئر الـتي ربما يتجاوز عمقهـا طول الحبـل الرقيق الأبيض. غـير أنني تظـاهرت برباطـة الجأش.

أقدام سلطان التي أنهكتها الصحراء.



محملا بمخزوناتي المخفية، جعلت أوبخ هويمل بسخرية لشدة غضبي قائلا له: " لحسن حظك، ولكن لا فضل لك في هذا، يوجد لديَّ حبل ودلو وسوف أملأ قربك وأسقي إبلك. ولكن عليك أن تنصرف. لا أريد أن تقع عيناي عليك مرة أخرى بعد اليوم". لم يكن ذلك على سبيل المزاح. همست لبيل أنني كدت أترك الدلو عدة مرات خلال المراحل المختلفة لإعادة الحزم، فرد بيل هامسا بدوره، أنه كان قد ترك دلوه وحبله على حد السواء.

بعد ذلك، أعددنا أنا وبيل الدلو وأنزلناه بحذر شديد في البئر، إلى الأسفل ثم إلى الأسفل، وهو يرتطم بطريقة خطرة بالجوانب الصخرية المثلمة التي بنيت يعلم الله منذ كم قرن. وصل الدلو في آخر الأمر إلى الماء تاركا ست أقدام من الحبل في أيدينا. لم يسبق أن سمع أحد الصوت الخافت المتباعد الذي يحدثه الدلو عند التقائه بالماء وشعر بعرفان بالجميل أكثر منا في ذلك الحين.

سحبنا الدلو الأخضر ذا الرائحة الكريهة بعد الآخر إلى أعلى البئر لإرواء المطايا التي بلغت حد اليأس من شدة العطش، ولإعادة ملء قرب الماء الذي كانت تنبعث منه رائحة تشبه رائحة البيض الفاسد. في النهاية، وبعد أن أنهكتنا المحنة العاطفية أكثر من الجسمانية، ركبنا أنا وبيل مطيتينا وانطلقنا بدون رفقة في ثورة غضب متواصل، لمعرفة موضعنا بالنسبة إلى المعالم التي تحيط بنا في اتجاه الشمال تقريبا نحو مدينة سكاكة.

لما أستعيد الأحداث الماضية وأتأمل فيها، أجد أن انطلاقنا كان عملا جنونيا، إذ إنه كان قد سبق تحذيرنا بأن بقية الرحلة كانت سيرا شاقا إلى أبعد حد حتى وإن كان لدينا الآن الماء، كما أننا سنتعرض إلى صعوبات



الآبار بالشقيق

إذا دخلنا في الرمـال الثقيلـة الـتي كان " دليلنـا " خلال الأيـام الأولى قد تكهن بهـا. زيادة علـى ذلك، كانت مطيـتي تعرج و لم يكن لدينا سـوى القليل من الطعـام. ومع ذلك، فإننـا تصرفنا التصرف الـذي يتميز بأكبر قسـط من البـداوة أثنـاء الرحلـة. لقد اندلعـت في داخلنا مسـألة تتعلق بالشـغف والشـرف و لم تكن هنـاك طريقـة لرأب الصدع داخليـا. كنا نوعا من المجموعة المتقاربة بصفتنا ضيوف الحكومة، مما جعل الخصومات بيننـا مسـتحيلة. وفي تلك الظروف، كـان السـبيل الوحيـد المفتوح أمام البدو يتمثل في الفراق.

بطبيعـة الأمر، كنا متسـامحين بشـكل مفضوح في كلامنـا المتصنع لأننا كنا نعلـم أن رفاقنا سـوف لا يغادرونا أو بـالأحرى لا يستطيعون ذلك، حيث أن الحكومـة قد حملتهم مسـؤولية إيصالنـا خارج الجزيـرة العربية. غير أنني شعرت أنه كان علينا أن نبقى كلا على حدة حتى تهدأ أمزجتنا

الشخصية لنتفادى العواقب الوخيمة.

سار هويمل وراءنا عن بعد في سكون وكآبة. جاءنا زامل ثم راشد ثم سلطان، الواحد تلو الآخر، لشرح المسألة التي تتعلق بالبئر ببسمات حزينة.

قال راشد: "إنه أمر بسيط يا أبا جورج. وعلى أية حال فقد انتهى، والآن يجب علينا أن نعبر الرمال التي تمتد أمامنا. لا تغضب يا أبا جورج. إنك أخ لنا ونحن هنا لمساعدتك. تمنيت أننا كنا قد امتطينا عربة لعبور هذه الصحراء المرعبة وما كنا في تلك الحالة لنتعرض إلى مشاكل. تعال، يا أبا جورج، ابتسم ولننس الموضوع".

لم نكن على استعداد للعفو أو النسيان على الرغم من أن نوعا من السخرية والنزاهة وحتى الفكاهة قد عرف طريقه إلى أفكارنا. غير أنه هناك نوع من الارتياح عند إنجاز سلسلة متعاقبة من الأحداث إلى النهاية، وذلك ما كان لبيد سيفعله بالتدقيق.

في ذلك الوقت، كانت الشمس قد غربت، ولكن الأرض التي لم نشاهد لها مثيلا من حولنا كانت كئيبة وجافة وكانت تتوهج لاذعة عند الشفق. لم تكن الأرض جافة فحسب بل كانت أيضا تبدو عفنة كأنها قد تم استنزاف كل قطرة ماء منها لملء الآبار، فلم تكن ترى أي برعم أو أي أملود. وبما أننا كنا نعلم أن الإبل أيضا كانت جائعة، فإننا واصلنا السير طالما كنا نستطيع أن نرى، غير أن القمر الجديد لم يكن سوى في ليلته الثالثة. كان المرعى يكتسي أهمية خاصة بالنسبة إلينا هذا المساء لأن هويمل استعمل كل الطحين ظنا منه أنه سوف يعوضه في مدينة" الشقيق.

في آخر الأمر، أجبرنا الظلام والتعب الذي كنا نشعر به على التوقف.

كانت الإبل ستجوع وكنا نحن أيضا سنجوع، غير أنه لم يكن بوسعنا أن نتقدم أكثر.

أنزلنا أنا وبيل الرحال من على ظهور المطايا وعقلناها حتى لا تشرد بعيدا، ولكن مع منحها فرصة للعثور على بعض النباتات ولنجمع ما أمكن من الأغصان المقطوعة والروث حتى نتمكن من إشعال نار المخيم.

أشعل الدواسير نار مخيمهم على بعد حوالي مائة ياردة، وجاءنا زامل بإبريق من القهوة تعبيرا عن مبادرة للسلم. رفضنا القهوة بفظاظة، غير أننا دعوناه ليتناول معنا وجبة طعام تتكون من لحم البقر المجفف والتمر، أخذناها من أعدال خرجتنا، وماء تنبعث منه رائحة كريهة لم تخفها القهوة وحب الهال أو حبوب القرنفل من قرب جلد الماعز.

بدت على وجه زامل رغبة في الرفض.

نمنا تلك الليلة نوما متقطعا واستيقظنا على منظر طبيعي جاف قاحل ومقفر. وعلى الرغم من عقلها، فإن الإبل الجائعة التي لم تجد أي علف، شردت على بعد أميال خلال الليل، ولم نعثر عليها إلا بعد أن مضت ساعتان لنتمكن من مواصلة السير.

كانت الأزهار والنباتات قد ذبلت واختفت، وكان كل شيء حولنا امتدادا قلويا أبيض تواصل على المظهر نفسه حتى منتصف النهار. عدنا حينئذ بارتياح - وقد كاد يعمينا وهج النور - إلى رمال أكثر تموجا عادت فيها الأجمات مرة أخرى للظهور. أحسسنا بطريقة ما أننا بصدد الاقتراب من طرف النفود. لقد كان الامتحان الرئيسي وراءنا وكنا بصدد المضي نحو أسفل الجبل.

لمحنا خيمة بدوية أمامنا ولشد ما كانت مفاجأتنا عندما رأينا عربة

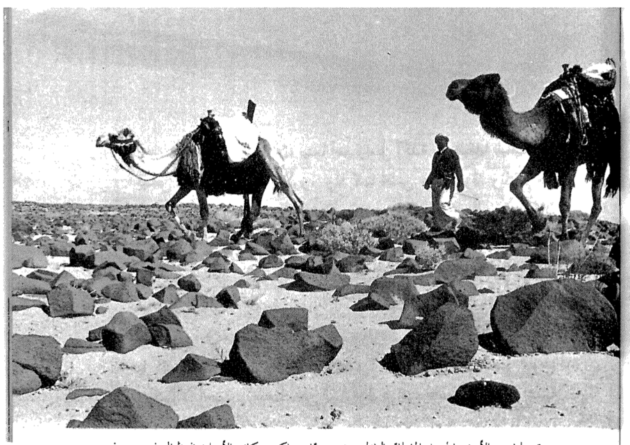
تقف إلى جانبها. كان التفكير في القهوة أشد من أن نقدر على مقاومته، فاتجهنا أنا وزامل مباشرة نحوها، عندما وصل راشد ليقول إنه كان قد وصل إلى الحل الوسط المناسب لهذه الحرب الأهلية المصغرة: سوف يبقى هو وزامل وسلطان معي أنا وبلبل، بينما يغادرنا هويمل. ابتهجت لهذا الاقتراح، إذ إنه كان يمكن لنا أن نذهب معهم إلى أي مكان، غير أن الضغينة التي توجد بيني وبين هويمل كانت تسمم الرحلة.

نقل راشد، المصلح، هذا القرار إلى هويمل الذي كان يسير على بعد بعض المئات من الخطوات. عند ذلك، ضرب هويمل مطيته بالسوط واتجه نحو خيمة البدو. تبعه راشد ثم عاد بعد بضع دقائق يقود مطيته. واصلنا الطريق ونحن في حالة استياء وعطش، نشعر بأن هويمل كان قد حصل مرة أخرى على النصيب المتميز من الاتفاق، حيث أنه كان بلا ريب يجلس في راحة بال وهو يشرب القهوة التي كنا أوشكنا على المطالبة بها.

في تلك اللحظة بالتدقيق، انطلقت العربة من وراء الخيمة واقتربت منا على طول منطقة مسطحة، ثم قفز هويمل خارجها.

جرى نحو مطيتي وأوقفني ممسكا بحبل رسني ثم قال بأعلى صوته: "أبا جورج، قف! اسمعني". فنزلت من على ظهر راحلتي.

قال إنه فكر في الأمر مليا وإنه سيمضي متجها إلى عاصمة إقليم"جوف" نحو الشمال وسيقول إلى الأمير إننا كنا قد أرسلناه أمامنا ليقوم ببعض الترتيبات ولا يجب أن يعلم أحد بمشاكلنا غيرنا نحن. "هلا سيكون ذلك كافيا لحل كل المسائل؟" أعجبت كثيرا حقا باهتمامه المخلص بنفسه ووافقت على أن نزاعاتنا كانت خاصة بنا ولا تهم أحدا سوانا. عندئذ، حاول أن يقبل جبيني كعلامة للعرفان بالجميل



ترحلنا عبر الأرض الجرداء المغطاة بالبازلت (حجر قاس داكن بركاني الأصل) في شمال غربي جوف.

والمصالحة، الأمر الذي سبب لي حرجا كبيرا. كان من الواضح أنه لا يعير اهتماما إلى أي شيء آخر عدا ما يمكن للحكومة أن تقول. وبعدما حصل على ما يريده، رجع إلى العربة وانصرف والابتسامة تعلو محياه.

بينما كنا نتقدم، تواصلت الأرض قاحلة فلم تكن هنالك أزهار، بل لا شيء غير شجيرات قليلة، كما أصبح الجو شديد الحرارة والرطوبة وثقيل الوطأة. بعد أن غادرنا هويمل، استرددنا الشيء الكثير من الاهتياج والفتنة اللذين ميزا الجزء الأول من الرحلة ورأينا فراشة كبيرة جميلة كانت بمثابة بشير بأوقات سعيدة، وهي الأولى التي نراها منذ انطلاق الرحلة. ضحكنا ذلك المساء حول نار المخيم وتحدثنا على الطريقة البدوية حول المسافة التي كنا قد قطعناها، ونحن نشرب القهوة المتبلة بحبوب القرنفل على طريقة الأعراب في الشمال. عند ذلك الوقت، كان الغذاء قد نفذ منا عدا الأرز والتمر، فالتجأنا إلى قطع

اللحم المخصصة للطوارئ، بينما أعد زامل أكلة من البقايا الباقية من أكياس القرفة والزبيب والأرز. ولما كنا نجلس حول الموقد ونلتهم من هذه الأكلة قبضات ملء اليد، توقف راشد ثم التفت وسألني عما كان داخل قطع اللحم هذه.

وبما أنه كان قد تهكم مني في عدة مناسبات فيما مضى، قررت أن أرد عليه بالمثل فقلت: "إنه لحم بشر". كبا وجهه، وترددت وتمكثت يده بلقمة كبيرة في منتصف الطريق نحو فمه وقال في ذعر: "يا أبا جورج، هل أنتم الأمريكيون من أكلة لحم البشر؟ أليس أكل لحم البشر ممنوعا عندكم؟". أجبت: "طبعا، نحن صارمون في هذا الصدد ولنا قواعدنا أيضا. ولكننا منقسمون إلى طرفين مثل العرب، البعض منا لا يأكلون شيئا عدا لحم أجساد الرجال وآخرون لا يأكلون سوى لحم أجساد النساء. أيهما تفضل؟".

"ولكن يا أبا جورج، إن ذلك حرام".

فقلت: "لا، ليس بالنسبة إلينا وليس بالنسبة إليكم. نحن نتبع عاداتنا، وحسب شريعتكم يمكن لكم أن تتبعوا عادات أولئك الذين يرافقونكم، كل!"

حاول راشد المسكين ضحكة ضعيفة وقد اخضر وجهه من القلق حول ما أكل. في آخر الأمر، ونظرا للمأزق الذي كان فيه رفيقنا المسكين، أسعفته ولكن جزئيا، بالقول إنه كان في الواقع لحم بقر.

قال بتخابث: "إن البدو لا يأكلون لحم البقر". جعل هذا الكلام زامل يتذكر قصة ما فيها شذا الليالي العربية، وبالإلقاء بنفسه في المحادثة، استرجع راشد لونه بسرعة. لقد اعترف لاحقا أن أدهى ما في الأمر هو أن طعمه كان لذيذا جدا.

وبينما كنا ننصب المخيم، كانت عاصفة غبارية تتشكل عن بعد. نشرنا رقعة خيمة وبنينا حاجزا ضد اتجاه الرياح وحول نار المخيم. وبعد أن كدسنا رحالنا قبالتنا وشددنا رقعة الخيمة بواسطة حبل من النيلون، مربوط إلى الرحال وأوتاد الخيمة القوية التي كنا قد جلبناها من حائل، حصلنا بسرعة على ملتجأ معقول. كانت الرياح تعصف والرمال تضرب، مثل طائر اصطدم بوجه القماش بجانبنا، محدثة صوتا مغنيا مستمرا. كان الوقوف والتمشي يعرضك إلى الرشق بحبات بالغة الصغر تجعلك لسعاتها تشعر كأنها شرارات. وبينما كانت الرياح تثور، كنا نجلس متضامنين في دفء وأمان حول الموقد. كان مخيمنا بمثابة حصن، وكنا داخله رفاق طريق، أسيادا على قرب الماء الملآنة التي تمثل ثروة لا حد لها. كانت تلك واحدة من أسعد ليالي الرحلة، حيث جلسنا وقصصنا الروايات وشربنا القهوة وابتهجنا ابتهاجا شديدا، ربما مبكرا جدا، بسبب عملنا البطولي الذي يتمثل في عبور أصعب جزء من الصحراء. كنا نحن الخمسة منهكين. لقد أخذت ثلاثة أسابيع تقريبا، تتكون من اثني عشرة ساعة يوميا بمعدل أربع ساعات من المشي وثماني ساعات فوق الرحال، ضريبتها منا. ولكن خلال ذلك المساء، وعلى الرغم من عاصفة الغبار، كنا مطمئنين آمنين وسعداء. إن ليالي مثل تلك، هي بمثابة بلسم للخبط والوهج والألم.

تواصلت العاصفة طوال خمس أو ست ساعات وخلفت وراءها أكواما من الرمال على جميع الأشياء مهما كان السد حولها محكما. لقد نمنا وكفياتنا ملفوفة حول وجوهنا مثل المصفاة. كما كنت قد وضعت بندقيتي التي كانت في صندوق من البلاستيك داخل كيس نومي في محاولة للمحافظة عليها نظيفة، غير أنني وجدت في الغد أن أنبوبتها قد انسدت بالرمال. أما مسدسي الذي كان ملفوفا في البلاستيك، داخل

جراب من الجلد، داخل كيس نومـي الذي كان مزمما حول رقبتي، فإنه كـان مرمـلا إلى درجـة أنني لم أتمكـن من فتح المـزلاج. وحتى صندوق الألمنيوم " المانع لنفـاذ الهواء "، الخاص بآلة بيل للتصوير، فقد كان مملوءا جزئيا بالرمل. كما كـانت أنوفنا وأفواهنا وآذاننـا تبدو كأنها مسدودة بـالرمل. لم يكن أي شيء في مـأمن من ذلك. ومن عجائب الأمور أنه كلمـا كنـا ملفوفين بطريقـة أحسـن ضـد الرمال، زادت صعوبـة عمليـة التنظيـف. أما البدو، فلـم يكن عليهم إلا أن يقفوا بعبـاءاتهم الفضفاضة للتخلص من الرمل.

حوالي الثالثة صباحا نزلت أمطار خفيفة لتجعل من الغبار كويرات من الوحل. وجاء الفجر بمزيد من الغبـار والرياح، غير أننـا تمكنا من تناول فطـور الصبـاح المتكـون من القهـوة والتمر، خـلال فـترة هدوء مؤقتـة. أصابتنـا الموجة الثانيـة من العاصفـة حوالي السـابعة صباحا، ومضينا على ظهور مطايانـا طـورا ومـترجلين تـارة حتى تجـاوزت الشـمس الهـاجرة بقليل، عندما قررنـا التوقف للسماح للبـدو "بالإفطار". كان ذلك يعني بالنسـبة إلينـا فنجانا أو اثنـين من القهوة الـتي بقيت من فطـور الصباح، وقبضـة من التمر الذي أصبح الآن مخلوطا بكمية وافرة من القش والشعر من جلد الغنم والرمل.

لمـا كنا نبحـث عن مكان يمكـن أن نأوي إليـه من الريـاح، عبرنـا قمة كثيـب ولمحنا خيمـة بدويـة على بعد حـوالي ميل. وعندمـا اقتربنـا منها أكثر، تمكنا من رؤية كومة من القمامة وإطارات عربات مطاطية ضخمة وإطارات داخلية وبراميل معدنية كبيرة وعلب وعربتين. من الواضح أن هذا كان مخيمـا على الطريقـة الجديدة. كـانت قطعان كبـيرة العدد من الخرفان تجلب بواسـطة العربـة خلال أمطـار الربيع لتسـمينها بأعشـاب

الصحراء. وكان يتمّ تزويد رعاة القطعان بالمؤن بواسطة العربة حيث نجحوا في العيش خلافا للعادة بطريقة مستقرة في الصحراء. كانت العربة في هذا المكان تجسيدا للحتمية الاقتصادية في التاريخ.

ناداني راشد بصوت عال قائلا إنه سيمضي ليعلن عن وصولنا، وهذا ما تقتضيه العادة في الصحراء، حيث لا يمكن للمرء أن يذهب بفظاظة وعلى نحو مباشر وسط مجموعة بشرية أخرى، بل عليه أن يتحرك دائريا للتأكد من أنه تم العلم بحضوره وليسمح لمن كانوا داخل الخيمة بفاصلة زمنية كافية لترتيب أنفسهم بطريقة مناسبة لاستقباله. ثم ينتظر منهم أن يسرعوا إلى خارج الخيمة ويرحبوا به ويدخلوه إلى الخيمة ويكرموه بما يقتضيه واجب الضيافة.

بعد ربع ساعة، فوجئنا براشد وهو يسير بسرعة متجها إلينا، ولما صار على مدى السمع قال لنا بأعلى صوته: "أناس حقيرون. إنهم لم يتقدموا بدعوتنا إلى الداخل لشرب القهوة. أناس بدون حضارة، بدون لياقة!".

تدخل سلطان قائلا: " فلنهاجم شرفهم ".

لم أفهمه جيدا والتفت لأوبخه وقلت: " نهاجمهم؟ سلطان، هذه بلاهة منك".

رد: "لا يا أبا جورج، لا نهاجمهم، بل نهاجم شرفهم".

فقال راشد: "نعم، نعم يا أبا جورج. سنتوقف لإشعال النار وإعداد القهوة بأنفسنا. سوف يخجلهم ذلك".

كنت في حيرة وقررت أن أرى ماذا تعني المهاجمة الغريبة لشرفهم. تقدمنا نحو الخيمة، ثم توقفنا بمباهاة على بعد حوالي خمسين ياردة.

عقلنا الإبل هنالك بهدوء وعن قصد، وحفرنا حفرة بصورة متقنة لم يسبق لها مثيل خلال أي توقف سابق للغذاء، وبدأنا نجمع الأغصان المقطوعة والروث لإشعال النار. ثم بدأ راشد يحمص ويدق حبات القهوة متجنبا بعناية ولو نظرة خاطفة إلى الخيمة.

وفجأة جاء موكب من الخيمة يتكون من خمسة رجال، نادوا علينا بعناية وتفصيل: "السلام عليكم أيها الضيوف". رد راشد وزامل وسلطان بطريقة جافة وفي وقت واحد تقريبا: "وعليكم السلام" وأضافوا بهمس: "يا بخيل".

قال أكبر الرجال الخمسة سنا بنبرة رسمية جدا: "أيها الضيوف، تعالوا معنا لشرب القهوة. ماذا يعني إعدادكم لقهوتكم بأنفسكم وأنتم على مثل هذه المقربة من خيمتنا التي تتوفر فيها البرودة والراحة؟ تعالوا معنا".

قال زامل وهو يشير إليّ: "هذا قائدنا وسنفعل ما يطلب منا. إننا نملك قهوتنا الخاصة ولسنا في حاجة إلى فرض أنفسنا على سخائكم".

واصل راشد دق حبات القهوة صارفا وجهه بعناية، بينما كان سلطان - الذي سلته تأدية هذا الدور، ولكنه كان قلقا شيئا ما من أن تفقد هذه الإهانة الشديدة الواضحة عند البدو، معناها مع سائقي العربات هؤلاء - يقشر بأنفة برتقالتنا الوحيدة المتبقية مستعملا خنجره الحاد مثل موسى الحلاقة.

في ذلك الوقت، كان كل المقيمين في الخيمة، وهم حوالي خمسة عشر رجلا، يقرفصون في شكل نصف دائرة عند نصف المسافة الفاصلة بين خيمتهم وموقدنا. توسل إلينا قائدهم وهو ينظر قلقا فوق كتفه إلى أصدقائه وأقربائه بأنه يجب علينا أن نرافقه و"نتقهوى" معه وقال:

"سوف يسود وجهي. ثم إنني أردت أن أسألكم بادئ الأمر، غير أنني لم أكن أعلم أنكم ستتوقفون."

في هذا الوقت، كانت القهوة في إبريقنا النحاسي قد فارت وأخرجت الفقاقيع. انتصب راشد على رجليه ببطء وأخرج فنجانا صغيرا من الخزف الصيني من الخرقة التي كان ملفوفا فيها وصب فنجانا من القهوة وناوله إلى سائق العربة قائلا: " إذا كانت حبات قهوتكم قليلة و لم تتمكنوا من إيجاد حطب للوقود، سنعطيكم شيئا تشربونه ".

تردد سائق العربة، وأمام دهشة راشد، مد يده وأخذ القهوة وشربها. لم يكن قد انتهك القانون الأساسي للصحراء، ضرورة إكرام الضيف فحسب، بل رد على أوضح إشارة إلى فقدانه للتحضر بقبوله للإهانة.

ولما التفت وهم بالانصراف، صب راشد ما تبقى من القهوة على النار وقال: "إني آسف يا أبا جورج، ولكن لا يمكن لنا أن نشارك هؤلاء الناس في شرب القهوة، حيث إنه من المعروف عندنا أن الشرب والأكل مع الآخرين يعني أن نجعل منهم إخوة. فلنركب وننطلق".

ميلا بعد ميل، مضينا من خلال الرياح العاصفة والغبار عبر أرض منبسطة شاسعة، متجهين نحو نقطة سوداء بعيدة لا أكاد أميزها بواسطة منظار الميدان الذي أحمله. أعلن زامل أنها خيمة بدوية معتمدا في ذلك على عينيه فقط التي لم تكن لهما أية مساعدة، فوجهنا سيرنا نحوها مباشرة. ولحسن الحظ أن بوصلتنا كانت لا تزال صالحة للاستعمال، إذ إن ما كان يبدو بالمنظار أرضا منبسطة، كان في حقيقة الأمر عبارة عن تجويف جعلنا لا نستطيع رؤية الخيمة أثناء الجزء الأكبر من السير. قضينا ما يقارب أربع ساعات قبل أن نصل إليها.



كان الجفاف الذي ابتلى شبه الجزيرة العربية لمدة ثلاثة أعوام قد انقطع خلال الأسبوع الأخير من الرحلة، حيث تهاطلت أمطار غزيرة وتمكنا من شرب الماء من الأحواض التي تكونت على سطح الأرض. لقد اختفت في اليوم التالي.

عندما طلعنا من الصحراء، دعانا صاحب الخيمة وكان من قبيلة شرارات لتناول الطعام. زودنا في إلحاح بالحليب والقهوة والتمر والسمن، وفي النهاية سألنا بحذر واحتراز وحسن أدب عن المكان الذي جئنا منه. حينئذ أجابه زامل بمسحة من عدم المبالاة ولكن باعتزاز واضح وبساطة: "الرياض". سكت البدوي هنيهة، أو قل "وجم" في واقع الأمر ثم نظر في وجه كل واحد منا لمدة نصف ساعة كاملة وقال: "ما شاء الله! سأذبح خروفا. والله. تماما مثلما كان يحدث في

الماضي! سأذبح خروفا!".

بعد ذلك، أسرع إلى الخارج ليأتي بابنه الصغير وأشار إلى كل واحد منا أمام الصبي قائلا له إننا كنا بدوا حقيقيين وإنه يجب عليه أن يصبح مثلنا عندما يكبر. لم يكن يعاملنا بمجاملة وكرم فقط، بل زودنا كذلك بمعلومات على الطريقة البدوية الصحيحة لما هممنا بالاستئذان للانصراف. سألناه عن المسافة حتى سكاكة فأجاب: "بعض الخطوات فقط. لماذا؟ إنكم تستطيعون تقريبا رؤيتها من خارج خيمتي. إنها هناك". كان يشير بيده في اتجاهها، لكن بما أنني كنت قد لدغت من هذا الجحر من قبل، فإنني سألته: "كم كيلومترا بالتدقيق" فأجاب: أربعة. وفي أقصى الحالات خمسة. إنها أمامكم تماما. هنالك بالضبط".

لم نكن نقوى على التصديق بأن صحراء النفود أصبحت خلفنا.

في حقيقة الأمر، أصبح التصديق صعبا أكثر فأكثر ونحن نتقدم ساعة بعد ساعة لقطع تلك الكيلومترات البدوية الأربعة. غير أن نهاية النفود أتت فعلا. علمنا ذلك عندما وصلنا فجأة إلى طريق عامة معبدة. لقد نجحنا. فعلى مسافة لا تزيد عن بعض الأميال إلى الأمام، توجد واحة بها سبخة من الماء.

الخاتمة

●

تقع صحراء النفود الكبرى وراءنا، وإلى الأمام تمتد أربعمائة ميل من السير الشاق عبر الرمال والصخور حتى نبلغ هدفنا: عمان، عاصمة الأردن المتوترة التي تمزقها الحرب. كانت مطايانا منهكة القوى من شدة محنتها. أما نحن، فكنا مرهقين دون شك ولكن محنتنا أكسبتنا قوة على التحمل. كان الكثير لا يزال غامضا ... أو غير منجز، حيث لم نكن واثقين من الطريق المؤدية من وادي سرحان إلى الحدود وأقل وثوقا من أنه سيسمح لنا بالعبور إلى الأردن. غير أن أوج رحلتنا كان قد مر، وأما البقية فهي بمثابة المنحدر.

بقولي هذا، لا أعني أن أنتقص من قيمة تجارب الأيام والليالي المتبقية، حيث تعاقبت مدد طويلة جافة من السير الشاق تحت الشمس اللاذعة والرمال المرهقة يوميا، مع ليال تألقت فيها السماء عندما كان القمر ينمو شيئا فشيئا خلال الأيام الأولى من شهر أبريل. لقد أصبحنا فريقا

مقتدرا متصلبا على الرحال ومتعودا على الرتابة اليومية. مررنا بمخيمات مهجورة أكثر من أي وقت مضى وأصبحت المناظر الطبيعية أكثر تنوعا. في الحقيقة، كانت الليلة الأخيرة من الرحلة، ونحن نسير في سكون تحت ضوء القمر، عبر الصحراء التي كانت تشبه بحرا من الفضة الذائبة، أكثر تجربة تأثيرا أثناء الرحلة كلها. غير أن فترات طويلة من التأمل كانت تحدث وتتكرر بين هذه التجارب الخارجية. فبدون أن توقفني الحركة الهزازة لمشية الناقة، كنت كثيرا ما أجد نفسي أستغرق في غيبوبة ذهنية، ثم أستيقظ، ولكن بدون حضور تام، كنت أمضي ساعات في التفكير في مغزى الرحلة. اكتسبت مسألة ما كنا بصدد القيام به معنى خاصا بسبب حاجز الحدود الحقيقي أو المفترض بينما كنا نسير ببطء في اتجاه عمان. فحتى إذا سمح لنا بالدخول إلى الأردن، فهل سنسبب إحراجا لحكومة لا تنقصها الحساسية بخصوص صورتها كحكومة ملكية ذات توجه صحراوي تقليدي؟ كيف سينظر لنا وسط أمة تركز على الحداثة في زيها الحضري الغربي؟ فمثلما أوحى لباسنا وسفرنا على الطريقة التقليدية بأنه أمر سليم وجدير بالاحترام لما كنا عند طرف الصحراء الكبرى، فإن مظهرنا قد ينظر إليه هناك تحت أضواء مختلفة، فيعتبر مثلا نوعا من الحفل التنكري المتنقل.

ولكن بالنسبة إلينا نحن، هل كان الأمر مختلفا؟

من خلال أفكاري أثناء الساعات الطويلة المتموجة وكأنها آلة لضبط الإيقاع الزمني، انبثقت عدة آلياف بدت وكأنها عروق من المعدن الخام في صلب الأحداث اليومية المتداخلة.

إن مجرد المغامرة جعل الرحلة تستحق العناء الذي تحملناه في سبيلها. لقد خرجنا من حياة مستقرة تتوفر فيها جميع سبل الحماية لنتذوق تجربة

قد لا تتاح لنـا مرة أخـرى. كان يمكن لرحلتنـا أن تكون شـاقة وصعبة حتى في الظروف التي كانت مناسبة أكثر بكثير منذ قرن من الزمن. لقد حذرنـا الكثـيرون من أنهـا ستكون مسـتحيلة. غـير أن حجر الأسـاس لارتياحنا ورضانا يكمن بكل بساطة في أننا أنجزناها.

بطبيعـة الحـال، يستطيع النـاس أن يقوموا بها في العربـات وحتى على الدراجـات الناريـة. غـير أن ارتياحنـا العميق يكمـن في طريقـة العبور. وهذا ما جعل من الرحلة تجربة نادرة.

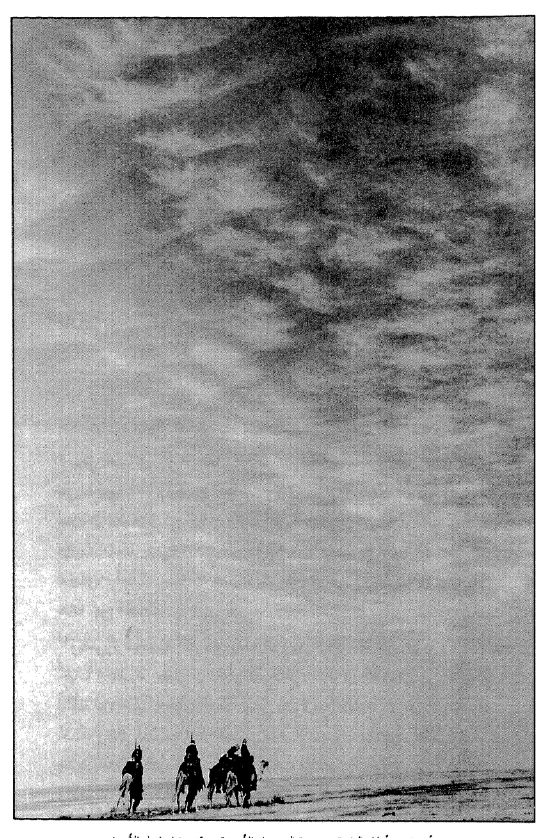
لقد حققنا إلى حد ما، الأسـاس المنطقي من وراء الرحلة: لقد استطعنا أن نـرى ونحس، وربما استطعت أن أسـجل بقلمي وبيل بعدسته شيئا من تجربـة الشـاعر البدوي لبيد. من المؤكـد أنه لا يمكـن لنا أن نستعيد تماما طريقة عيشـه ولكن على الأقل بالنسبة إلينا نحـن، أصبحت المشاهد التي كان قد وصفها أكثر بكثـير من مجرد تمرين في النحو. قد يساعدني هذا على القيام بترجمـة أفضل لقصيـدة لبيد، إلا أن الترجمة سـتكون على أية حـال مختلفة عـن تلك التي قـام بها أولئـك الذين لم يحسـوا و لم يروا و لم يتذوقـوا و لم يحـدث لهم أن انقبضـوا أيضـا فجـأة من المحـن والآلام التي كانت من نصيب لبيد. وفي ملاحظة فيها لمسة أكثر من الحنين، ملاحظة تركت في نفسـي أثرا متميزا بصفتي مـؤرخ، ولكنها ملاحظـة أحسست أنهـا لهـا قيمة أكـبر عند أولئك الذيـن يهتمون بتحول عالمنا وبعلـم البيئة للنفس البشرية، أقول إننا نجحنا في عيش الأنفاس الأخيرة لحضارة قديمة، مهما كان ذلك عابرا أوغير مباشر.

ومهمـا كـانت الأشـياء الأخرى التي يمكن أن يحس بهـا المرء بخصوص تلـك الحضارة – ولا شـك أن لهـا نصيبها مـن الجوانب السـلبية – فإنها كـانت أثـرا خـالدا للروح البشـرية التي لا تقهـر ولقدرة الإنسـان على

تكييف وتنظيم نفسه لينتزع من محيط يتسم بالقساوة إلى درجة تجعل منه عدو لدودا، ليس البقاء فقـط، بل أيضا المبادئ التي استطاع أن يشكلها بعبقريـة في نمط زاه ومعقد من الحياة ويسـاهم بطريقـة استثنائية في الدين والأدب والسلطان الواسع.

أعتقد أنـه من المفارقات التاريخيـة أن يهتم الإنسـان بالحضارات البائدة حيث أنهـا في نهايـة الأمر موت جمـاعي للإبداع الإنســاني. وقد كان العصر الحديـث وحشـيا بصـورة متميزة في إبادتـه الجماعيـة للصغـار والضعفاء والمختلفين. لقد تـرك مصير هنود أمريكا أصداء في كل قارة. وخـلال القرون العديدة الأخـيرة، وقعت أعـداد وافرة إذا لم تبلـغ المئات من اللغات والحضارات في شـرك دوامة المجانسـة الكبيرة لعملية التعصير. إن الشيء الكثير مما تم فقدانه كان غير فعال وغير ملائم وقاسيا وفظيعا، والكثـير مما عوضـه هو أحسن منـه بقدر بالغ. وإنـه لمن مظاهرُ الترف – الـتي لا يقدر عليهـا الفقـير – أن يتـم تصوير المـاضي الطريف بطريقـة رومنسـية. فقليـل من بيننـا هم الذيـن يودون العـودة إلى حيـاة تخلو من الأدوية، حياة كانت المجاعة والوباء فيها رفيقين لأغلب الناس. لقد حقق عصرنا أشـياء عظيمة للجسـد، غير أننـا دفعنا الثمن لقـاء هذه المكاسب وهو مـا يتمثل في التشـابه المتزايد، و لم نتمكن مـن تحقيق التنوع. وفي الحقيقـة، يمكن للمؤرخين في المستقبل أن ينظـروا إلى الوراء، إلى عصرنا على أنـه عصر قرر خلالـه الإنسـان أن التنوع هـو المظهر الوحيد للترف الذي يكمن خلف حلم الجشع.

لقد أصبحت المجانســة مسـيطرة في الحيـاة العصريـة حتى أن العديد ينظرون إليها على أنها المنقـذ المحتمل لكوكبنا. وإذا وجدنا حولنا أعداء لدوديـن يعـبرون عن آراء مختلفــة حول العـالم، بلغـات مختلفـة، عندمـا



أربعة من أدلاء البادية (دورية الصحراء الأردنية) يقودوننا داخل الأردن.

يتوجهون إلى طبالين إعلاميين مختلفين، فلا بأس: عن غير قصد، طوعا أو كرها، نحن جميعا نعجن لنعطي منتوجا متجانسا. لقد طمست متطلبات وشكل وتركيب المجتمع الصناعي الاختلافات بين الشيوعيين والرأسماليين، بين المسيحيين واليهود والمسلمين، بين الأبيض والأسود، والأسمر والأصفر، بين ورثاء تجربة تاريخية معينة وأخرى. إننا نبدو وكأننا نتجه معا نحو نوع وحيد من الإنسان العصري، الحضري، الصناعي وسليم التفكير. وفي هذا التلاقي، يكمن في اعتقاد البعض، عالم جديد رائع مفيد.

أما بالنسبة لي، فإني أخشى ذلك لأني أجده عديم الطعم، شديد الدقة والضبط، لا يثري الروح البشرية مثل الخبز الأبيض الملفوف في البلاستيك بالنسبة للجسم.

ينبغي علينا في كل ثرواتنا وفي كل قدراتنا أن ننجح بشكل ما في إيجاد طريقة لتهيئة عالم يضمن التنوع. ولا نستطيع إلا بذلك أن نغذي روح حب الاستطلاع التي كانت دائما، عندما تختلج بوهن، أهم مصدر لقوة الإنسان منذ بداية الجنس البشري. لقد أيقظ فينا الوقوف على أثر حضارة واحدة، حساسية متميزة نحو فناء الآخرين وبطريقة ما أيضا نحو فنائنا نحن أنفسنا.

وبصورة شخصية أكثر، وجدنا أنا وبيل أن الرحلة تمثل تحديا لاقتصاد حياتنا الخاصة. فقبل أن نغادر شيكاغو، بدأنا في التخلص من الأشياء المثقلة لنا، حيث وجدنا أنفسنا نلبس قشرة من الأشياء التي من شأنها أن تخمد وتقتل استمتاعنا الحسي بالحياة سواء أكانت كماليات أو ضروريات. وبالنتيجة بدأت المكيفات والسيارات والملابس والأثاث والأدوات والتحف الصغيرة التي يزين بها البيت، هذه الأشياء التي تعودنا



أربعة من العرب الأصليين واثنان مزيفان.

عليهـا تعودا كبيرا والتي أصبحنا مدمنين عليها إدمانا تاما، بدأت تبدو لنا – مـن وجهـة نظرنـا الجديدة – محنـا أكـثر منهـا دعـائم. لقد علمتنـا الصحراء مدى قلة الأشياء الضرورية للحياة، وبالتخلي عن تلك الأشياء التي كنـا نعتقـد أنهـا مصدر سـرور وابتهـاج، اكتشـفنا آفاقـا جديدة للإحسـاس، حيث اكتسبت أشياء بسـيطة، لم نكن نلاحظ حتى مجرد وجودهـا، قيمـة جديدة، وكـانت المتـع الحسـية الصغـيرة تجلـب ارتياحا عميقا وصادقـا. شعرت وأنـا أعود بأفكاري إلى حياتي الخاصـة الماضية أنني كنت مثـل رجل يشعل الضـوء تلو الآخر في يأس ليكتشـف ببساطة أنه ربما يكون من الأرشـد أن ينزع نظاراته السـوداء. أثناء إنجاز الرحلة، قرأت كتـاب " الجحيم " لدانتي. كـانت هذه القراءة من ضمن العوامل الـتي أثـارت المعنى المجـازي لرحلتنـا، إذ يبـدو وصـف دانـتي " للذئب الرمـادي الجشع " الذي يعوق الدخول السهل للإنسـان إلى الجنة متميزا



بيل بولك (إلى اليمين) يقدم تقريرا عن الرحلة إلى عاهل المملكة العربية السعودية، الملك فيصل بن عبدالعزيز.

من بين غيره من المشاهد. وفي البحث الدائم عن الاستهلاك، الذي لعبت فيه دورا أكثر من المتواضع، أدركت كم كان دانتي مصيبا في اعتقاده أن الشهوة تتزايد من تلقاء نفسها.*

فكرت ورجوت على الأقل للحظة، أنني قد نجحت في مروري الخاص بي، ليس نحو الجنة دون شك، ولكن على الأقل نحو درجة معينة من

- e ha natura si malvagia e ria
che mai non empie la bramosa voglia,
e dope 'lpasto ga piu Fame che pria"

("Vicious her nature is, and famed her ill;
when crammed she carves more fiercely than before;
her raging greed can never gorge its fire".)
- Canto I, 97 - 9 (Translation by Dorothy L. Sayers; Baltimore, Md; Penguin, 1949).

السكينة. شعرنا بوعي جديد عند الاكتفاء بتلك الأشياء القليلة التي يتطلبها البقاء. لقد كانت كل رجة، كل هبة من الرمل، كل جرعة من الماء البارد، كل نشوة للقهوة، كل لحظة ممتعة حول نار المخيم، كل وهج من الشمس فوق الرمال، كل ومضة لضوء النجوم وشعاع سابح لضوء القمر، تجربة فريدة، ثمينة، سامية. وكانت جلدتنا ذاتها تبدو قد تجددت وتفتحت للأحاسيس.

لكن التحول الذي شعرنا به في داخلنا تضاءل أمام ما حصل في داخل زملائنا.

في بداية الرحلة، لم يكن البدو قد فكروا في مسألة نظرتهم إلى المغامرة. حيث كانت بالنسبة إليهم بكل بساطة عملا، مهمة، أمرا طلبت منهم الحكومة أن يقوموا به، فلم يكن لديهم شيء من الشعور البيوريتاني بالذنب لحضارة مادية. كانت أجسامهم تتوق إلى المتع المادية التي نبذناها عن طواعية ولم يكونوا في شوق إلى أي مغامرة. وبدون أن تبهرهم سماء الليل وغروب الشمس المتألق، كانوا يتوقون إلى وليمة الأمير. وبدون أن تؤثر فيهم الوحدة، كانوا يفضلون الاجتماع حول نار المخيم ليستمتعوا بالأحاديث.

غير أن رغبة الاستطلاع التي كانت لدينا سرت فيهم تدريجيا بصورة تكاد لا تدرك. وبعد أن عبرنا صحراء النفود الكبرى بفترة قصيرة، وصل كل هذا إلى نهاية مفعمة بالحيوية ومثيرة للمشاعر بصورة متميزة.

لقد حدث لنا أن صادفنا في طريقنا مخيما، وقرر بيل أن يلتقط صورة لزامل على هيئة لبيد وذلك استعدادا لكتاب الشعر. وكان قد قام بذلك عدة مرات، غير أنه فشل في كل مرة في نيل رضانا حيث كان يحدث دائما بعض الخلل في ما يتعلق بالضوء أو المنظر أو الطريقة التي باشر بها

بيل مهمته المثيرة. غير أنه في هذه المرة، اقترب مني زامل بنظرة تتسم بالجدية والصدق على وجهه الصارم الداكن وقال وهو يكاد يهمس: "أبا جورج، لقني مرة أخرى ذلك البيت من القصيدة التي أنشدها لبيد عندما وصل إلى الديار."

كانت الطريقة التي قال بها ذلك تتسم بشيء يتطلب أكثر من رد تعوزه الحماسة. لا أريد أن أستشف من الحدث أكثر مما فيه ، غير أنه كان من الواضح أن زامل كان يشعر بأنه تحول تماما. لقد تم استئصال زامل من شخصيته الأصلية بفعل الطابع الدنكخوتي للرحلة. لقد أصبحت الأعمال الروتينية الآن مهمة وأصبحت الدعابات جدية.

لقد بدأت تسري فينا جميعا الحقيقة المتمثلة في أن هذا كان أكثر من عبور أرض مقفرة. لقد كان تسوية لنفوسنا.

بينما كان زامل يقف أمام أطلال ذلك المخيم وبيل يجثم أمامه محاولا زوايا متنوعة، وهو يضع ويزيل العدسة تلو الأخرى، بدأت شفتا زامل تتحركان بالأبيات الافتتاحية لقصيدة لبيد الذهبية. أنشد زامل كلمات لبيد وهو يلقي نظرة شاملة على أطلال مخيم قديم وحجارة ترسم حدود خيمة ومصارف لمياه الأمطار وحفرة الموقد المسودة.

فوقفت أسألها، وكيف سؤالنا صما خوالد ما يبين كلامها.

عندما انتهى بيل من التقاط صورته وأعاد ترتيب عدساته وركب مطيته، بقي زامل متجمدا وهو يلقي نظرة شاملة على المشهد. لم أرغب في التطفل على استغراقه في التفكير الحالم. لكنه في آخر الأمر تنهد ثم التفت وتقدم بوقار نحوي. لم نقل شيئا لبضع لحظات، وبعد ذلك ابتسم بتلك الطريقة المتكلفة التي عزوتها إلى محاولته التغلب على الألم وقال ببساطة: "أبا جورج، لقد انتهى كل شيء. فلبيد مات وأنت كنت على صواب في خصوص العربة. لقد قتلتنا جميعا".

الفهرس

طبعت لدى شركة ابوظبي للطباعة والنشر

هذا الكتاب

في سنة ١٩٧١ ، عبر المؤلفان الأمريكيان لهذا الكتاب الصحراء العربية الشاسعة انطلاقاً من الرياض للوصول إلى الأردن في رحلة على امتداد ألف ومائتي ميل على ظهور الإبل ، لم يحاول أي عربي أو غربي القيام بها طوال خمسين سنة . كان الرجلان وهما من أهل العلم ومن سكان المدن ، غير متعودين على حياة المغامرة والأخطار ، ولكن على الرغم من إلحاح المسؤولين في حكومة المملكة العربية السعودية ، والتحذيرات بعدم تعهد الآبار الموجودة على طول الطريق خلال ثلاث سنوات من الجفاف ، وقسوة الليالي الباردة وخطر الرياح والرمال القاتل ، وإمكانية مهاجمتهم من قبل الكلاب المصابة بداء الكلب أو قطاع الطرق والمغيرين ابتغاء السلب والنهب ، فقد انطلقا في رحلتهما الجريئة ، كان هدفهما ثلاثي الأبعاد : تذوق حياة لا تثقلها معدات المجتمع الغربي العصري ، والبحث عن بقايا الحضارة البدوية القديمة ، واقتفاء آثار لبيد ، الشاعر العربي الجاهلي الذي عاش في القرن السادس الميلادي .

والآن بأسلوب غني بالتفاصيل ، يعيد ويليام بولك وويليام مارز إلى الذاكرة مغامرتهما الصحراوية منذ اليوم الذي انطلقا فيه مرتديين الملابس البدوية ، مزودين بآلة السدس والبوصلة وجميع أنواع معدات البقاء ، يرافقهما مرشدون غير واثقين من المسالك الصحراوية وصقر مغمى مرعب أهداه لهما أمير الرياض ، لقد أضفيا صورة حية على الأشياء الجميلة وغير المتوقعة التي اعترضتهما أثناء الطريق : الأراضي المقفرة الرتيبة المملة في الظاهر تحولت عن قرب إلى منظر طبيعي مختلف الألوان ، معقد ، ومفصل مثل حديقة يابانية ، والسماء المتألقة ليلا ، وقواعد حسن السلوك وتقاليد المخيمات العربية طوال الطريق والكرم والجود . وذكرا كذلك الأخطار : كُثُباً من الرمال المتحركة التي يصعب الاهتداء فيها شوشت إمكانية اهتداء الإنسان إلى الجهة المقصودة ، والأعمدة الشاهقة من الرمال الحارقة التي ترهق الأجسام ، والبحث المقيت عن الماء بقرب خاوية وإبل مرهقة قد انكمشت أسنمتها .

إن روايتهما المليئة بالعجائب والأهوال ، وبالأوجاع ، والابتهاج لشهادةٌ رائعة على تجربة متميزة ، تسمح قراءتها بإدراك وفهم السحر الأزلي شبه الخفي الذي لا زالت الصحراء تحتفظ به للغربي الذي تحاول حضارته بتصرف متناقض استبدال السلوكيات البدوية القديمة .

الصور : ويليام . دجاي . مارز .

الخارطة : دافيد ليندروث .

هذا الكتاب

رحلة عبر الصحراء العربية من الرياض إلى الاردن قام بها عام ١٩٧١ المؤلفان وليم بولك ، ووليم مارز اقتفاءً لآثار الشاعر الجاهلي لبيد ، وبحثاً عن بقايا الحضارة البدوية القديمة .



المجمع الثقافي

CULTURAL FOUNDATION

ص. ب ٢٣٨٠ - ابوظبي - الإمارات العربية المتحدة - هاتف : ٢١٥٣٠٠

P .O. BOX : 2380 - ABU DHABI - U . A . E . - TEL. 215300 - CULTURAL FOUNDATION

تصميم الغلاف: علي الحاك